

(سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ الحديث)

قصة الإيمان

منذ آدم حتى محمد

عليهما السلام

يرويهما

محمد علي أبو زهرة

إهداء

إلى حبة القلب

وقرة العين

الريحانتين

أحمد وعبدالحميد

1

في البدء كان الله وحده ولا شيء معه ولا شيء سواه.
هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ.
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.
ولما شاء سبحانه أن يخلق الخلق.
كان أوّل ما خلق القلم فقال له: اكتب.
فجرى القلم في تلك الساعة بكل ما هو كائن إلى يوم القيامة.
ثم خلق السماوات والأرض وما بينهما.
ولما فرغ من الخلق استوى على العرش.
وكتب في كتابٍ فهو عنده: (إنّ رحمتي غلبت غضبي).

2

ثم خلق الله الملائكة.
خلقهم لعبادته.
خلقهم من نور.
فمنهم القائم.
ومنهم الراكع.
ومنهم الساجد إلى يوم القيامة.
يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ.
لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ.

3

ثم خلق الله الجنَّ.
خلقهم من نار.
وأذن لهم في سُكنى الأرض.
وَهُمْ أُمَّةٌ مِثْلُ بَنِي آدَمَ.
يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَنَاسَلُونَ.
ومنهم المؤمنون ومنهم الكافرون.
وكان لهم في الأرض قبل بني آدم فسادٌ كبير.
وتاريخٌ في سَفْكِ الدماءِ عسير.

4

ثم كان الكونُ على موعِدٍ مع مخلوقٍ جديدٍ.
مع سيّد هذا الكون آدمَ أبي البشر.
فقد شاء الله أن يجعل في الأرض خليفةً.
يكون له سلطانٌ عليها ويتصرف فيها وفق مصلحته.
فخلقه الله من ترابٍ.
وسوّاه في أجمل صورةٍ.
وعلمه أسماء كلِّ شيءٍ.

5

وعندما اكتمل خَلْقُ آدم.
أمر الله الملائكة بالسجود له.
تكريماً وتشريفاً.
فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهم أجمعون.
إِلَّا إِبْلِيسَ أَلْبَى وَاسْتَكْبَرَ.
لأن آدم مخلوق من طين وهو مخلوق من نار.
لقد أكلت العَيْرَةُ قلبه وذهبت بلبه.
فمسخه الله شيطاناً رجيماً.
وطرده من الجنة ومن القرب والنعيم.

6

ثم خلق الله لآدم من نفسه أنيساً هو حواء.
زوجةً وشريكاً وسكناً ومودةً ورحمة.
وأمره أن يسكن هو وزوجته الجنة.
وأباح لهما أن يأكلا منها رغداً حيث شاءا.
إلا شجرةً واحدةً حرّمها عليهما.
لقد أبيضت لهما كلُّ ثمار الجنة إلا شجرة...
شجرةً واحدة.
ترمز للمحذور الذي لا بد منه في الحياة.
فبغير محذور لا تنبت الإرادة.
وأخبره الله أن له في الجنة حياةً النعيم.
فلا يجوع فيها ولا يعرى.
ولا يظمأ فيها ولا يضحى.
وحذرته من إبليس.
وكشف له عداوته له ولزوجته.
وأنه سيسعى في إخراجهما من الجنة ليصيب آدم بالشقاء.
حسداً له وانتقاماً منه.

وسرعان ما وقع ما حذر الله آدم منه.
فقد بدأت وسوسة إبليس لآدم.
وظهرت بوادر العداوة.
فراح يتزلف إلى آدم ويتودد له ويدعي أنه ناصح أمين.
وقال (هل أدُّلك على شجرة الخلد ومُلكٍ لا يبلى).
وقال لآدم وحواء: (ما نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ
إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ).
وأقسم لهما بأنه لهما من الناصحين.
فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ
فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا
وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ
وكانت هذه أول معصية في الملكوت بعد معصية إبليس.
وتحقق ما حذر الله منه.
أزلهما الشيطان عن الجنة.
فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والقرب والسرور.
وصرفهما عما كانا عليه من الطاعة والسعادة والخبور.
إلى سُؤْمِ الخبيثة والنكد والغرور.
فأين كان عقل آدم حين استسلم لعدوه؟
لقد أسلم إليه عقله وعصى أمر ربه.
ومن بعدها بدأ إبليس مهمته الشيطانية الأزلية في إغواء آدم وبنيه.

8

وسوسَ الشيطانُ لآدمَ وزوجته ليُظهرَ عيوبَهُما المستورة.
وعندما نظر كلُّ منهما للآخر علم أنهما عريانان.
فطفقا يستران نفسيهما بورق الجنة.
وكان هذا أثرُ المعصية من آدم.
وأثرُ المعصية من بنيه من بعده.
أثرُ المعصية في كل زمان ومكان.
انكشافَ مزيدٍ من السَّوءات والعيوب المستورة بستر الله.
ومزيدٍ من التعب والإرهاق والمشقة بعد كل معصية.

9

وعند ذلك ناداهما رُهما:
ألم أتھكما عن تلکما الشجرة؟
ألم أقلن لکما إن الشيطان لکما عدو مبين؟
فشعرا بالخجل.
وقالا (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ).
فقال اهبطوا إلى الأرض فإن لکم فيها مستقراً ومتاعاً إلى حين.
وخرج آدم وزوجته من الجنة.
ونزلا إلى الأرض حيث التعب والألم والمشقة.

10

وكان من رحمة الله بآدم.
أنه لم يشأ أن يتركه يكتب بنار الخطيئة.
وهو الذي سبقَتْ رحمته غضبه سبحانه.
وكتب على نفسه الرحمة.
كتبها على نفسه قبل خلق آدم وقبل الخلق أجمعين.
فشرع له أجمل ما تفضّل به عليه وعلى أبنائه من بعده.
شرع له التوبة من الخطيئة.
فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ.
إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.
وكما كانت الخطيئة أسوأ ما جاء به آدم.
كانت التوبة إلى الله أجمل ما علّمه الله إياه.

11

أصبح آدمُ وزوجته على الأرض.
وصار عليه أن يعملَ فيها ويكدح.
فراح يزرعُ ما يأكل.
ويصنعُ ما يلبس.
بذر في الأرض الشعير.
ولما نبت حصده ثم درسه ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه.
ثم خبزه فأكله بعد جهد عظيم وشقاء أليم.
وكان أولُ كسوتهما من شعر الضأن.
جزّه ثم غزله فنسج له جبّة ولحواء درعاً وخماراً.

12

ثم صار لآدم وحواء أبناءً وذريةً.
فولدت له حواء قابيل وأخته في بطن.
وهاييل وأخته في بطن.
وكانت تلد له في كل بطن ذكراً وأنثى.
وعندما كبر الأولاد وصاروا في سن الزواج.
أمر آدم بأن يزوج كل ابن أخت أخيه.
والآخر بالأخرى وهكذا.
حتى لا يتزوج الأخ أخته التي ولدت معه.
واستعد آدم لإقامة الأفراح.
وأصبح على وشك أن يُرزق بالأحفاد.

13

ولكن لم تكتمل فرحة آدم بزواج بنيه.
وانقلبت الأفراح إلى أتراح.
وكانت الأرض على موعد مع أول جريمة قتلٍ بشرية.
فقد قتل قابيلُ أخاه هايبيل.
كان هايبيلُ سيتزوج بأخت قابيلَ وكانت جميلة.
فأبى عليه قابيلُ وأراد أن يستأثرَ بها لنفسه.
وبدأ صراعُ المصالح بين الأخوين.
فأشار عليهما الوالدُ المحبُّ بأن يقربا قرباناً لله.
ومن تقبلَ اللهُ قربانَه تزوجها.
فقرَّب هايبيلُ شاهةً سمينةً وكان صاحبَ غنم.
وقرب قابيلُ حُزمةً من زرع رديءٍ وكان صاحبَ زرع.
فنزلت نازٌ فأكلتُ قربانَ هايبيلَ وتركتُ قربانَ قابيل.
فغضب وقال (لَأَقْتُلَنَّكَ) حتى لا تَنكحَ أختي.
وذات ليلة أبطأ هايبيلُ في الرعي.
فبعث آدمُ أخاه قابيلَ لينظر ما أبطأ بأخيه.
فلما ذهب فإذا هو به فقال له في حسدٍ وغيظٍ:
تُقْبَلُ منك ولم يُتَقَبَلْ مني؟
فقال وما ذنبي؟ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.
فوسوس إليه الشيطانُ وزينَ له قتلَ أخيه.
وانتقلت عند ذلك العيرة الشيطانية إلى الإنسان.
فقتله فأصبح من الخاسرين.
ثم أسقط في يده فأصبح من النادمين.
واحتار بجثَّة أخيه فلم يعلم ما يفعلُ بها.
فبعث اللهُ عُرابينَ أخوين فتقاتلا فقتل أحدهما الآخر.
فلما قتل الغرابُ أخاه عمِد إلى الأرض.
فحفر له فيها حفرةً ثم ألقاه فيها وغطاه بالتراب.
فلما رآه قابيلُ يصنع ذلك اشتد ندمه.

وقال (يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوْرِي سَوْءَةً أَحِي).
ثم فعل مثل ما فعل الغراب فواري أخاه ودفنه.
وكادت الحسرة تمزق قلبه.
ولما جاء الخبر لآدم.
حزن على ابنه هابيل حزناً شديداً.
حزناً سوف يتوارثه الآباء على فقد الأبناء حتى قيام الساعة.

14

مات هايل.
وتزوج قابيل.
وكان زواجاً مغموساً بالدم والخطيئة.
وأثمر هذا الزواج المشؤوم.
فصار لآدم أحفاداً كثيرين.
جعل الله منهم رجالاً كثيراً ونساءً.
انتشروا في ربوع الأرض واستوطنوها.
ثم أوحى الله إلى آدم:
إن لي حَرَمًا على الأرض مقابل عرشي.
فانطلق فابن لي فيه بيتاً تطوف به كما تطوف ملائكتي بعرشي.
وأرسل الله له مَلَكًا فعَرَفَه مكان البيت وعَلَّمَه المناسك والعبادات.

عاش آدم ما عاش .
وقد علّم أولاده ما عليهم الله من حقوق .
وبيّن لهم أركان الإيمان .
وأوضح لهم أهمية التوبة وحلاوتها بعد العصيان .
وتركهم على المحجة وأقام عليهم الحجّة .
ثم حان ما قدره الله عليه وعلى بنيه .
فكل نفسٍ ذائقة الموت .
وما جعل الله لأحد من خلقه الخلد .
مات آدم يوم الجمعة الذي ولد فيه .
فجاءته الملائكة بكفن وحنوط وطيب من الجنة .
ولما قبضوه علّموا بنيه كيف يصنعون فيه .
فغسلوه وكفنوه وحنطوه .
وحفروا له ولحدوه وصلّوا عليه .
ثم أدخلوه قبره فوضعه فيه .
ثم حثّوا عليه التراب .
رحم الله آدمَ أبا البشر .
الذي خلقه بيده .
ونفخ فيه من روحه .
وأسجد له ملائكته .
وأسكنه جنته .
وعلّمه أسماء كلِّ شيء .
سلامٌ على أبينا آدم في العالمين .

ثم مرت سنونٌ عديدة.
وكثر بنو آدم في الأرض وانتشروا وتوسعوا.
وزادت علومهم في عمارة الكون.
وظهر من بينهم نبيٌ جديد.
اسمه إدريس.
قال الله تعالى عنه إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا.
ورفعه في العلم والمعرفة مكاناً علياً.
فكان أول من خَطَّ بالقلم وتعلم الكتابة.
ودَوَّن الشريعة وعلوم الدنيا والدين.
سلامٌ على إدريس في العالمين.

ثم مرت قرونٌ عديدة.
كان فيها بنو آدمَ على العهد الذي تركهم عليه أبوهم.
مؤمنين موحدين محسنين.
ثم كانت الأرض على موعد مع انقلاب كبير وانحراف خطير.
انحراف في العقول وفساد في الأفهام.
ومعصية الله وطاعة الشيطان.
فتسرب الخلل إلى عقائد أولاد آدم.
بعدما طال عليهم الأمدُ وقست قلوبهم.
فعبدوا الأصنامَ والطواغيت والأوثان.
واستبدلوا بالإيمان الضلالة والكفران.
وذلك
وتواصوا بعبادة الأوثان.
وَقَالُوا لَا تَدْرِنَ آلِهَتُكُمْ وَلَا تَدْرِنَ وِدًّا وَلَا سُوءًا
وَلَا يَعْوَتُ وَيَعُوقُ وَنَسْرًا
وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا
ولم يزدادوا إلا الضلال والطغيان.
وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح.
فلما هلكوا أوحى الشيطانُ إلى قومهم.
أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً.
وسمُّوها بأسمائهم ففعلوا.
ولم تُعبَد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت.

فأرسل الله إليهم أخاهم نوحاً.
وكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض.
يحمل إليهم رسالة السماء وتجديد التوحيد.
ويذكّرهم بالعهد والوعد ويخوّفهم بالوعيد.
ولبت فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً.
يدعوهم إلى عبادة الله وحده.
وينهاهم عن عبادة الأصنام.
فتصدى له الكبراء والزعماء.
فقالوا له إنا لنراك في ضلال مبين.
وألقوا في وجهه بالتهمة والتخوين.
والسخرية بالدين.
وقالوا: مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ
إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فْتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ
وكذبوه واستمروا في تكذيبه وإيذائه بكل سبيل.
وجعلوه يعيش هو وأهله في كرب عظيم.

وكان لنوح مع قومه صلوات وجولات.

ومشاهد دعوية لا تنتهي.

وفي مشهد من هذه المشاهد:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ

إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ

قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ

وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ

إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ

قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ

قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ

فَأَفْتَحْ بَيْتِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَبِحَبْلِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ

ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ).

وفي مشهد آخر من هذه المشاهد.

وفي سورة كريمة سُميت باسم نوح.

قص الله علينا هذا الحوار الإيماني:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا

يَعْقِبْكُمْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا

وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ

وَاسْتَعْصَمُوا ثُمَّ بَابُوا لَهُمْ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا

ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا

ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا

فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا

وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا

مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا

وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا

وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا

وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا

ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا

لِتَسْتَلْكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا
وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبْرًا
وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ
وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَئُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا
وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا
مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُعْرِفُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا
وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا
إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا).

وفي مشهد دعوي آخر لنوح مع قومه:

قال: إِيَّيْكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِيَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ
فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا
وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِأَدْبَارِهِ الرَّأْيِ
وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي
وَأَتَانِي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ مَوْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ
وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ
وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ
وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْعَيْبَ
وَلَا أَقُولُ إِيَّيْكُمْ مَلَكٌ
وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا
اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِيَّيْ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ
قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا
فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ
وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ
إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ
هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيْ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ.

ولما علم الله أن القوم لا خير فيهم.
 وأنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن.
 واسى نوحاً وخفف عنه.
 وأمره بأمر سيكون فيه تغيير حال الأرض:
 (وَأَوْحِيْ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ
 فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ
 وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ
 وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ
 قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقْتِمٌ
 حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
 وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ
 وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
 وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ
 يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ
 قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ
 قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ
 وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُعْرَضِينَ
 وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلَعِي
 وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ
 وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي
 وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ
 قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ
 فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
 وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
وَأُمَّمٌ سَمِعَتْهُمُ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ
تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ
مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا
فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ).

هذا نوح.
 أول رسول على الأرض حارب الشرك.
 وأحيا الإيمان والتوحيد.
 ولبث في قومه قروناً صابراً على أذاهم.
 فكان له شأن بين بني آدم كبير.
 وكان أول أولي العزم من الرسل.
 وكان قدوة لإخوانه النبيين من بعده.
 تُتلى عليهم أنباؤه ليجدوا فيها العظة والسلوى.
 (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ).
 وأخذ الله منه الميثاق كما أخذه من إخوانه أولي العزم من بعده:
 (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ
 وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ
 وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا).
 وكان شرعه شرعاً من بعده من إخوانه المرسلين من ذرية آدم.
 شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى
 أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ.
 ومن تكريمه وفضله عند ربه الذي أرسله أنه كان أباً للأنبياء.
 كما كان إبراهيم أباً للأنبياء.
 (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ).

عاش نوح عمراً مديداً في الدعوة.
فما غير ولا بدّل ولا قصر.
ثم جاء الأجل.
فمات نوح كما مات آدم وإدريس.
ولما حضرت نوحاً الوفاة.
قال لابنه إني أمرك بلا إله إلا الله.
وأنتهاك عن الشرك والكبر.
ثم يجيء نوح يوم القيامة وأمته.
فيقول الله عز وجل: هل بلغت؟
فيقول: نعم أي رب.
فيقول لأمته: هل بلغكم؟
فيقولون: لا .. ما جاءنا من نبي.
فيقول لنوح: من يشهد لك؟
فيقول: محمد وأمته.
فيشهدون أنه قد بلغ.
(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
وَيَكُونَ الرِّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا).
(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ
وَبَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ
سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ).

25

وبعد نوح مرت على بني آدم قرونٌ عديدة.
تركهم فيها نوح على التوحيد والإيمان.
بعد أن تطهرت الأرض بالطوفان.
ثم بزغ من جديد قرنُ الشيطان.
وطال على بني آدم الأمدُ فقسست قلوبهم.
ورجعوا إلى عبادة الأوثان.
وفي قبيلة يقال لهم عاد.
وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف.
وهي جبال من الرمل بأرض مُطلَّة على البحر.
وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام.
وفي شأنهم نزل القرآن:
(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ
إِزْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ
الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ).
إنهم عادٌ الأولى أول من عبد الأصنام بعد الطوفان.

وكانت لعادٍ أصنامٌ ثلاثة.
 فبعث الله فيهم أخاهم هوداً رسولاً.
 فدعاهم إلى الله:
 (وإلى عادٍ أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله
 ما لكم من إله غيرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ
 قال المَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ
 وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
 قال يا قوم ليس بي سفاهةٌ ولكيِّي رسولٌ من ربِّ العالمين
 أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ
 أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
 واذكروا إذ جعلكم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً
 فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
 قالوا أَجئتنا لنعبد اللهَ وحدهُ ونذرَ ما كانَ يعبدُ آباؤنا
 فأتينا بما تعبدنا إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 قال قد وقعَ عليكم من ربِّكم رجسٌ وغضبٌ
 أُجَادِلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
 فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ
 فَأَجْحِبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ).

وكما كان لنوح مع قومه صلوات وجولات .
 ومشاهد دعوية لا تنتهي .
 كان لهود مع قومه مثلها .
 وفي مشهد من هذه المشاهد:
 (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ
 يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ
 وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا
 وَيُرْدِكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ
 قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ
 وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
 إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ
 قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَلَيْ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ
 مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ
 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا
 إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ
 وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا
 إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ
 وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا لَنَجِّنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَنَجِّنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ
 وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ
 وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ
 وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ
 أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ).

وفي مشهد آخر معهم.

دعا فيه هود قومه.

(فَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ

وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ

يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ

وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ

أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ

هِيَ هَاتِ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ

إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ

قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ

فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ).

وفي مشهد آخر من هذه المشاهد:
(كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ
إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
أَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ
وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ
أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ
وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين
إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ
وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ
فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

وفي كل يوم لم تكن عادٌ تزداد إلا التجبر والعناد.
(فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ
لِنُنذِرَهُمْ عَذَابَ الْحِزْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ
وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ
فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
وَبِحِينِنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

وهذا يوم آخر مشهود من أيام هود.
 (إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ
 وَقَدْ خَلَّتِ النَّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ
 أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا بَجْهَلُونَ
 فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أُوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا
 بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ
 تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ
 وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً
 فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ
 إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
 وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
 فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
 بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

هذه هي عادٌ التي كانت أشدَّ أهل زمانها في الخَلقة والشدة والبطش.
وهذه قصة أحيهم هود معهم.
وكيف قام بحق الله فيهم.
ولكن للأسف (كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ
تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ
فَكَيْفَ كَانَ عَدَابِي وَنُذِرِ
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ).
وأصبحوا عبرة لكل من ينظر ويعتبر:
(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ
إِرمَ ذَاتِ الْعِمَادِ
الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ
وَمَثُودِ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخَرَ بِالْوَادِ
وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ
الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ
فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ
إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ).

عاش هودٌ عمراً مديداً في الدعوة.
فما غيّر ولا بدّل ولا قصّر.
ثم جاء الأجل.
فمات هودٌ كما مات آدم وإدريس ونوح.
ولما حضرت هوداً الوفاة.
قال لبنيه إني أمركم بلا إله إلا الله.
وأنهاكم عن الشُّرك والكِبْرِ.
ثم أسلم الروح لمن خلقها.
سلامٌ على هودٍ في العالمين.

وبعد عادٍ إخوانٍ هود.
 وفي قبيلة أخرى من قبائل العرب.
 كانت تسكن الحجر الذي بين الحجاز وتبوك.
 وكان اسمهم على اسم جدّهم ثمود.
 وكانوا يعبدون الأصنام كالسابقين.
 فبعث الله فيهم رجلاً منهم هو عبدالله ورسوله صالح.
 فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.
 وأن يخلعوا الأصنام والأنداد.
 وألا يشركوا به شيئاً.
 فأمنت به طائفة منهم.
 وكفر جمهورهم.
 ونالوا منه بالمقال والفعال.
 وهموا بقتله.
 وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم.
 فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.
 (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
 فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ
 وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا
 فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ
 أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ
 فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
 وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ
فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
وَلَكِنْ لَا تُجِبُونَ النَّاصِحِينَ).

وكما كان لهودٍ مع قومه صولاتٌ وحولات.
 ومشاهدٌ دعوية لا تنتهي.
 كان لصالحٍ مع قومه مثلها.
 وفي مشهدٍ من هذه المشاهد.
 (قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ
 إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ
 قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْحُوًّا قَبْلَ هَذَا
 أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ
 قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً
 فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ
 وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ
 وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ
 فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْدُوبٍ
 فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَجَيْنًا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ
 إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
 وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ
 كَأَنَّ لَمْ يَظَنُّوا فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِشَمُودَ).

وفي مشهد آخر:

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ
وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ
فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ
فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ).

وفي مشهد دعوي آخر:

(إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ
وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ
قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ
مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ
وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ
فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

وفي مشهد آخر أمر فيه صالح قومه:
 (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ)
 قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ
 لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
 قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ
 وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ
 قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ
 ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ
 وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
 فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ
 وَأُنْحَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَقَانُوا يَتَّقُونَ).

وفي مشهد آخر:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ

فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِدَّا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ

أَأَلْقَيْ الدُّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشْرٌ

سَيَعْلَمُونَ عَدًّا مِن الكَذَّابِ الأَشْرِ

إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاصْطَبِرْ

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ المَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ

فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ المُحْتَضِرِ

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَكِّرٍ).

وكان من شأن الناقة.
أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم.
فجاءهم رسول الله صالح.
فدعاهم إلى الله وذكّرهم وحذّرهم.
ووعظهم وأمرهم.
فقالوا له إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة.
وأشاروا إلى صخرة هناك.
ناقةً من صفتها كذا وكذا.
وذكروا أوصافاً سمّوها وعتوها وتعتتوا فيها.
وطلبوا أن تكون عُشراء طويلة.
فقال لهم صالح:
أرأيتم إن أحببتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذي طلبتم:
أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أرسلت به؟
قالوا نعم.
فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك.
ثم قام إلى مصلاه فصلى لله.
ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا.
فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشراء.
على الوجه المطلوب الذي طلبوا.
وعلى الصفة التي نعتوا.
فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً.
ومنظراً هائلاً وقدره باهرة.
ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً.
فآمن كثيرٌ منهم.
واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم.
وجحدوا بما ولم يتبعوا الحق بسببها.

وكانوا اتفقوا على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم.
ترعى حيث شاءت من أرضهم.
وترد الماء يوماً بعد يوم.
وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك.
فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم.
ولهذا قال (لها شربٌ ولكم شربٌ يوم معلوم).
فلما طال عليهم الحال هذا.
اجتمع زعماءهم.
واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة.
ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم.
وزين لهم الشيطان أعمالهم.
(فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ
وَقَالُوا يَا صَالِحُ اثْنَيْنَا بما تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ).

فأنذرهم صالحٌ ثلاثة أيام.
ذلك وعدٌ غيرٌ مكذوب.
وأصبحت ثمودُ يومَ الخميس.
وهو اليوم الأول من أيام المهلة.
ووجوههم مصفرةٌ كما أنذرهم صالح.
فلما أمسوا قالوا قد مضى يومٌ من الأجل.
ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل.
وهو يوم الجمعة ووجوههم حمرة.
فلما أمسوا قالوا قد مضى يومان من الأجل.
ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع.
وهو يوم السبت ووجوههم مسودة.
فلما أمسوا قالوا قد مضى الأجل.
فلما كان صبيحة يوم الأحد.
استعدوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يجلب بهم.
فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحةٌ من السماء من فوقهم.
ورجفةٌ شديدةٌ من أسفلٍ منهم.
ففاضت الأرواحُ وزهقت النفوس.
وسكنت الحركاتُ وخشعت الأصوات.
وحقت الحقائق فأصبحوا في دارهم جاثمين.
فتولى عنهم صالحٌ بعد هلاكهم.
(وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ).

وفي سيرة خاتم النبيين.
لما نزل بالمسلمين على تبوك.
نزل بهم في منطقة الحجر عند بيوت ثمود.
فاستقى الصحابة من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود.
فجعنوا منها ونصبوا القدور.
فأمرهم رسول الله فأراقوا القدور.
وعلفوا العجين للإبل.
ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة.
ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا.
وقال إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم.
فلا تدخلوا عليهم إلا أن تكونوا باكين.
فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم.
أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

43

وعاش صالحٌ عمراً مديداً في الدعوة.
فما غيّر ولا بدّل ولا قصّر.
ثم جاء الأجل.
فمات صالحٌ كما مات آدمٌ وإدريسٌ ونوحٌ وهود.
ولما حضرت صالحاً الوفاة.
قال لبيته إني أمركم بلا إله إلا الله.
وأنهاكم عن الشرك والكبير.
ثم انتقل صالحٌ إلى حرم الله فأقام به حتى مات.
سلامٌ على صالحٍ في العالمين.

ومضت قرونٌ كثيرةٌ لا يعلمها إلا الله.
لم يتخلَّ فيها الشيطانُ عن إغواء بني آدم.
فأعادهم من جديد إلى ترك التوحيد.
وعبادة الأوثان.
وفي بيت من بيوت بابل.
وهي أرض كان شعبها يسمى الكلدانيين.
كان رجلٌ يصنع الأوثان ويبيعها لقومه.
له ثلاثة من الأولاد.
أوسطهم سمّاه إبراهيم.
وكان لإبراهيم ابنٌ أخ اسمه لوط.
يحبّه كثيراً ويقرّبه.
في هؤلاء القوم الذين كانوا يعبدون الكواكب والأصنام.
نشأ إبراهيم الخليل.
وكان كلٌّ من على وجه الأرض كفاراً.
سوى إبراهيم وزوجته سارة وابن أخيه لوط.
وكان الخليل هو الذي أزال الله به تلك الشرور.
وأبطل به ذاك الضلال.
فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره.
فكان مسلماً موحداً حنيفاً.
وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره.
(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ).

وكان أبوه ممن يعبد الأصنام.
فكانت أول دعوته لأبيه.
لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له.
(وَأذْكَرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا
يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا
يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا
يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا
قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا
قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي
عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا
فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا
وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا).
وقد استغفر له إبراهيم كما وعده في ادعيته.
(فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ).

وكان لإبراهيم مع قومه مقامات كثيرة.
 يدعوهم فيها إلى الدين الحق.
 وفي مقام من هذه المقامات ناظر قومه.
 ويبن لهم أن هذه الكواكب.
 لا تصلح للألوهية.
 لأنها مخلوقة مربية مصنوعة مدبرة.
 مسخرة تطلع تارة وتغيب أخرى.
 والرب تعالى لا يغيب ولا يغيب عنه شيء.
 ولا تخفى عليه خافية.
 بل هو الدائم الباقي بلا زوال.
 لا إله إلا هو ولا رب سواه.
 (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً
 إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
 وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ
 فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي
 فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ
 فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي
 فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأُنْزِلَنَّ رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ
 فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ
 فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ
 إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّكْرِ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا
 وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ
 وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا
 وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
 وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ

وَلَا تَخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا
فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَمَ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ
وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ
إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

وفي موقف آخر ناظرهم في التماثيل.
 في حضور أبيه.
 وأنكر عليهم وسخر من عقولهم:
 (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ
 إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ
 قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ
 قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ
 قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ
 قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ
 وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ
 وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ
 فَجَعَلَهُمْ جُدَادًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ
 قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ
 قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ
 قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ
 قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ
 قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ
 فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ
 ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ
 قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ
 أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
 قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ
 قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ).

وتكررت مشاهدته الدعوية مع أبيه وقومه.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ
 قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ
 قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ تَدْعُونَ
 أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ أَوْ يَضُرُّونَ
 قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ
 قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ
 أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ
 فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ
 الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ
 وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ
 وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ
 وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ
 وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ
 رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ
 وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ
 وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ الْجَنَّةِ النَّعِيمِ
 وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ
 وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ
 يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ
 إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).

ثم في موقف دعوي آخر لإبراهيم:

(إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا
 إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا
 فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
 وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبْتُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ
 أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ
 إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ
 وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
 وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي
 وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجْبَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
 وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا
 وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ
 فَأَمَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
 وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).

وفي موقف آخر أنكر إبراهيم على قومه عبادة الأوثان.
وحقَّرها عندهم وصعَّرها وتنقَّصها:
(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ
أَتُنْفِكُوا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ
فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ
فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ
فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ
فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ
مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ
فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ
فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرِفُونَ
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ
قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ).

ثم شرعوا يجمعون حطباً من جميع الأماكن.
 فمكثوا مدة يجمعون له.
 حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت.
 نذرت لئن شُفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم.
 ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة.
 فوضعوا فيها ذلك الحطب.
 وأطلقوا فيه النار فاضطربت وتأججت.
 والتهبت وعلا لها شرر لم يُر مثله قط.
 ثم وضعوا إبراهيم في كفة منجنيق.
 وكانوا أول من صنع المجانيق.
 ثم أخذوا يقيّدونه ويكتفونه.
 وهو يقول لا إله إلا أنت سبحانك.
 لك الحمد ولك الملك لا شريك لك.
 فلما وُضع الخليل عليه السلام في كفة المنجنيق.
 مقيداً مكتوفاً ثم ألقوه منه إلى النار.
 قال حسبنا الله ونعم الوكيل.
 فانقلب بنعمة من الله وفضل لم يمسسه سوء.
 وصار إبراهيم عليه السلام في الحفرة.
 حوله النار وهو في روضة خضراء.
 والناس ينظرون إليه لا يقدرّون على الوصول إليه.
 ولا هو يخرج إليهم.
 ومكث هناك أياماً وليالي في أطيب عيش.
 (فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ
 وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ
 رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ
 فَبَشِّرْنَاهُ بِعُلَامٍ حَلِيمٍ
 فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ.

فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا آبَتِ افْعَلِ مَا تُؤْمَرُ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ
فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ
قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ
وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ
سَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ
وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ.

وكانت لإبراهيم الخليل مناظرة.
مع الملك النمرود بن كنعان ملك بابل.
عندما ادعى لنفسه الربوبية.
وكان قد طغى وبغى وتجبر.
وعتا وآثر الحياة الدنيا.
ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له.
حملة الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الخالق.
فحاجَّ إبراهيم الخليل في ذلك وادَّعى لنفسه الربوبية:
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ
قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ
فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

وقد هاجر الخليل إلى بلاد الشام ثم مصر.
 واستقر بعدها في الأرض المقدسة.
 (فَأَمَّنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
 وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).
 فإبراهيم الخليل هو أبو الأنبياء.
 (وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا
 وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ
 وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ).
 ولما هجر قومه في الله وهاجر من بين أظهرهم.
 وكانت امرأته عاقراً لا يُولد لها.
 ولم يكن له من الولد أحد.
 بل معه ابن أخيه لوط فقط.
 وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين.
 وجعل في ذريته النبوة والكتاب.
 فكل نبي بُعث بعده فهو من ذريته.
 وكل كتاب نزل من بعده فعلى واحد من نسله وعقبه.
 كرامةً من الله له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه.
 وهاجر إلى بلد يتمكن فيه من عبادة ربه عز وجل.
 ودعوة الخلق إليه.
 إلى الأرض التي قصدتها بالهجرة.
 (إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ).

وبينما إبراهيم ذات يوم وسارة.
في الرحلة إلى مصر.
وكان الفرعون الذي عليها جبار من الجبابرة.
فقيل له إن ههنا رجلٌ معه امرأةٌ من أحسن النساء.
فأرسل إليه وسأله عنها فقال من هذه؟
قال أختي.
فأتى إبراهيمُ إلى سارة فقال يا سارة:
ليس على وجه الأرض مؤمنٌ غيري وغيرك.
وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذِّبيني.
فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأصيبت يده.
فقال ادعي الله لي ولا أضرك.
فدعت الله فأطلق.
ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد.
فقال ادعي الله لي ولا أضرك.
فدعت الله فأطلق.
فدعا بعض حُجَّابه فقال إنك لم تأتني بإنسان وإنما أتيتني بشيطان.
فصرَّفها وأخدمها هاجر.
فأتت إبراهيم وهو قائم يصلي فأوماً بيده.
فقالت: ردَّ اللهُ كيدَ الكافر في نحره وأخدمني هاجر.

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر.
 إلى الأرض المقدسة التي كان فيها.
 ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل.
 وصحبتهم هاجر القبطية المصرية.
 ثم إن لوطاً نزح بما له من الأموال الجزيلة.
 بأمر الخليل له في ذلك.
 إلى مدينة سدوم.
 وهي أم البلاد التي حولها في ذلك الزمان.
 وكان أهلها أشراً كفاراً فجاراً.
 وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل.
 فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً.
 وشرقاً وغرباً.
 ويشهه بأن هذه الأرض كلها.
 سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر.
 وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض.
 ثم إن الجبارين تسلطوا على لوط فأسروه.
 وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه.
 فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في جيش.
 فاستنقذ لوطاً واسترجع أمواله.
 وقتل من أعداء الله ورسوله كثيراً.
 وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل إلى شرقي دمشق.
 ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده.
 وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين.
 واستقر ببلاده صلوات الله وسلامه عليه.

سأل إبراهيم ربّه ذريّةً طيبة.
فبشّره الله بذلك.
فإنه لما كان لإبراهيم ببلاد بيت المقدس عشرون سنة.
قالت سارة لإبراهيم إن الله قد حرمني الولد.
فادخل على خادمتي هاجر.
لعل الله يرزقني منها ولدًا.
فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام.
وحين دخل بها حملت منه.
وبشّرها الملك بأنّها ستلد ابنًا.
وتسميه إسماعيل .
وسوف يملك جميع بلاد إخوته.
فشكرت الله عز وجل على ذلك.
ثم وضعت هاجر إسماعيل.
قبل مولد إسحاق بسنوات.
وأوحى الله إلى إبراهيم.
يبشّره كذلك بإسحاق من سارة.
فخرّ لله ساجدًا.

ولما ولدت هاجر إسماعيل.
 اشتدت غيرة سارة منها.
 وطلبت من الخليل أن يُغيب وجهها عنها.
 فذهب بها وبولدها حيث أمره الله.
 فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم.
 وكان ولدُها رضيعاً.
 فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما.
 قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه.
 وقالت يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا؟
 وليس معنا ما يكفيننا؟
 فلم يجبها.
 فلما ألحَّت عليه وهو لا يجيبها.
 قالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم.
 قالت إذن فلا يضيِّعنا.
 فوضعهما عند البيت.
 عند شجرة فوق زمزم في أعلى المسجد.
 وليس بمكة يومئذ أحد.
 وليس بها ماء.
 فوضعهما هنالك.
 ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاً فيه ماء.
 ثم فقَى إبراهيم راجعاً.
 حتى إذا كان عند الثنية.
 استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات.
 ورفع يديه فقال:
 (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا
 وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ
 رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي

وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَمُورٌ رَجِيمٌ
رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ
رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ
وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ
رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ).

ومضى إبراهيم لسبيله.
 وراحت أم اسماعيل تُرضعُ إسماعيلَ وتُشربُ من ذلك الماء.
 حتى إذا نَقَد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها.
 وجعلت تنظر إليه يتلوى.
 فانطلقت خشيةً أن تنظر إليه.
 فوجدت الصفاً أقرب جبل في الأرض لها.
 فقامت عليه ثم استقبلت الوادي.
 تنظر هل ترى أحداً.
 فلم تر أحداً فهبطت من الصفا.
 حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها.
 ثم سعت سعيَ الإنسان المجهّد.
 حتى إذا جاوزت الوادي.
 ثم أتت المروة فقامت عليها.
 ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً.
 ففعلت ذلك سبع مرات.
 فلذلك كان سعيُ الناس بين الصفا والمروة.
 فلما أشرفت على المروة.
 سمعت صوتاً فقالت: صه كأنها تسمع نفسها.
 ثم تسمعت فسمعت أيضاً.
 فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث.
 فإذا هي بالملك عند موضع زمزم.
 فضرب بجناحه حتى ظهر الماء.
 فجعلت تحوطه بيدها.
 وجعلت تغرف من الماء في سقائها.
 فشربت وأرضعت ولدّها.
 فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة.
 فإن ههنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه.
 وإن الله لا يضيع أهله.

وكان البيت مرتفعاً من الأرض.
تأتيه السيول فتذهب عن يمينه وعن شماله.
حتى مرت بهم رُفقة من قبيلة جُرهم.
مقبلين من طريق.
فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً يبحث عن الماء.
فقالوا: إن هذا الطائر ليُدور على الماء.
وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء.
فأرسلوا من يستطلعون فإذا هم بالماء.
فرجعوا فأخبروهم بالماء.
فأقبلوا وأُمُّ اسمعيل عند الماء.
فقالوا تأذنين لنا أن ننزل عندك؟
قالت نعم وهي تحب الأنس.
فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم.
حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم.
وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم.
وزاحمهم في علو الهمة وأعجبهم حين شب.
فلما بلغ زَوْجوه امرأة منهم.
وهي التي أمره أبوه بتطليقها بعد ذلك.

تزوج إسماعيل.
وماتت أمُّ اسمعيل.
فجاء إبراهيم يطالع تركته.
فلم يجد إسمعيل في بيته.
فسأل امرأته فقالت: خرج بيتغي لنا رزقاً.
ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم.
فقالت: نحن في شرٍّ وفي ضيقٍ وشدة.
قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام.
وقولي له يغيّر عتبة بابه.
فلما جاء إسمعيل كأنه أحس شيئاً.
فقال: هل جاءكم من أحد؟
فقالت: نعم.
جاءنا شيخ من صفته كذا وكذا فسأل عنك فأخبرته.
وسألني كيف عيشتنا فأخبرته أننا في جهدٍ وشدة.
قال فهل أوصاك بشيء؟
فقالت: نعم.
أمري أن أقرأ عليك السلام.
ويقول لك غيّر عتبة بابك.
قال ذاك أبي وأمري أن أفارقك.
فالحقي بأهلك.
فطلقها وتزوج منهم أخرى.

61

ثم غاب عنهم إبراهيم ما شاء الله.
ثم أتاهم بعدها فلم يجده.
فدخل على امرأته فسألها عنه.
فقلت: خرج يبتغي لنا رزقاً.
قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم.
فقلت: نحن بخير وسعة وأنت على الله.
فقال: ما طعامكم؟
قلت: اللحم.
قال: فما شراؤكم؟
قلت: الماء.
قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.
قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام.
ومر به أن يثبّت عتبة بابه.
فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟
قلت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة.
فسألني عنك فأخبرته.
فسألني كيف عيشتنا فأخبرته أننا بخير.
قال: هل أوصاك بشيء؟
قلت: نعم
هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبّت عتبة بابك.
قال: ذاك أبي وأمرني أن أمسكك.

ثم غاب عنهم ما شاء الله.
 ثم جاء بعد ذلك فرأى إسماعيل يبزي نبأً له.
 تحت شجرة قريباً من زمزم.
 فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد.
 ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر.
 قال فاصنع ما أمرك به ربك.
 قال: وتعينني؟
 قال: وأعينك.
 قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً.
 وأشار إلى تلة مرتفعة على ما حولها.
 فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت.
 فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني.
 حتى إذا ارتفع البناء.
 جاء بهذا الحجر فوضعه له.
 فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة.
 وهما يدعوان: (رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).
 (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ
 قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا
 قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ
 وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ
 وَعَهْدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
 أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ
 وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا
 وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
 وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
 رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ
وَأَقْدِمَ اضْطَقَمِينَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِربِّ الْعَالَمِينَ
وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ
يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ
إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي
قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ
وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا
قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا
وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ
لَا نَفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا
وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ
قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ
كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ

وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

وقال إبراهيم: (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهْدِينِ
 رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ
 فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ).
 وهذا الغلام هو إسماعيل.
 (فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُحُكَ
 فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ
 قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ
 فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ
 وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ
 قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ
 وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ
 وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ
 سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
 وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ
 وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ
 وَمَنْ ذُرِّيَّتَهُمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ).

فلما شب إسماعيل .
 رأى ابراهيم في المنام أنه يؤمر بذبح ولده .
 وإن رؤيا الأنبياء وحي وحق .
 فامثل لأمر الله في ذلك .
 برغم أنه ولده البكر الذي ليس له غيره .
 فأجاب ربه وامثل أمره وسارع إلى طاعته .
 ثم عرض ذلك على ولده .
 ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه .
 فلا يأخذه قسراً ويذبحه قهراً .
 (قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى) .
 فبادر الغلام الحليم .
 فقال: (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمُرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) .
 (فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ) .
 أي استسلما لأمر الله وعزما على ذلك .
 وتله للجبين فألقاه على وجهه .
 لئلا يشاهده في حال ذبحه .
 ثم مرر السكين على حلقة فلم تقطع شيئاً .
 فعند ذلك نودي من الله عز وجل :
 (أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا) .
 وحصل المقصود من اختبارك وطاعتك .
 وقدمت ولدك للقربان .
 كما سمحت ببدنك للنيران .
 وكما بذلت مالك للضيفان .
 (وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ) .
 كبش أبيض كان يرتع في الجنة .

بَشَّرَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ.
 وكانت البشارة من الملائكة لإبراهيم وسارة.
 وهم ذاهبون إلى مدائن قوم لوط.
 ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم .
 (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا
 قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ
 فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
 قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ
 وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ
 فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ
 قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلي شَيْخًا
 إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ
 قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ
 إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ).
 وهؤلاء الملائكة هم جبريل وميكائيل وإسرافيل.
 ولما دخلوا على الخليل حسبهم ضيوفاً.
 فعاملهم معاملة الضيوف.
 شوى لهم عجلاً سميناً من خيار بقره.
 فلما قرهه إليهم وعرضه عليهم ولم ير لهم همة إلى الأكل.
 (نَكِرَهُمْ وَأَوْحَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
 قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ).
 لندمر عليهم.
 فاستبشرت عند ذلك سارة غضباً لله عليهم.
 وكانت قائمة على رؤوس الضيوف.
 كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم.
 فلما ضحكت استبشاراً بذلك.
 بشرتها الملائكة (بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ).

هذا هو إبراهيم الخليل.
 أبو الأنبياء والمرسلين.
 الذي أثنى الله عليه كثيراً.
 وجعله إماماً للناس يقتدون به ويأتمون بهديه.
 وجعل في ذريته النبوة والكتاب.
 (وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ
 قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا
 قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي
 قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ).
 وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلةً بسبيه.
 وباقية في نسبه وخالده في عقبه.
 فأجيب إلى ما سأل ورام.
 وسلّمت إليه الإمامة بزمام.
 واستثني من نيلها الظالمون.
 واختص بها من ذريته العلماء العاملون.
 كما قال تعالى (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
 وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا
 وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).
 (وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ
 وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ
 وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ
 وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
 وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ
فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهَدَاهُمْ أَقْتَدِهِ
قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ).
وذلك أنه ولد لإبراهيم ولدان ذكران عظيمان.
إسماعيل أبو العرب من هاجر.
ثم إسحاق من سارة وولده يعقوب وهو إسرائيل.
الذي ينتسب إليه سائر أبنائهم.
فكانت فيهم النبوة وكثروا بحيث لا يعلم عددهم.
إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة.
حتى خُتموا بعميسى ابن مريم من بني إسرائيل.
وأما إسماعيل فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها.
ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم.
وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله.
فكان في هذا الفرع الشريف والغصن المنيف.
كالجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة.
وواسطة العقد الفاخرة.

ولما صار شأن إبراهيم عند الله عظيماً.
 وكان يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى.
 علماً يقينياً لا يحتمل الشك.
 ولكن أحب أن يشاهد ذلك عياناً.
 ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين.
 فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه غاية مأموله.
 (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى
 قَالَ أَوْمِئْتُمْ ثُمَّ قَالَتْ بَلَىٰ وَإِنَّ لِيَ لِيُطَمِّنُ قَلْبِي
 قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ
 ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا
 ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).
 وقد أجابه الله عز وجل إلى ما سأل.
 فأمره أن يأتي بأربعة من الطيور.
 فيقطع لحومهن وريشهن.
 ويخلط ذلك بعضه في بعض.
 ثم يقسمه قسماً ويجعل على كل جبل منهن جزءاً.
 ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن رهن.
 فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى صاحبه.
 وكل ريشة تأتي إلى أختها.
 حتى اجتمع بدن كل طائر على ما كان عليه.
 وهو ينظر إلى قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون.

ثم إن اليهود والنصارى المتأخرين.
تنازعوا في إبراهيم.
فجعله اليهود منهم.
وجعله النصارى منهم.
فرد الله عليهم وبين وجه الحق فيه.
(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ
وَمَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
هَذَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا
وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ).

عاش إبراهيم ما عاش.
وقد قام بجميع ما أمره به ربه.
فمدحه تعالى بذلك فقال (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى).
ولهذا اتخذ الله خليلاً.
والحلة هي أعلى درجات المحبة.
وكان أشرف أولي العزم من الرسل بعد محمد.
ومقامه في السماء السابعة مُسنداً ظهره إلى البيت المعمور.
وقد أمر المصلُّون أن يقولوا في التشهد:
اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد.
كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم.
وبارك على محمد وعلى آل محمد.
كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وعاش إبراهيم عمراً مديداً في الدعوة.
 فما غير ولا بدل ولا قصر.
 ثم جاء الأجل.
 فمات إبراهيم كما مات آدم وإدريس ونوح وهود وصالح.
 ولما حضرت إبراهيم الوفاة.
 قال لبيته إني أمركم بلا إله إلا الله.
 وأنهاكم عن الشرك والكبر.
 (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ
 يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ
 فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ
 أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ
 إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي
 قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
 تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
 وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا
 قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
 وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ
 لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
 فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا
 وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
 فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ
 قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ

وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ
أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى
قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ
وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِمَا تَعْمَلُونَ
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ
وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
ثم مرض إبراهيم عليه السلام.
ومات عن سن كبيرة.
ودفن عند امرأته سارة.
وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق.
وقبره وقبر أولاده من بعده في مدينة الخليل بفلسطين.
سلام على إبراهيم في العالمين.

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل.
 قصة لوط عليه السلام مع قومه.
 وما حل بهم من النعمة الشديدة.
 وذلك أن لوطاً كان ابن أخي إبراهيم الخليل.
 وكان لوط قد نزح عن دار عمه الخليل بأمره له وإذنه.
 فنزل بمدينة سدوم وكانت عاصمة البلاد حولها.
 ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم.
 وأسوأهم طويّة وأردئهم سريرة وسيرة.
 يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر.
 ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.
 ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم.
 وهي إتيان الذكران من العالمين.
 وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين.
 فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.
 ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات.
 والفواحش المنكرات والأفعال المستقبحات.
 فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم.
 واستمروا على فجورهم وكفرانهم.
 فأحل الله بهم من البأس الذي لا يُرد ما لم يكن في خلدتهم وحسبانهم.
 وجعلهم مثلة وعبرة يتعظ بها العقلاء من العالمين.
 (وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ
 وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا
 أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ
 فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ).

(وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلَنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا
 وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ
 وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
 قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي
 أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ
 قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ
 قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ
 قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ
 فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ
 إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ
 فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ
 مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).

ولما خرجت الملائكة من عند إبراهيم.
 وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل.
 أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان.
 اختبأ من الله تعالى لقوم لوط.
 وإقامة للحجة عليهم.
 فطلبوا من لوط عند غروب الشمس أن يستضيفهم.
 فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره.
 وحسبهم بشراً من الناس وسيء بهم وضاق بهم ذرعاً.
 وقال هذا يوم عصيب.
 وذلك لما يعلم من أنه سيدافع الليلة عنهم كما كان يصنع في غيرهم.
 وكان قومه قد اشترطوا عليه ألا يضيف أحداً.
 ولكن رأى ما لا يمكن الفرار عنه.
 فجاء بهم فلم يعلم أحداً إلا أهل البيت.
 فخرجت امرأته فأخبرت قومها.
 فقالت إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط.
 فجاءه قومه يهرعون إليه.
 (وَمَنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ).
 أي الفاحشة العظيمة.
 (قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ).
 يرشدهم إلى غشيان نسائهم.
 وهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد .
 (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي
 أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ).
 فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد.
 مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد.
 (لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ).

فواجهوه بهذا الكلام القبيح.
ثم إنه جعل يمانع قومه الدخول.
ويدافعهم والباب مغلق.
وهم يرومون فتحه وولوجه.
وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب.
وهم في إلحاح وإنحاح.
فلما ضاق الأمر وعسر الحال.
قال (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ).
فقلت الملائكة (يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ).
فخرج عليهم جبريل فضرب وجوههم بطرف جناحه.
فطمست أعينهم فرجعوا يتحسسون الحيطان.
(وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِي).

تقدمت الملائكة إلى لوط.
 أمرين له بأن يسير هو وأهله من آخر الليل.
 ولا يلتفت منهم أحد عند سماع صوت.
 إلا امرأته فإنها سوف يصيبها ما أصابهم.
 وخرج لوط عليه السلام بأهله وهم ابنتاه.
 فلما خرجوا من بلادهم وطلعت الشمس.
 جاءهم من أمر الله ما لا يُرد.
 ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يُصد.
 فاقتلع جبريل بطرف جناحه سدوم وما حولها.
 وكانت سبع مدن بمن فيها من الأمم.
 فرفع الجميع حتى بلغ بها عنان السماء.
 حتى سمعت الملائكة أصوات دِيكتهم ونباح كلابهم.
 ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها.
 (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ).
 صخر شديد صلب.
 (منضود) يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم من السماء.
 (مُسَوَّمَةٌ عِندَ رَبِّكَ) مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه.
 (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ).
 وجعل الله مكان تلك البلاد بئيرة منتنة.
 لا يُنتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي.
 لردائها ودناءتها.
 فصارت عبرة وعظة وآية.
 (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ).

وقريباً من بحيرة قوم لوط.
وبعدهم بمدة زمنية ليست بعيدة.
على أطراف الشام مما يلي أرض الحجاز.
كان قوم عرب يسكنون مدينة مدين.
وكانوا من نسل إبراهيم الخليل.
وكان أهل مدين كفاراً.
يقطعون السبيل ويخيفون المارة.
ويعبدون الأيكة وهي شجرة كبيرة.
وكانوا من أسوأ الناس معاملة.
يبخسون المكيال والميزان.
ويطففون فيهما فيأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص.
فبعث الله فيهم رجلاً صالحاً منهم.
وهو رسول الله شعيب عليه السلام.
فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.
ونهاهم عن هذه الأفعال القبيحة.
فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم.
حتى أحل الله بهم البأس الشديد وهو الولي الحميد.
وشعيب نبينهم كان يسمى شعيباً خطيب الأنبياء.
وذلك لفصاحته وعلو عبارته.
وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته.

(وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
 قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ
 وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
 وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبَعُونَهَا عَوجًا
 وَادُّكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ
 وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا
 حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ
 لِنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا
 أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَوْ كُنَّا كَارِهِينَ
 قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّانَا اللَّهُ مِنْهَا
 وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُوذَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رُبْنَا
 وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا
 رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ
 وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ
 فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ
 فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ
 فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ
 وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ
 إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ
 ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا
 وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءُنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ
 فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ
 وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ
أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ
أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ.

(وَالِى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ
وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ
قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ
وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ
أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ
وَاسْتَعْفِفُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ
قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا
وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا
إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ
وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَحَيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ
كَأَنْ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ).

ومما قال شعيب لقومه محذراً:
 (وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ).
 فإنهم كانوا يأخذون العشور من أموال المارة.
 وكانوا قوماً طغاة بغاة يجلسون على الطريق.
 (وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا).
 فنهاهم شعيب عن ذلك.
 وذكّرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة.
 وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه.
 (وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ).
 (وَلَا تَنْفُسُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَأَيْتُمْ بِخَيْرٍ
 وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ).
 ثم قال لهم أمراً بعد ما كان عن ضده زاجراً:
 (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ
 وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
 بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ).
 أي رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس بالباطل.
 فإن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام.
 فإن الحلال مبارك وإن قل والحرام محقوق وإن كثر.
 (وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ).
 أي افعلوا ما أمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه.
 وليس من أجلي أنا أو غيري.

وكلما ترفق بهم شعيب وتلطف بهم زادوا في غيِّهم.
وتوسعوا في جدالهم وتمسكوا بضلالهم.
(قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا
أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ).
يقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتنقص والتهكم.
(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي
وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ
إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

ثم انتقل شعيب إلى نوع من الترهيب فقال:
(وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ
أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ).

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال:

(وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ
قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا
وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا
إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

ومع هذا صمموا على ما هم عليه مشتملون.
 وبه متلبسون.
 (وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخُسْرُونَ
 فَأَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ).
 رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزلاً شديداً.
 أزهدت أرواحهم من أجسادها.
 وصيرت حيوانات أرضهم كجمادها.
 وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها.
 وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات.
 وصنوفاً من المثالات وأشكالاً من البليات.
 وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات.
 سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات.
 وصيحة عظيمة أحمدت الأصوات.
 وظلّة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.
 (فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمًا).
 أصابهم حر شديد وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام.
 فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل ولا دخولهم في الأسراب.
 فهربوا من محلّتهم إلى البرية فأظلمت سحابة.
 فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها.
 فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب.
 ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة من السماء.
 فأزهدت الأرواح وخربت الأشباح.
 (فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا
 الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ).

وَنَجَّى اللَّهُ شَعِيبًا وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.
(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ
فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ).
وعاش شعيب عمراً مديداً في الدعوة.
فما غيّر ولا بدّل ولا قصّر.
ثم جاء الأجل.
فمات شعيب كما مات آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم.
ولما حضرت شعيباً الوفاة.
قال لبننيه وأهله إني أمركم بلا إله إلا الله.
وأنهاكم عن الشرك والكفر.
ثم مرض شعيب.
ومات بمكة ومات بعده من اتبعه من المؤمنين.
وقبورهم غربي الكعبة عند دار الندوة.
سلامٌ على شعيب في العالمين.

وكان للخليل بنون كثيرون.
ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان إسماعيل وإسحاق.
الأكبر هو الذبيح إسماعيل من هاجر المصرية.
وهو الذي هاجر به أبوه إلى جبال فاران التي حول مكة.
وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر.
وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة.
والأمر بها لأهله ليقبهم العذاب.
مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب.

(فَبَشِّرْهُ بِبُعْلَامٍ خَلِيمٍ)

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى
قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ
(وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا
وَكَانَ يُأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) .

(وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ

وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ

وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ).

(وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ).

(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ

وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ).

فذكر الله عنه كل صفة جميلة وجعله نبيه ورسوله.

وكان أول من ركب الخيل وكانت قبل ذلك وحوشاً.

فدعا لها بدعوته التي كان أعطي فأجابته فاستأنسها وركبها.

وكان أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة.

تعلمها من العرب العاربة الذين نزلوا عندهم بمكة.

من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن من العرب المتقدمين.
وقد تزوج لما شب من العماليق امرأة أمره أبوه بفراقها.
ثم نكح غيرها فأمره أن يستمر بها.
فولدت له أولاداً كثيرين.
وكان إسماعيل رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما جاورها.
من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن.
ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه.
ودفن إسماعيل نبي الله بالحجر مع أمه هاجر.
سلامٌ على إسماعيل في العالمين.

والابن الآخر هو إسحاق بن إبراهيم.
وقد ولد بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة.
وكان عمر أمه سارة حين بُشرت فوق السبعين.
(وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ
وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ
وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ).
وقد أثنى عليه الله في كتابه العزيز.
وقيل عن حفيده يوسف.
إنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم.
يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.
وكان قد تزوج إسحاق في حياة أبيه.
وكان عمره أربعين سنة.
وكانت زوجته عاقراً فدعا الله لها فحملت.
وولدت غلامين توأمين أولهما سمُوهُ العيص.
والثاني خرج وهو آخذ بعَقَبِ أخيه فسمُوهُ يعقوب.
وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل.

وقصة يعقوب وابنه يوسف حسنة مشهورة.
 قصة الصبر على قضاء الله في فقدان الابن الحبيب.
 ثم رده الله إليه وأقر عين أبيه بعودته إليه.
 وكانت نهايتها أن يعقوب أقام بديار مصر.
 عند يوسف حتى وفاته.
 (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ
 إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي
 قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ).
 يوصي بنيه بالإخلاص وهو دين الإسلام.
 الذي بعث الله به الأنبياء عليهم السلام.
 وقد ذكر أهل الكتاب أنه أوصى بنيه واحداً واحداً.
 وأخبرهم بما يكون من أمرهم.
 وبشر يهوذا بخروج نبي عظيم من نسله.
 تطيعه الشعوب وهو عيسى ابن مريم.
 وذكروا أنه لما مات يعقوب بكى عليه أهل مصر.
 وأمر يوسف الأطباء فطيبوه بطيب.
 ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله.
 فأذن له وخرج معه أكابر مصر وشيوخها.
 فلما وصلوا فلسطين دفنوه في المغارة التي كان اشتراها إبراهيم الخليل.
 وعملوا له عزاء ثم رجعوا إلى بلادهم.
 وعزى إخوة يوسف ليوسف في أبيهم وترققوا له.
 فأكرمهم وأحسن منقلبهم فأقاموا ببلاد مصر.
 سلاماً على يعقوب في العالمين.

أما قصة يوسف بن يعقوب فقد سماها الله أحسن القصص.
فقد رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم.
كان (أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) وهم إشارة إلى بقية إخوته.
(وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) وهما عبارة عن أبويه.
قد سجدوا له فهاله ذلك.
فلما استيقظ قصها على أبيه.
فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة في الدنيا والآخرة.
بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها.
فأمره بكتماها وألا يقصها على إخوته كيلا يحسدوه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ.
وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ
إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا.
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ
قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا.
إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ
وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رُبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ.
وَأْتِيَتْكُمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ.
كَمَا أَتَمَّتْهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَذَكِّرِينَ
إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَ أَخِيهِمَا وَإِنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ
اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ
وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ

يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ
قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ
أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ
قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ
قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ
فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ
قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ
وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ
وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً.
فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ
قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ
وَشَرُّهُ بِتَمَنٍّ بِحَسِّ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ
عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا
وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ

وَرَاوَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .
 قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
 وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ
 كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ
 وَاسْتَبَقْنَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْهَا سِيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ
 قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
 قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا
 إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
 وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ
 يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ
 وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا
 إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ
 وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْنَهُنَّ
 فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا
 إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ
 قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ
 وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ
 قَالَ رَبِّ السُّجُنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
 وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ
 فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْخُنَّهُنَّ حَتَّى حِينٍ

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ
 قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا
 وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ
 نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
 قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا
 ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ
 وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ
 يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ
 مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ
 أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 يَا صَاحِبِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا
 وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ
 فُضِّي الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ
 وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ
 فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
 وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ
 يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ
 قَالُوا أَمْضَاثٌ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ
 وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ
 يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ
 وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ
 قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا
 فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ
 ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ
 ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ
 وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ
 فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسُوءِ الَّلَاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ
 قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتَنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ
 قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ
 قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ
 أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ
 ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ
 وَمَا أُبْرئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ
 إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي
 فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ
 قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ
 وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ
 نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
 وَلَا جُزْءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

وَجَاءَ إِخْوَهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ
 وَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ
 أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ
 فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ
 قَالُوا سُرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ
 وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
 فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ
 فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ
 قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ
 فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
 وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ
 قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا
 وَنَبِغِي أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ
 قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ
 لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ
 فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
 وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ
 وَمَا أُعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ
 وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ
 وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
 وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ
 قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ
 ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ
 قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ
 قَالُوا نَقِدُ صُوعًا مَلِكٍ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ
 قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ
 قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ
 قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ
 فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ
 كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ
 نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ
 قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلِهِ
 فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ
 قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ
 قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ
 إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ
 قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لظَالِمُونَ
 فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خُلِصُوا بِحَيًّا
 قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ
 وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ
 حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ
 ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا
 وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ
 وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ
 قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ
 عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْمَى عَلَى يُوسُفَ وَإِبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ
 قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذُكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ
 قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
 يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ
 إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ
 فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ.
 فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ
 قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ
 قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي
 قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ
 قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ
 قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
 اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ
 وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ
 قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَلِيمِ
 فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا
 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ
 قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ
 قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
 فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ
 وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا
 وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا
 وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ
 مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَنِيَّ وَبَيْنَ إِخْوَتِي
 إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ
 فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ
 ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعِيبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
 وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
 وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ
 وَمَا تَسَاءَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ
 وَكَأَيُّنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ
 وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ
 أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ
 أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي
 وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى.
 أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.
 وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ
 حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ
 وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
 لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ
 مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
 وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

95

وعندما حضرت يوسفَ عليه السلام الوفاة.
أوصى بني يعقوب أن يُجمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن عند آبائه.
فحنطوه وطيبوه ووضعوه في تابوت.
فكان بمصر حتى أخرجه معه موسى فدفنه عند آبائه.
سلامٌ على يوسفَ في العالمين.

ثم كان رجل من الروم من نسل إسحاق بن إبراهيم الخليل.
هو نبيُّ الله أيوب من ذرية إبراهيم.
(وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ)
وهو من الأنبياء الذين كانوا يوحي إليهم.
(إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ).
وكانت له قصة عظيمة في الصبر على بلاء الله.
(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ
وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ).
(وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ
إِذْ خَضَّ بِرِجْلَيْهِ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ
وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ
وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ
إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).
وكان من خبره أنه كان كثير المال من كل أصنافه وأنواعه.
من الأنعام والعييد والمواشي والأراضي الواسعة بأرض حوران في الشام.
وكان له أولاد وأهلون كثيرون فسلب من ذلك جميعه.
وابتلي في جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه.
يذكرُ الله عز وجل بهما وهو في ذلك كله صابر محتسب.
ذاكُرُ الله عز وجل في ليله ونهاره وصباحه ومساءه.
وطال مرضه حتى خافه الجليس وأوحش منه الأنيس.
وأخرج من بلده وألقي على مزبلة خارجها.
وانقطع عنه الناس ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته.
كانت ترعى له حقه وتعرف قدس إحسانه إليها وشفقتة عليها.

فكانت تتردد إليه فتصلحُ من شأنه وتعيّنه على قضاء حاجته وتقومُ بمصلحته.
وضعف حائها وقلَّ ماؤها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه.
كل ذلك وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد.
والمصيبة بالزوج وضيق ذات اليد وخدمة الناس.
بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة.
ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً واحتساباً.
وحمداً وشكراً حتى أن المثل ليضرب بصبره.
ويضرب المثل أيضاً بما حصل له من أنواع البلايا.
فكان أيوب أول من أصابه الجدري.
وتساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب.
فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته.
فلما طال عليها قالت يا أيوب لو دعوت ربك لفرج عنك.
فقال قد عشتُ سبعين سنة صحيحاً.
فهل كثير لله أن أصبر له سبعين سنة؟

ثم إن الناس خافوا من امرأة أيوب.
 ولم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة أيوب.
 خوفاً أن ينالهم من بلائه أو تُعديهم بمخالطته.
 فلما لم تجد أحداً يستخدمها باعت لبعض بنات الأشراف إحدى صغيرتيها.
 بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال من أين لك هذا؟
 فقالت خدمت به أناساً.
 فلما كان الغد لم تجد أحداً فباعت الضفيرة الأخرى بطعام.
 فأنته به فأنكره وحلف ألا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام.
 فكشفت عن رأسها فخارها فلما رأى رأسها مخلوقاً غضب.
 وحلف إن هو شفاه الله ليضربنها مائة سوط.
 وعند ذلك صعبت عليه نفسه فدعا ربه (أَيُّ مَسْنِي الصُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ).
 ولبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد.
 إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له.
 كانا يغدوان إليه ويروحان.
 فقال أحدهما لصاحبه: يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين.
 قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به.
 فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له.
 فقال أيوب: لا أدري ما تقول؟
 غير أن الله عز وجل يعلم أي كنت أمرٌ على الرجلين يتنازعان.
 فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يُذكر الله إلا في حق.

ثم إنه كان يخرج ليقضي حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع.
 فلما كان ذات يوم أبطأت عليه.
 فأوحى الله إلى أيوب أن (ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ).
 فامثل ما أمر الله به فضرب برجله الأرض.
 فأنبع الله له عيناً باردة الماء وأمره أن يغتسل فيها ويشرب منها.
 فأذهب الله عنه ما كان يجده من الألم والأذى.
 والسُّقْمَ والمرض.
 وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة.
 وجمالاً تاماً ومالاً كثيراً.
 حيث صب له من المال صباً مطراً عظيماً جرّاداً من ذهب.
 وألبسه الله حُلة من الجنة فتحنى أيوب وجلس في ناحية.
 وجاءت امرأته فلم تعرفه.
 فقالت يا عبدالله ألم تر هذا المبتلى الذي كان ههنا.
 لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب.
 وجعلتْ تكلمه ساعة.
 فقال ولعل أنا أيوب؟
 قالت أتسخر مني يا عبدالله.
 فقال ويحك أنا أيوب قد رد الله عليّ جسدي.
 ورد الله عليه ماله وولده.
 وأخلف له أهله (وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ).
 وبينما أيوب يغتسل عرباناً خر عليه جرّاد من ذهب.
 فجعل أيوب يحشو في ثوبه.
 فناداه ربه عز وجل (يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟).
 قال: بلى يا رب ولكن لا غني لي عن بركتك.
 (وَأَخَذَ بِيَدِكَ ضِعْفًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ
 إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب عليه السلام.
فقد كان حلف ليضرين امرأته مائة سوط عندما باعت ضعفائها.
فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ حزمة من العصي.
فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة.
ويكون هذا بمنزلة الضرب بمائة سوط ويبرّ ولا يحنث.
وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه.
ولاسيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة.
الصديقة البارة الراشدة رضي الله عنها.
وهذه الرخصة بسبب (إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ).

وعاش أيوب بعد ذلك بأرض الروم على دين الحنيفية.
ثم إن قومه غيروا بعده دين إبراهيم.
ولما توفي كان عمره أكثر من تسعين سنة.
وقد أوصى إلى ولده فقام بالأمر بعده.
سلامً على أيوب في العالمين.

وفي قومٍ من بني إسرائيل.
 ظهر فيهم نبيُّ اسمه ذو الكفل.
 من نسل أيوب.
 (وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ
 وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ).
 (وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ
 إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ
 وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ
 وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ
 هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَّآبٍ
 جَنَّاتٍ عَدْنٍ مُمْتَحَةً لَهُمُ الْأَبْوَابُ
 مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ
 وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ
 هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ).
 وكان ذو الكفل رجلاً صالحاً وحكماً مُقسطاً عادلاً.
 وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم.
 ويقضي بينهم بالعدل فسُمِّي ذا الكفل.
 وكان لا يغضب وهو يقضي.
 وكان يصلي كل يوم صلاة كثيرة.
 ومكث في قومه ما كتب الله له.
 ثم جاء أجله فمات كما مات بنو آدم من قبل.
 سلامٌ على ذي الكفل في العالمين.

وقد قص الله علينا قصص الأمم التي أهلكها قبل موسى .
هلاكاً عاماً حتى لم يُبق منهم أحداً .
وذلك قبل نزول التوراة .
(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) .
فمنهم أصحاب الرس :
(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا
وَكُلًّا ضَرَفْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا) .
(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ
وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ
وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ
كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ) .
وكان أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود .
وقد بعث الله إليهم نبياً فكذبوه وقتلوه .
والرس بئر لهم رسوا فيها نبيهم أي دفنوه فيها حياً .
ولما ألقوه في البئر غار ماؤها وعطشوا بعد ريهم .
ويست أشجارهم وانقطعت ثمارهم .
وخرت ديارهم وتبدلوا بعد الأنس وحشةً وبعد الاجتماع فرقةً .
وهلكوا عن آخرهم وسكنت في مساكنهم الضباع والوحوش .

ومنهم قوم ياسين وهم أصحاب القرية.
 وكان لهذه القرية ملك يعبد الأصنام.
 فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل فكذبهم.
 فأهلكه الله ومن معه بالصيحة:

(وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اتْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَبَّوْنَا بِتَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ
 قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ
 قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ
 وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ
 قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ
 قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَلَيْسَ ذِكْرُكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ
 وَجَاءَ مِنَ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ
 اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ
 وَمَا لِي لَّا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ
 أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ
 لَّا تُعْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ
 إِنَّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِنَّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ
 قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ
 بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ
 وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُودٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ
 إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ).

ثم جاء يونس بن مئى .
بعثه الله إلى أهل نينوى من أرض الموصل .
فدعاهم إلى الله عز وجل فكذبوه .
وتمردوا عليه بكفرهم وعنادهم .
فلما طال عليه ذلك خرج من بين أظهرهم .
ووعدهم حلول العذاب بهم .
ولما خرج من بين أظهرهم وتحققوا نزول العذاب بهم .
قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة .
وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم .
فلبسوا المسوح وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها .
ثم تضرعوا إلى الله عز وجل إليه وتمسكوا لديه .
وبكى الرجال والنساء والبنون والبنات والأمهات .
وجارت الأنعام والدواب والمواشي .
فرغت الإبل وفُصلاتها وخارت البقر وأولادها وثَعَت الغنم وحُملائها .
وكانت ساعة عظيمة هائلة .
فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب .
(فَلَوْلَا كَانَتْ قَدْرِيَّةً أَمَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا
إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْحَزِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ) .

وقد كان قوم يونس أكثر من مائة ألف.
 ولما اشتد عليه قومه ذهب مُغاضباً وركب سفينة في البحر.
 فلجّت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون.
 فتشاوروا فيما بينهم على أن يقتنعوا.
 فممن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة ليتخففوا منه.
 فلما اقتنعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس.
 فلم يسمحوا به فأعادوها ثانية فوقعت عليه أيضاً.
 فشمر ليخلع ثيابه ويُلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك.
 ثم أعادوا القرعة الثالثة فوقعت عليه أيضاً.
 قال الله تعالى: (وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ
 إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
 فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ
 فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ).
 فأخذه الحوت فطاف به البحار.
 ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات.
 فحرك جوارحه فتحرّكت فإذا هو حيٌّ فخرّ لله ساجداً.

(وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ
 إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ
 فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ
 فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ
 فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
 لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
 فَابْتَدَأَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ
 وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ
 وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ
 فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ).

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ
إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ
لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ
فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ).
(وإن يونس لمن المرسلين).
وذكره تعالى في جملة الأنبياء الكرام.
ولا ينبغي لأحد أن يظن في يونس بن متى إلا خيراً.
سلامٌ على يونس في العالمين.

ثم بعث الله موسى بن عمران.
وهو من نسل يعقوب.
إلى شعب بني إسرائيل أبناء نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.
وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض.
يعيشون في مصر بعد يوسف عليه السلام.
في حُكْم فراعنة مصر الجبارين.
وكان من قصته عليه السلام مع فرعون:
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(طسم تلك آيات الكتاب المبين
تتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون
إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا
يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم
إنه كان من المفسدين
ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض
ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين
ونمكنهم في الأرض
ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون).

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاِذَا حَمَلَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ
 وَلَا تَحْزَنِي وَلَا تَحْزِنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ
 فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا
 إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ
 وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ
 عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِعًا إِن كَادَتْ لِتُبَدِيَ بِهِ
 لَوْلَا أَنْ رَظُنَّا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ
 فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ
 فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
 وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَمَلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ
 هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ
 فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ
 قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ
 قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ
 فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ
 قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ
 فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي
 كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ
 إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ
 وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ
 فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ
 فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ).

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَأْذِنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
 قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِيكَ إِلَّا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ
 فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
 فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا
 فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْذِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْذَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ
 قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ
 فَإِنْ أْتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ
 قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ
 وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا
 قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ
 أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
 فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ
 أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
 وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تهتت كأنها حانٌ ولى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ
 يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ
 اسألكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
 وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ
 فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
 قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ
 وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي
 إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ
 قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
 بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى
 وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى
 وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي
 فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى
 وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ
 وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ
 فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظْطَرُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ
 وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ
 وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى
 بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
 وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ
 وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ
 وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ
 وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
 لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

111

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اتَّبِعْ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
 قَوْمَ فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ
 وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ
 وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ
 قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبْنَا بآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ
 فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 قَالَ أَلَمْ تُرَبِّنَا فِيْنَا وَلِيدًا وَلِئِذَا فِيْنَا مِنْ عُمَرِكَ سِنِينَ
 وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ
 قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ
 فَمَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ
 وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ
 قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
 قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ
 قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ
 قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ
 قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ
 قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ
 قَالَ لَئِنِ اتَّخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ
 قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ قَالَ قَاتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ
 وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ
 قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ
 يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
 قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
 يَا تُؤَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ).

(فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ
 وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ
 لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْعَالِيِينَ
 فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَأَجُزُّا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ
 قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ
 قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ
 فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ
 فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
 فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ
 قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ
 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ
 قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ
 إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
 لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ
 قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ
 إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ).

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِلَيْكُمْ مُتَّبِعُونَ
 فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
 إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ
 وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ
 وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ
 فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
 وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ
 فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ
 قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ
 فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ
 فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ
 وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ
 وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ
 ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).

وكان فرعون قد تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا.
وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهل مصر شيعاً.
فقسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع.
يستضعف طائفةً منهم وهم شعب بني إسرائيل.
يستعبدهم ويستخدمهم في أحسن الصنائع والحرف.
وأردئها وأدناها.
وكان الدافع له على هذا الصنيع القبيح.
أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم.
ما يحفظونه عن إبراهيم عليه السلام.
من أنه سيخرج من ذريته غلامٌ يكون هلاكٌ مُلك مصر على يديه.
وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل.
فتحدث بها أهل مصر فيما بينهم ووصلت إلى فرعون.
ذكرها له بعض أمرائه وسمّاره.
فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل حذراً من هذا الغلام.
وقد احترز فرعون كل الاحتراز ألا يولد موسى.
حتى جعل الحرس ومعهم القوابل يدورون على الحبالى.
ويعلمون ميقات وضعهن فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحوه.

ولكن القدر كانت له كلمته.
وكأنه يقول لفرعون:
يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده.
وسلطة بأسه واتساع سلطانه.
قد حكم العظيم الذي لا يُغالب ولا يُمانع.
ولا تُخالف أقداره.
بأن هذا المولود الذي تحتز منه.
وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يُعد ولا يُحصى.
لا يكون مَرِيَاه إلا في دارك وعلى فراشك.
ولا يُغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك.
وأنت الذي تتبناه وتربيته ولا تطلع على سر معناه.
ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه.
لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين.
وتكذيبك ما أوحى إليه.
لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد.
وأنه هو القوي المتين ذو البأس الشديد.

ثم إن أهل مصر شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل.
بسبب قتل ولدانهم الذكور.
وخافوا أن يتفانى الكبار مع قتل الصغار.
فيصبرون هم الذين يتولون ما كان بنو إسرائيل يعملون.
فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يُتركوا عاماً.
فولد هارون أخو موسى في عام المساحة عن قتل الأبناء.
وولد موسى في عام قتلهم فضاقت أمه به ذرعاً.
واحتزرت من أول ما حبلت ولم يكن يظهر عليها علامات الحمل.
فلما وضعت ألهمت أن تتخذ له تابوتاً.
وربطت التابوت في حبل وكانت دارها متاخمة للنيل.
فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته في ذلك التابوت.
فترسله في البحر وتمسك طرف الحبل عندها.
فإذا ذهبوا استرجعته إليها.
وألقي في خلدتها وروعها ألا تخافي ولا تحزني.
فإنه إن ذهب فإن الله سيردّه إليك.
وإن الله سيجعله نبياً مرسلًا.
فكانت تصنع ما أمرت به.
فأرسلته ذات يوم ودّهلّت أن تربط طرف الحبل عندها.
فذهب مع النيل فمر على دار فرعون.
فالتقطته الجوّاري من البحر في تابوت مغلق عليه.
فلم يجرؤن على فتحه حتى وضعه بين يدي امرأة فرعون.
فلما فتحت الغطاء وكشفت الحجاب.
رأت وجهه يتألأ بتلك الأنوار النبوية والجلالة الموسوية.
ووقع نظرها عليه فأحبهته حباً شديداً.
فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بدبحه.
فاستوهبته منه ودافعت عنه.

وَقَالَتْ (قُرْءُ عَيْنِ لِي وَلَكَ).
(لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)
لأنهما لم يكن يولد لهما ذكر .
(وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) بماذا يريد الله بهم .
حين فيضهم لالتقاطه من النعمة العظيمة بفرعون وجنوده .

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ
لَوْلَا أَنْ رَتَبْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتُكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ
فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ
فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).
أصبح فؤاد أم موسى فارغاً من كل شيء من أمور الدنيا.
إلا من موسى.
وكادت أن تظهر أمره وتسال عنه جهرة.
لولا أن ربط الله على قلبها وصبرها وثبتها لتكون من المؤمنين.
وقالت لأختها وهي ابنتها الكبيرة قُصِّيه أي اتبعي أثره واطلبي خبره.
فبصرت به عن جُنُبٍ وكأنها لا تريده.
وذلك لأن موسى لما استقر بدار فرعون.
أرادوا أن يغذوه برضاعة فلم يقبل ثدياً ولا أخذ طعاماً.
فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن فلم يفعل.
(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ).
فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته.
فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه إذ بصرت به أختها.
فلم تُظهر أنها تعرفه.
بل قالت (هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ).
فذهبوا به معها إلى منزلهم.
فأخذته أمه فلما أَرْضَعته التقم ثديها وأخذ يمتصه ويرتضعه.
ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى آسية يُعلمها بذلك.
فاستدعتها إلى منزلها وعرضت عليها أن تكون عندها وأن تُحسن إليها.
فأبت عليها وقالت إن لي بعلأً وأولاداً ولست أفدر على هذا.

إلا أن ترسله معي فأرسلته معها.
وربيت لها رواتب وأجرت عليها النفقات والكساوى والهيئات.
فرجعت به تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها.
(فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).

وقد امتن الله على موسى بهذا.
(وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ
إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمَمِكَ مَا يُوحَىٰ
أَنْ أَدْفِنِي فِي التَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ
وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي)
فكان لا يراه أحد إلا أحبه .
(وَلْيُصْنَعْ عَلَيَّ عَيْنِي) .
أي تطعم وترفه وتغذى بأطيب المأكول.
وتلبس أحسن الملابس بمرأى مني.
وذلك كله بحفظي وكلاءتي لك فيما صنعتُ بك لك.
وقدرته من الأمور التي لا يقدر عليها غيري.

(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ
فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَىٰ عَلَيْهِ
قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ
قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ
قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ
فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ
قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ
فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْبِطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا
قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَمُوتَ كَمَا مَاتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ
إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ
وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ
إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُمِرُونَ بِكَ لِيُقْتَلُونَ فَخُذْ إِذِي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ).
وكان هذا سبب خروجه من بلاد مصر.
وذهابه إلى أرض مدين.

وإقامته هنالك حتى كمل الأجل وانقضى الأمد.

ثم خرج عبدالله ورسوله وكليمه موسى من مصر خائفاً يترقب ويتلفت.
 خشيةً أن يدركه أحد من قوم فرعون.
 وكان لا يدري أين يتوجه ولا إلى أين يذهب.
 وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها.
 (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ
 وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ
 وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
 قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ
 فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ
 فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ
 قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا
 فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ
 قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ
 فَإِنْ أُمَمْتُ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُشَقَّ عَلَيْكَ
 سِتْرِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ
 قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ
 وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ).

ولما توجه تلقاء مدين سأل الله أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود.
 فاستجاب الله له وأوصلته الطريق إلى مقصود وأبي مقصود.
 ولما ورد ماء مدين وكانت بئراً يستقون منها.
 ومدين هي المدينة التي أهلك الله فيها أصحاب الأيكة.
 وهم قوم شعيب عليه السلام.
 وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى.
 ولما ورد الماء المذكور وجد عليه جماعة كبيرة من الناس يسقون أغنامهم.
 ووجد من دونهم امرأتين تكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس.

فسألها ما خطبكما؟ قالتا لا نقدر على ورود الماء إلا بعد انصراف الرعاة.
وذلك لضعفنا وضعف أبينا وكبره.
فسقى لهما ثم تولى إلى الظل تحت شجرة.
وكان موسى قد سار من مصر إلى مدين ولم يأكل إلا البقل وورق الشجر.
وكان حافياً فسقطت نعلا قدميه من الحفاء.
وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه لاصق بظهره من الجوع.
وإنه محتاج إلى شق تمره فقال ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير.
فجاءته إحدى الفتاتين تمشي على استحياء.
وهو مشي الحرائر العفيفات.
فقلت له إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا.
وقد صرّحت له بهذا لئلا يوهم كلامها بريية.
وهذا من تمام حياتها وصيانتها.
فلما جاءه وأخبره بأمر خروجه من مصر فراراً من فرعونها.
قال له ذلك الشيخ لا تخف فقد خرجت من دولتهم.
ونجوت من القوم الظالمين.
وكان هذا الشيخ اسمه شعيب.
وهو من نسل شعيب صاحب مدين.
عند ذلك قالت إحدى البنّتين لأبيها يا أبت استأجره لرعي غنمك.
ثم مدحته بأنه قوي أمين.
ولما قالت ذلك قال لها أبوها وما أعلمك بهذا؟
فقلت إنه رفع صخرة لا يُطيق رفعها إلا عشرة رجال.
وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال كوني من ورائي.
عند ذلك قال الشيخ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين.
على أن تأجرني ثماني حجج.
فإن أتممت عشرًا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك.
ستجدني إن شاء الله من الصالحين.
فقضى السنوات العشر.
فكان موسى قد أجر نفسه بعقة فرجه وطعام بطنه.

فلما أراد موسى فراق شعيب والعودة إلى مصر.
 أعطاه من غنمه ما يعيشون به.
 وسار بأهله في ليلة مظلمة باردة.
 فتأهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى سلوك الدرب المألوف.
 وحاول موسى أن يُشعل ناراً فما رأى شيئاً واشتد الظلام والبرد.
 فبينما هو كذلك إذ أبصر من بعيد ناراً مشتعلة في جانب الطور.
 وهو الجبل الغربي عن يمينه.
 فقال لزوجته ابقِي مكانك حتى أذهب إلى حيث هذه النار.
 لعلي أستعلم ممن عندها عن الطريق.
 أو آتيكم بجذوة من النار لعلكم تصطلون وتستدفئون.
 وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر.
 ووجد عندها هدىً وأي هدى.
 واقتبس منها نوراً وأي نور.
 (فَلَمَّا فَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا
 قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا
 لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ
 فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ
 أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ
 وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تهتت كأنها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ
 يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ
 اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
 وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ
 فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
 قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ
 وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي
 إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَالِيُونَ
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُؤْتَرَى
وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى
وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ
إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ).

ولما وصل موسى إلى موضع النار.
سمع صوتاً من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة يناديه:
(أَنْ يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).
وسمع في الصوت (أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
ثم صدر إليه الأمر الإلهي:
(فَلَمَّا أَنهَا تُودِي يَا مُوسَىٰ
إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى
وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ
إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي
إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ).

123

واستعد موسى للبدء في مهمته النبوية الجديدة.
مؤيداً من الله بتسع آيات بيّنات إلى فرعون وقومه.
أولهما هاتان الآيتان وهما العصا واليد:
(اسْأَلْكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ
وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ).
وسمّاهما الله البرهانان:

(فَدَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ).
والثالثة والرابعة: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ).
والخامسة إلى التاسعة:

(وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ
آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ).

ولما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون

(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ

وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي
إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ

قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مَلَكًا مُّغْتَسِبًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ
بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمْ الْعَالِيُونَ).

(ادْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي).

وذلك أنه كان في لسانه ثقل في النطق.

ولهذا قال فرعون يعيب الكليم (وَلَا يَكَادُ يُبِينُ).

أي لا يفصح عن مراده ولا يعبر عما في ضميره وفؤاده.

وقدم موسى أسباب طلبه الاستعانة بأخيه هارون غير ما سبق:

(وَاجْعَلْ لِي وَاوِيًّا مِّنْ أَهْلِهَا هَازُونَ أَحِي
اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي
كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا
إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى).

124

انطلق النبيان الصالحان مزودين بالمعجزات والآيات.

وبالكلام الذي سيقولانه لفرعون:

(فَاتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ

أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

قَالَ أَلَمْ نُزِّكْ فِيْنَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ

وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ

قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ

فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ

وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ).

ولما قامت الحجج على فرعون وانقطعت شبهاته.

ولم يبق له قول سوى العناد انتقل إلى استعمال سلطانه وسطوته:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ

قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ

قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ).

وأمام هذا البرهان لم يكن أمام فرعون إلا أن يلقي بالتهمة الكبيرة:

(قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ

يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ

يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ).

أرسل فرعونُ يجمع السحرة من سائر مملكته.
 وقال لموسى إنَّ هذا الذي جئتَ به سحر ونحن نتحداك بمثله.
 ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقتٍ معلوم ومكانٍ معلوم.
 وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام.
 أن يُظهر آياتِ الله وحُججه وبراهينه جهرةً بحضرة الناس.
 ولهذا قال (مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ) وكان يومَ عيد من أعيادهم ومجتمع لهم.
 (وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسَ ضَعْفَى) في أول النهار وقت اشتداد ضياء الشمس.
 فيكون الحق أظهر وأجلى.
 ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام كيما يروِّج عليهم محالاً وباطلاً.
 بل طلب أن يكون نهاراً جهرةً لأنه على بصيرة من ربه ويقين.
 بأنَّ الله سيُظهر كلمته ودينه وإن رغمت أنوف أهل مصر.
 (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى)
 قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ الْإِلَهَ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ
 وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ
 قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا
 وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ
 فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَتْهُمُ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ).
 جمع فرعون من كان ببلاده من السحرة.
 وكانت مصر في ذلك الزمان مملوءة بالسحرة.
 فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير.

وحان الموعد المرتقب واللقاء المرتقب.
 وحضر فرعون وأمرأؤه وأهل دولته وأهل بلده على بكرة أبيهم.
 وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم.
 فخرجوا وهم يقولون (لَعَلَّنَا نَتَّبِعَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ).
 وتقدم موسى إلى السحرة فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل.
 الذي فيه معارضة لآيات الله وحججه فقال:
 (وَيْلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى
 فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ) واختلفوا فيما بينهم.
 فقائل يقول: هذا كلام نبي وليس بساحر.
 وقائل منهم يقول: بل هو ساحر فالله أعلم.
 وأسروا التناجي بهذا وغيره.
 (قَالُوا إِنْ هَذَا لِسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا).
 يقولون إن هذا وأخاه هرون ساحران عليمان متقنان لهذه الصناعة.
 ومرادهم أن يجتمع الناس عليهما ويصولا على الملك وحاشيته.
 ويستأصلاكم عن آخركم ويستأمرنا عليكم بهذه الصناعة.
 (فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى).
 وإنما قالوا ذلك ليتحدوا ويتواصوا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة.
 والمكر والخديعة والسحر والبهتان.
 وهيهات كذبت والله الظنون وأخطأت الآراء.
 أتى يعارض البهتان والسحر والهديان.
 خوارق العادات التي أجزاها الديان.
 على يدي عبده الكلیم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان.
 الذي ينهر الأبصار وتحر فيه العقول والأذهان.
 وتواصى السحرة: (فأجمعوا كيدكم) وجميع ما عندهم.
 (ثم ائتوا صفاً) واحداً.
 ثم حض بعضهم بعضاً على التقدم في هذا المقام.
 لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

(قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى
قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَاهُمْ وَعَصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى
فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى
وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا
إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى
فَأَلْقَى السِّحْرَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى
قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ
إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ
وَلَأَصْلَبَنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى
قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا
فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).
ثم إن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم رضي الله عنهم.
فما كان منهم إلا أن قالوا: (رَبَّنَا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين).

ولما غلب فرعون وقومه لم يزداهم ذلك إلا كفرةً وعناداً وبُعداً عن الحق.
 (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهْلَتَكَ
 قَالَ سَنُقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ
 قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا
 إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
 قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا
 قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ
 وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ
 فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ
 وَجَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ
 إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ
 وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ
 وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ
 إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ
 وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ).

وكان هناك رجل مؤمن هو ابن عم لفرعون.

وكان يكتنم لإيمانه من قومه خوفاً منهم.

فقال لفرعون وملئه:

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ

وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ

يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ

فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ

مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ

وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ

يَوْمَ تُنْزَلُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ

وَأَقْدَمَ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ

حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ

الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ

كَبْرٌ مُقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ

أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ

يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ

مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا

وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

يُزْفَرُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ

وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ

تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَقَّارِ
لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
فَسْتَدْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ
النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ).

ثم دعا فرعونُ قومه الجهلة الضُّلال إلى أن اتبعوه وطاعوه.

وصدَّقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه ربّ:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ

وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ بِجَرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ

أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ

فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ).

وكانوا قد توالى عليهم الآيات السبع الباقية:

(وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ

أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ

آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ

وَأَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ

لَعَلَّ كَشْفَتِ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَ لَكَ وَلِنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ

فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ

وَأَوْزَيْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا

وَوَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ).

وكانوا كلما شاهدوا آية وعابيتها حلفوا وعاهدوا موسى:

لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به وليرسلن معه من هو من حزيه.

فكلما زُفعت عنهم تلك الآية عادوا إلى شر مما كانوا عليه.

وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ولم يلتفتوا إليه.

فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها وأقوى.
فيقولون فيكذبون ويعودون إلى جهلهم القديم.
ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر.

ولما تمادى أهل مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم.
متابعةً لملكهم فرعون ومخالفةً لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران.
وأقام الله على أهل مصر الحُجج العظيمة القاهرة.
وأراهم من خوارق العادات ما بجر الأبصار وحيّر العقول.
وهم مع ذلك لا يرعؤون ولا ينتهون ولا يرجعون.
ولم يؤمن منهم إلا القليل.
منهم امرأه فرعون ومؤمن آل فرعون.
والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة فقال:
(يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يُاتِمُّونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِلَيَّ لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ)
والسحرة كلهم وخازن فرعون وامراته وماشطه ابنته.
وهؤلاء ذرية من قوم فرعون:
(فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ
وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ).
وعند ذلك قال موسى (يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ
فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).
وأوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون أن يتخذوا لقومهما بيوتاً.
متميزة عن بيوت القبط ليكونوا على أهبّة في الرحيل إذا أمروا به.
ليعرف بعضهم بيوت بعض (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) أي متقابلة.
(وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
رَبَّنَا لِئَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

ثم جاء الموعد المأمول لنجاة بني إسرائيل من استعباد فرعون لهم.
 فأذن الله لموسى بالخروج بقومه سراً.
 فخرجوا بالليل نحو بلاد الشام.
 فلما علم فرعون بذهابهم حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم.
 وشرع في استحاث جيشه وجمع جنوده ليلاحقهم ويمحقهم.
 (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ
 فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
 إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ
 وَإِنَّهُمْ لَنَا لِعَائِلُونَ
 وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ
 فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
 وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ
 فَلَمَّا تَرَاءَى الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ
 قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ
 فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ
 فَأَنْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ
 وَأَزَلَّوْنَا تَمَّ الْآخِرِينَ
 وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ
 ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ
 وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ).
 فلما رأى فرعون ما حل بهم.
 (حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
 وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ

آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ
فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً
وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ.

خرج موسى وبنو إسرائيل من البحر سالمين غانمين.
 (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَعَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا
 وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ).
 فكان الواجب بعد ذلك على بني إسرائيل.
 وهم حديثو عهد بمعجزة كالتى رأوها منذ قليل.
 أن يشكروا الله حق شكره ويعبدوه حق عبادته.
 ولكن.....

وآه من لکن.....

لما خرجوا من البحر.

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ
 قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ
 إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَبِرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 قَالَ أَغْيِرَ اللَّهُ أْبْعِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ
 وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
 يُمْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ).

ثم إن موسى لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس.
وجد فيها قوماً من الجبارين من الحِيثانيين والكنعانيين وغيرهم.
فأمر موسى بني إسرائيل بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس.
فإن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل.
فأبوا وجنبوا عن الجهاد فسَلَطَ اللهُ عليهم الخوف.
وَأَلْفَاهُمْ فِي التَّيِّهِ يَسِيرُونَ وَيَحْلُونَ وَيَرْتَحِلُونَ وَيَذْهَبُونَ وَيَجِيئُونَ.
في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون.
(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ
يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ
وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ
قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا
فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ
فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا
فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ
قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ
فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ).

ودخل بنو إسرائيل في فترة التيه صحراء سيناء.
ونزلوا حول جبل الطور.
وصعد موسى الجبل فكلمه ربه وأمره أن يذكر بني إسرائيل بما أنعم الله به عليهم.
من إنجائه إياهم من فرعون وقومه.
وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم.
فإذا كان اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل.
(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُم جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ
وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُم وَلَا تَطَعُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى
وإِذِ ابْتِغَى لَمِذَانَ يَأْمُرُ النَّاسَ بِظُلْمٍ أَعْجَلَ عَلَيْهِمْ غَضَبَنَا إِنَّهُمُ اتَّكَفَرُوا
بِعَظِيمٍ
وَمَا أَعَجَلَكْ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى
قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى).
وقد امتن الله عليهم وعرفهم نعمته عليهم.
(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ
وَإِذِ ابْتِغَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ
يُدْجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي دَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ
وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ
وَإِذْ وَاوَدْنَا مُوسَى إِذِ ابْتِغَى الْكَلْبَةَ لِيَلْهُنَّ أَعْيُنُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْتُمْ تَأْتُونَ
مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْكَافِرَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْكَافِرَاتِ وَالْمُؤْمِنَاتِ الْكَافِرَاتِ
وَأَنْتُمْ تَأْتُونَ
وَأِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلِ
فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ
إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً

فَأَخَذَتْكُمْ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ
ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى
كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ
كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ
فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِئُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا
قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ
أَهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ
وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ
وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ
وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ
فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ).

وكما سأل إبراهيم الخليل ربه أن يرّيه كيف يحيى الموتى .
 سأل موسى ربه أكبر من ذلك .
 سأله أن يراه .
 ظناً منه أن ذلك ممكن في الدنيا .
 فبين له ربه أن أحداً من البشر لا يستطيع ذلك في الدنيا .
 وأثبت له ذلك بالبرهان العملي .
 حيث تجلّى سبحانه للجبل فكانت النتيجة خارج قدرة البشر .
 (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
 وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ
 وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ
 قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي
 فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا
 فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ
 قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي
 فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ
 وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ
 فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ
 سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
 وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
 وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعِجِّيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
 هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وفي الفترة التي غاب فيها موسى عن قومه حين ذهب إلى ميقات ربه .
فمكث على جبل الطور يناجيه .

عمد رجل منهم يقال له: السامري .

فأخذ ما كان عندهم من الذهب فصاغ منه عجلاً .

وكانت الريح إذا دخلت من دُبره وخرجت من فمه يُحور مثل البقرة .

فيرقصون حوله ويفرحون .

حتى قال لهم السامري هذا إلهكم وإله موسى .

فزجرهم هارون عن ذلك .

فصمموا على أن يعبدوه إلى أن يرجع موسى .

وأخبر الله موسى بأن السامري أضل بني إسرائيل .

فرجع إليهم موسى غضباناً أسفاً مما فعلوه :

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا

قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي

أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَاللَّيَالِيُ الْأَلْوَاخِ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ

قَالَ ابْنُ أُمِّ إِيَّانَ الْقَوْمِ اسْتَزْعَمُونِي وَكَادُوا يَفْتُلُونِي

فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَاهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتِرِينَ

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ

وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ
 أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا
 إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ
 أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ
 وَكُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ
 قَالَ عَدَايُ أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
 فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ
 الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
 الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
 وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
 فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ
 أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

(وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى
 قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَتْرِكُكَ وَإِلَيْكَ رَبِّي لِتَرْضَى
 قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ
 فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا
 قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا
 أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ
 أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي
 قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ
 فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ
 فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ
 أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرًّا وَلَا نَفْعًا
 وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ
 وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي
 قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى

قَالَ يَا هَازِرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا
أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي
قَالَ بَيْنَهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي
إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ تَرْفُوبَ قَوْلِي
قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ
قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ
فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي
قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ
وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ
وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا
إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا
كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا
مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا
خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا).

وكان رجل في بني إسرائيل كثير المال.
 وكان شيخاً كبيراً وله أبناء أخ.
 وكانوا يتمنون موته ليرثوه.
 فعمد أحدهم فقتله في الليل ورماه على قارعة الطريق.
 فلما أصبح الناس اختصموا فيه واتهم كل منهم الآخر.
 وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم.
 فقالوا ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله؟
 فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى.
 وسأله أن يسأل ربه في هذه القضية.
 فسأل ربه عز وجل في ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح البقرة:
 (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً
 قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ
 قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ
 قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ
 عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ فافعلوا ما تؤمرون
 قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا
 قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ
 قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ
 إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ
 قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذُلُولٌ
 تُبِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا
 قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ
 وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
 فَعُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
 ثُمَّ قَسَتْ فُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً
 وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ

وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْتَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ
وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

وفي يوم من الأيام قام موسى خطيباً في بني إسرائيل.
فسأله: أيُّ الناس أعلم؟
فقال: أنا.

فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه.
ثم أوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك.
قال موسى: يا ربِّ وكيف لي به؟
قال تأخذ معك سمكةً فتجعلها في وعاء.
فحيثما فقدت السمكة فهو هناك.
فأخذ السمكة فجعلها في مِكتل ثم انطلق.
وانطلق معه تلميذه يوشع بن نون.
حتى إذا أتيا الصخرة فناما من التعب.
واضطربت السمكة في المِكتل فخرجت منه.
فسقطت في البحر واتخذت سبيلها في البحر.
فلما استيقظا نسي تلميذه أن يخبره بالسمكة.
فسارا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغد.
قال موسى لفتاه: (آتَيْنَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا).
فقال له فتاه إني نسيْتُ الحوت.
فرجعا يتتبعان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة.
فإذا رجل مسجّى بثوب فسلم عليه موسى.
فقال الحضر وأني بأرضك السلام؟
فقال أنا موسى.

فقال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رُشدًا.

(قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا)

يا موسى إني على علمٍ من علم الله علّمنيه الله لا تعلمه أنت.
وأنت على علمٍ من علم الله علّمكه الله لا أعلمه.

فقال (سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا).
 قال له الحَضِرُ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أَبَيِّنَهُ لَكَ:
 (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا
 فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا
 فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ أَتَيْتَا عِدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا
 قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ
 وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا
 قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا
 فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا
 قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنِّي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا
 قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
 وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا
 قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا
 قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
 فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا
 قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا
 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
 قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا
 فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ
 لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا
 قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
 قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي فَدَ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا
 فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبْوَا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا
 فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا
 قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا
 أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا
 وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا
 وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبْوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
 فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاءً وَأَقْرَبَ رُحْمًا

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ
وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا.

139

وكان في قوم موسى رجل اسمه قارون.
 كان غنياً غنيّاً فاحشاً حمله على البغي على بني إسرائيل.
 وكان قد نافق كما نافق السامريُّ وتكبر على قومه.
 فوعظه النصحاء فلم يزد إلا كبراً.
 حتى أهلكه الله وجعله عبرة لكل غني متكبر:
 (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ
 وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ
 إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ
 وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا
 وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ
 قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي
 أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا
 وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُحْرَمُونَ
 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ
 قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ
 إِنَّهُ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ
 وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
 وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ
 فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ
 وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ
 وَيَكَافُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ
 لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَافُ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ
 تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ لَجُعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِسَادًا
 وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
 مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
 فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

هذا موسى بن عمران الكليم.
 أكثرُ أنبياء بني إسرائيل أذىً من قومه وإرهاقاً ومعاناة.
 ورغم أنه (كَانَ مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا
 وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا
 وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا).
 ويرغم أن الله قَالَ (يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي
 فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ).
 ويرغم أن سيد بني آدم قال فيه: (لا تفضلوني على موسى
 فإن الناس يُصعقون يومَ القيامة فأكون أول من يفيق
 فأجد موسى ممسكاً بقائمة العرش فلا أدري أصعق فأفاق قبلي؟
 أم جوزي بصعقة الطور).
 هذا موسى الذي آذاه قومه (فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا).
 وكان من وجاهته عند ربه أنه شفع في أخيه وطلب أن يكون معه وزيراً.
 فأجابه الله إلى سؤاله (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا).
 موسى الذي رَكَاه نبيُّ الإسلام.
 وكان قد قَسَمَ يوماً قَسَمًا.
 فقال رجلٌ منافقٌ إن هذه قِسْمَةٌ ما أريدَ بها وجهُ الله.
 فقال: (يرحم الله موسى قد أؤذي بأكثرَ من هذا فصبر).
 وفي رحلة الإسراء مرَّ بموسى فرآه في السماء السادسة.
 فقال له جبريل: هذا موسى فسلمَّ عليه.
 قال: فسلمتُ عليه فقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.
 فلما تجاوزتُ بكى.
 قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي.
 يدخل الجنة من أمته أكثرُ مما يدخلها من أمتي.
 وفي هذه الرحلة لما فُرِضت على محمد وأمه خمسون صلاة في اليوم واللييلة.
 فمر بموسى قال: ارجع إلى ربك فسألته التخفيف لأمتك.
 فإني قد عاجلتُ بني إسرائيل قبلك أشدَّ المعالجة.

وإن أمتك أضعفُ أسمعاً وأبصاراً وأفئدة.
فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه في كل مرة.
حتى صارت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة.
موسى الذي قال عنه خاتم المرسلين يوماً:
(عُرِضت عليّ الأمم ورأيت سواداً كثيراً سدَّ الأفق.
فقليل هذا موسى في قومه).
إنه موسى كلِّم الله وكفى.

141

ثم حان الأجل وجاء ما كتبه الله على آدم وبنيه من بعده.
جاء الموت.

فأرسل الله مَلَكَ الموت إلى موسى ليقبضه.

فلما جاءه نحره موسى فرجع إلى ربه عز وجل.

فقال: أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت.

قال: ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور.

فله بما غطت يده بكل شعرة سنة.

فقال موسى: أي ربّ ثم ماذا؟

قال: ثم الموت قال: فالآن.

فسأل الله عز وجل أن يُدنيه من الأرض المقدسة.

فهناك قبره وقبر أخيه هارون الذي مات قبله فقام موسى على دفنه.

ثم مات موسى كما مات أبوه آدم والنبيون من قبله.

مات على التوحيد غير مبدّل ولا مقصّر.

سلامٌ على موسى في العالمين.

وبعد موسى قام بأعباء بني إسرائيل تلميذه النبي يوشع بن نون. الذي كثيراً ما اقترن ذكره بذكر موسى عليه السلام:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ بَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِي حُمْبًا فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا).

وكان يوشع قائداً على جيوش بني إسرائيل. ولما مات موسى في زمن التيه. كان يوشع هو من خرج ببني إسرائيل من التيه. وقصد بهم بيت المقدس وقطع بهم نهر الأردن. وانتهى إلى أريحا وكانت من أحصن المدائن فحاصرها ستة أشهر. ثم إنهم أحاطوا بها يوماً و ضربوا بالقرون يعني الأبواق. وكبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها وسقط مرة واحدة. فدخلوها وأخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم. وحاربوا ملوكاً كثيرة. وانتصر يوشع على ثلاثين ملكاً من ملوك الشام. وانتهت محاصرته لها إلى يوم الجمعة بعد العصر. فلما غربت الشمس أو كادت تغرب ويدخل عليهم السبت. الذي حرم عليهم القتال فيه. قال للشمس إنك مأمورة وأنا مأمور اللهم احبسها عليّ. فحبسها الله عليه حتى تمكن من فتح البلد. ولما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها راكعين متواضعين.

شاكرين لله عز وجل على ما منَّ به عليهم من الفتح العظيم.
وأن يقولوا حال دخولهم "حِطَّة" أي حُطَّ عنا خطايانا.
التي كانت سبباً في دخولنا التيه.
ولكنهم خالفوا ما أمروا واستهزأوا وبدلوا فقالوا: حِطَّة وشَعِير.
(وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةً
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ
فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ
وَاسْأَلْتُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ
إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).
ولما استقرت يد بني إسرائيل على بيت المقدس.
استمروا فيه وبيّن أظهرهم نبي الله يوشع يحكم بينهم بكتاب الله التوراة.
حتى قبضه الله إليه وهو فوق المائة والعشرين.
سلامً على يوشع في العالمين.

ومن أنبياء بني إسرائيل بعد موسى نبيُّ الله إلياس .
الذي ذكره الله تعالى بعد قصة موسى وهرون من سورة الصافات :

(سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ
إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ
وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ
أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ
اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ
فَكَذَّبُوهُ فَأَيُّهُمْ لَمُحْضَرُونَ
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ
سَلَامٌ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ
إِنَّا كَذَلِكْ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ).

وكان إلياس أو إلياس أو إيل ياسين من نسل هارون بن عمران .
في زمن كان سائر بني إسرائيل قد اتخذوا صنماً .
يعبدونه من دون الله يقال له بعل .
في مدينة يقال لها بعلبك .

فدعاهم إلى الله عز وجل وأن يتركوا عبادة هذا الصنم .
ولهذا قال لهم (أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ).
فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله .
فهرب منهم واختفى عنهم مدة .
حتى أهلك الله الملك وولي غيره .
فأتاه إلياس فعرض عليه الإسلام فأسلم .
وأسلم من قومه خلق عظيم .
سَلَامٌ عَلَىٰ إِيَّاسِينَ فِي الْعَالَمِينَ .

ثم قام بأمر بني إسرائيل بعد يوشع أنبياء.
منهم كالب بن يوفنا وهو أحد أصحاب موسى عليه السلام.
وهو زوج أخته مريم بنت عمران الأول والد موسى.
وهو أحد الرجلين اللذين كانا ممن يخافون الله.
وهما يوشع وكالب.
وهما القائلان لبني إسرائيل حين رفضوا أمر موسى بالجهاد:
(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ
وَلَا تَرْتَدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ
قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا
فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ
قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ
فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ عَالُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

ثم كان القائم من بعده بأمور بني إسرائيل حزقيلا.
وهو الذي دعا الله فأحيا الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ
فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ).
وكان يسمي ابن العجوز لأن أمه سألت الله الولد على كبر فوهبه الله لها.
والألوف الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت فروا من الوباء.
ونزلوا بواد فسيح.
فقال لهم الله موتوا فماتوا جميعاً.
ومضت عليهم دهور طويلة في هذا المكان.
فمر بهم حزقيلا عليه السلام فوقف عليهم متفكراً.
فقبل له أتعب أن يبعثهم الله وأنت تنظر؟
فقال: نعم
فأحياهم الله فقاموا كلهم أجمعون.
ورجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى.
وفي قصتهم عبرة أنه لا يغني حذر من قدر.
ولبت حزقيلا في بني إسرائيل ما شاء الله له.
ثم إن الله قبضه إليه.
سلاماً على حزقيلا في العالمين.

فلما قبض حزقيل نسي بنو إسرائيل عهد الله إليهم.
 وعظمت فيهم الأحداث وعبدوا الأوثان.
 ثم تنبأ فيهم اليسع بن أخطوب عليه السلام.
 (وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ
 وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
 وَذَكَرْنَا وَيْحِي وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلًّا مِنَ الصَّالِحِينَ
 وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ).
 (وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ
 إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ
 وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ
 وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلًّا مِنَ الْأَخْيَارِ).
 وكان اليسع بعد إياس عليهما السلام.
 فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله.
 مستمسكاً بمنهاج إياس وشريعته.
 سلاماً على اليسع في العالمين.

ثم انفرط أمر بني إسرائيل.
 وعظمت فيهم الخطوب والخطايا.
 وقتلوا من قتلوا من الأنبياء.
 وسلط الله عليهم بدل الأنبياء ملوكاً جبارين.
 يظلمونهم ويسفكون دماءهم.
 وسلط الله عليهم الأعداء من غيرهم أيضاً.
 وكانوا إذا قاتلوا أحداً من الأعداء يكون معهم تابوت الميثاق الذي تركه لهم موسى.
 فكانوا يُنصرون ببركته وبما جعل الله فيه من السكينة.
 والبقية مما ترك آل موسى وآل هارون من الألواح والثياب والأدوات.
 (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ
 فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ).

فلما كان في بعض حروبهم مع أهل غزة وعسقلان غلبوهم وقهروهم على أخذه.
 فانتزعه من أيديهم فانهزموا.
 وأصبحوا كالغنم بلا راع.
 حتى بعث الله فيهم نبيه أشمويل.

وكان أشمويل من ورثة هارون.
 وذلك أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل.
 وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً.
 وانقطعت فيهم النبوة.
 ولم يبق فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عز وجل أن يرزقها ولداً ذكراً.
 فولدت غلاماً فسمته أشمويل.
 ومعناه بالعبرية إسماعيل أي سمع الله دعائي.
 فلما ترعرع بعثته إلى المسجد وأسلمته عند رجل صالح فيه.
 ليتعلم من خيره وعبادته فكان عنده.
 فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة في المسجد.
 جاءه الملك فقال إن ربك قد بعثك إلى قومك.
 فكان من أمره معهم ما قص الله في كتابه العزيز:
 (أَمْ تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى
 إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ هُمْ ائْبَعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا
 قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا
 فَمَا كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ
 وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا
 قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَمَ يُؤْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ
 قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ
 وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ
 وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
 فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ
 فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي
 وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ

فَشَرُّوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ
قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ
وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ
وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ
فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ
وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ
وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ).

وذلك أن بني إسرائيل لما أنهكتهم الحروب وقهرهم الأعداء.
سألوا نبيهم في ذلك الزمان وطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً.
يكونون تحت طاعته ليقاتلوا معه الأعداء.
ولما نصب لهم طالوت ملكاً عليهم.
وكان عاملاً فقيراً.
رفضوه ونفروا منه وطعنوا في إمارته عليهم.
وقالوا نحن أحق بالملك منه لأنه من فرع ضعيف في بني إسرائيل.
وأنة فقير لا سعة من المال معه فكيف يكون هذا ملكاً علينا؟
فبين لهم نبيهم أن الله (اضطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم).
وأعطاهم علامة تأييد من الله (إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينه من ربكم
وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة
إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين).
فلما استخلصت الملائكة التابوت من أيدي العمالقة.
وجاءوا به إلى بني إسرائيل صدقوا وأذعنوا وما كادوا يفعلون.
فلما جاوز بهم طالوت نهر الأردن اختبر الله إيمانهم.
فنهاهم نبيهم عن الشرب من النهر.
وقال من شرب منه فلا يصحبي.
(فشربوا منه إلا قليلاً منهم).
وحتى هؤلاء القليل لما اجتازوا النهر ورأوا جيش الأعداء.
استقلوا أنفسهم واستضعفوها وقالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده.
وكانت منهم قلة مؤمنة بحق.
(قال الذين يظنون أنهم ملأوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله
والله مع الصابرين).
وكان في هؤلاء القلة المؤمنة الشاب داود الذي هو النبي داود فيما بعد.
(ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا
وانصربنا على القوم الكافرين).

(فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ).
(وَأَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ).

150

وكان من أمر داود عليه السلام أنه كان أصغر أولاد أبيه.
 وكان سمع طالوتَ ملكَ بني إسرائيل وهو يحرّض على قتل جالوت.
 وأن من يقتل جالوتَ (زوّجته ابنتي وأشركته في ملكي).
 وكان داود عليه السلام يرمي بالمقلاع رمياً عظيماً.
 فبينما هو سائر مع بني إسرائيل إذ ناداه حجر:
 خذني فإنك بي تقتل جالوت.
 فأخذه وحجرين آخرين فجعل الثلاثة في مخلاته.
 فلما تواجه الصفان برز جالوت ودعا إلى المبارزة.
 فتقدم إليه داود فقال له: ارجع فإني أكره قتلك.
 فقال: لكني أحب قتلك.
 وأخذ تلك الأحجار الثلاثة فوضعها في المقلاع ثم أدارها.
 فصارت الثلاثة حجراً واحداً.
 ثم رمى بها جالوتَ ففلق رأسه وفر جيشه منهزماً.
 فوثق له طالوتُ بما وعده فزوجه ابنته وأشركه في ملكه.
 وعظم داودُ عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبوه ومألوا إليه.
 فترك طالوتُ الملكَ لداود عليه السلام.

ذاع صيْتُ داوودَ وجمع الله له بين الملك والنبوة.
وكان الملك في بني إسرائيل يكون في فرع.
وتكون النبوة في فرع آخر فاجتمعا في داود.
وأصبح أمر داود عند الله وعند الناس عظيماً.
هذا داود الذي قال الله فيه:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا
يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ
أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ
وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

وقال فيه:

(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ
وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ).
أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلين من الأعداء.
وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها.

وكان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده.

وقال فيه:

(اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ
وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ
وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخُطَابِ).

وكان يقوم نصف الليل ويصوم نصف الدهر.

يصوم يوماً ويُفطر يوماً ولا يفرُّ إذا لاقى الأعداء.

وكان الله تعالى قد وهبه من الصوت الجميل ما لم يُعْطه أحداً.

فكان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيحه ويسبح بتسبيحه.

وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبَّح بكرة وعشياً.

وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله.

فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته.
وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.
فقد احتكم رجالان إليه في بقر.
ادعى أحدهما على الآخر أنه اغتصبها منه.
فأنكر المدعى عليه.
فأرجأ داود أمرهما إلى الليل.
فلما كان الليل أوحى الله إليه أن يقتل المدعي.
فلما أصبح قال له داود: إن الله قد أوحى إليّ أن أقتلك.
فأنا قاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيتك على هذا؟
قال: والله يا نبي الله إني لمحقّ فيما ادعيتك عليه.
ولكنني كنتُ قتلْتُ أباه قبل ذلك.
فأمر به داودُ فقتل فعظم أمره في بني إسرائيل.

وكانت لداود قصة عظيمة في الحكم بين الخصوم.
تدعو القاضي أن يكون متيقظاً دائماً لنفسه وهواه.
كي يصيب الحق في حكمه وقضائه:
(وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب
إذ دخلوا على داود ففرع منهم قالوا لا تخف
خصمانا بغي بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق
ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط
إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة
فقال أكفليها وعزني في الخطاب
قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه
وإن كثيراً من الخطأ ليعني بعضهم على بعض
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم
وظن داود أنما فتناه فاستعفر ربه وخر راكعاً وأناب
فعرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب
يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق
ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله
إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد
بما نسوا يوم الحساب).

153

وقد كان داود عليه السلام هو المقتدى به في ذلك الوقت في العدل.
 وكثرة العبادة وأنواع القربات.
 حتى إنه كان لا يُضَيِّ ساعةً من آناء الليل وأطراف النهار.
 إلا وأهل بيته في عبادة.
 وورد في حكمة آل داود:
 حقُّ على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات:
 ساعةٍ يناجي فيها ربَّه وساعةٍ يحاسب فيها نفسه.
 وساعةٍ يُفضي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه.
 وساعةٍ يخلِّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلُّ ويحرم.
 فإن هذه الساعة عونٌ على هذه الساعات وإجمامٌ للقلوب.
 وحقُّ على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ويُقبل على شأنه.
 ووردت عن داود عليه السلام حِكْمٌ كثيرةٌ منها قوله:
 كن لليتيم كالأب الرحيم.
 واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.
 وانظر ما تكره أن يُذكر عنك في نادي القوم فلا تفعله إذا خلوت.
 ولا تعِدَّن أخاك بما لا تُنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه.

وقد سبق في قصة خلق آدم.
 أن الله لما استخرج ذريته من ظهره.
 فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام.
 ورأى فيهم رجالاً جميلاً.
 فقال: أي ربّ من هذا؟
 قال: هذا ابْنُكَ داود.
 قال: أي ربّ كم عمره؟
 قال: ستون عاماً قال: أي ربّ زد في عمره.
 قال: لا إلا أن أزيدَه من عمرك فزاده أربعين عاماً.
 فلما انقضى عمرُ آدم جاءه مَلَكُ الموت.
 فقال: بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود.
 فأتم الله لآدم عمرَه كلّه ولداود مائة سنة.
 وكان داود عليه السلام فيه غَيْرَةٌ شديدةً على زوجاته.
 فكان إذا خرج أُغْلِقَتِ الأبوابُ فلم يدخل على أهله أحدٌ حتى يرجع.
 فخرج ذات يوم وأغْلِقَتِ الدار.
 فأقبلت امرأته تنظر فإذا رجلٌ قائم وسطَ الدار.
 فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدارُ مغلقة؟
 والله لَنُفْتَضِحَنَّ بداود فجاء داود فإذا الرجلُ قائم في وسط الدار.
 فقال له داود: من أنت؟
 فقال: أنا الذي لا أهاب الملوكة ولا أُمْنَعُ من الحُجَّابِ.
 فقال داود أنت والله إذن مَلَكُ الموت مَرْحَباً بأمر الله.
 ثم مكث حتى قُبِضَتْ روحه.
 فلما غَسَّلَ وكفَّنَ وفُرِّغَ من شأنه طلعت عليه الشمس.
 فقال ابنه سليمان للطير: أَظَلِّي على داود.
 فأظلته الطير حتى أظلمت عليه الأرض.
 وكان مَلَكُ الموت قد جاءه وهو نازل من محرابه.
 فقال له: دعني أنزل أو أصعد.

فقال: يا نبيّ الله قد نفذتِ السنون والشهور والآثار والأرزاق.
فخرّ ساجداً فقبضه وهو ساجد.
وإن الناس حين حضروا جنازة داود عليه السلام.
جلسوا في الشمس في يوم صائف.
ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهرون.
من كانت بنو إسرائيل أشدّ جزعاً عليه منهم على داود.
فأذاهم الحرُّ فنادوا سليمانَ أن يعملَ لهم وقايةً مما أصابهم من الحر.
فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت.
فأمرها أن تظلل الناسَ فتراصَّ بعضُها إلى بعض من كل وجه.
فكان ذلك أولَ ما رآه من مُلكِ سليمان.
ثم قبض الله داودَ من بين أصحابه غير مفتون ولا مبدل.
وعهد بني إسرائيل إلى ابنه سليمان.
سلامً على داودَ في العالمين.

مات نبيُّ الله داود.
 وأوصي بني إسرائيل إلى ابنه سليمان.
 الذي ورثه في الملك والنبوة.
 (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ
 وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ).
 وقد علّمه الله لغات الطيور والحيوانات.
 (وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ
 حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ
 يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ
 لَا يَخْطِبَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا
 وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ
 وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ).
 ثم إن سليمان بن داود عليه السلام خرج هو وأصحابه يستسقون.
 يعني يصلون صلاة الاستسقاء.
 فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقي.
 فقال لأصحابه: ارجعوا فقد سُقِيتُمْ.
 إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها.

وقصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ قصة عظيمة:
 (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ
 لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ
 فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَسَاءٍ يَقِينٍ
 إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ
 وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ
 أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
 قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
 أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْفَهْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ
 قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ
 إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ
 قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ
 قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ
 قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
 وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا آذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ
 وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ
 فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ
 فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ
 ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ
 قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ
 قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنَّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ مَقَامِكَ

وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ
قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ
فَلَمَّا رآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ
وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ
قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ
فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ
وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ
قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا
قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وكانت لسليمانَ خيلٌ جياد ورثها عن أبيه.
 وكان يحب أن يستعرضها ويأنسَ بها.
 وذات يوم عُرضت عليه الخيلُ حتى صلاة العصر.
 فإذا الشمس قد غربت وتوارت بالحجاب.
 ولما فاتته الصلاة أمر الله الملائكة الموكلين بالشمس ردوها.
 فردوها حتى صلى سليمان العصر في وقتها.
 وأثنى الله عليه بأنه (نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) ورجاع مطيع لله.
 كما أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر.
 تجري بأمره حيث أصاب.
 (وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ
 إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ
 فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ
 رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ
 وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ
 قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ
 فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَاءً حَيْثُ أَصَابَ
 وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ
 وَأَخْرَيْنَ مُفْرَرِينَ فِي الْأَصْفَادِ
 هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ).

وكما كان داود حكيماً في قضاؤه بين الناس.
 كان سليمان كذلك منذ نعومة أظفاره.
 وقد أنى الله تعالى عليه وعلى أبيه في ذلك.
 (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ
 وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ
 فَهَمَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا
 وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ).
 فقد كان لقومٍ بستانٌ فنزلت فيه غنم قوم آخرين بالليل.
 فأكلت شجره كله.
 فتحاكموا إلى داود عليه السلام.
 فحكم لأصحاب البستان بقيمته.
 فلما خرجوا على سليمان قال: بماذا حكم لكم نبي الله؟
 فقالوا: بكذا وكذا.
 فقال أما لو كنتُ أنا لما حكمتُ إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب البستان.
 فيستغلون ألبانها وما تلده من أغنام.
 حتى يُصلح أصحابُ الغنم بستانَ أولئك ويرُدُّوه إلى ما كان عليه.
 ثم يتسلموا غنمهم.
 فبلغ داودَ عليه السلام ذلك فحكم به.
 وموقفٌ آخر يدل على حكمة سليمان في القضاء.
 فبينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابنَ إحداهما.
 فتنازعتا في الآخر فقالت الكبرى: إنما ذهب بابنك.
 وقالت الصغرى: بل ذهب بابنك أنت.
 فتحاكما إلى داود فحكم به للكبرى.
 فخرجتا على سليمان فقال اثنتونى بالسكين أشقَّه نصفين لكل واحدة منكما نصفه.
 فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها.

ثم إن سليمان عليه السلام غاب في سفر.
 ولما عاد أمر بتجديد بيت المقدس فجدده وبنى فيه بناءً محكمًا.
 وعندها سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده.
 فسخر الله له الريح عاصفة.
 (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
 وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ).
 وسخر له الجن تصنع له ما يشاء.
 (وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوضُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ
 وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ).
 وامتن الله عليه بإجابة سؤله وتحقيق طلبه:
 (قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي
 إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ
 فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ
 وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ
 وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ
 هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَكُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ).
 فإنه لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوّضه الله منها الريح.
 التي هي أسرع سيراً وأقوى وأعظم ولا كلفة لها عليه.
 تجري بأمره رخاءً حيث أراد من أي البلاد.
 والجن يصنعون له ما يعجز عنه الإنس.
 (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ
 وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ
 وَمَنْ يَرِغْ مِنْهُمْ عَنَ أَمْرِنَا نُنْزِفُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ
 يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَمَتَائِلَ وَجِحَافٍ كَالْجَوَابِ
 وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ).

وأَسألُ اللهَ له عَيْنَ القَطْرِ وهو التُّحاسُ.
يأخذُ منها جميع ما يحتاج إليه للبناءات والعمارات.

ثم كانت النهاية وحلول الأجل.
 وتحقق الكتاب الذي فرضه الله على بني آدم أجمعين.
 الغني منهم والفقير.
 والأمير منهم والحقير.
 (فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ
 مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّهٗ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ
 فَلَمَّا خَرَ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبِ
 مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ).
 ولما علم سليمان بمجيء أجله دخل المحراب فقام يصلي متكئاً على عصاه.
 ودعا: اللهم أخف عن الجن موتي حتى تعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب.
 فمات ولم تعلم به الشياطين وهم يعملون له.
 ويخافون أن يخرج فيعاقبهم.
 وكانت الشياطين تجتمع حول المحراب.
 ونظروا يوماً وإذا بسليمان قد سقط أرضاً.
 فخرجوا فأخبروا الناس أن سليمان قد مات.
 ووجدوا منسأته وهي العصا قد أكلتها الأرضة.
 ولم يعلموا منذ كم مات.
 فأيقن الناس عند ذلك أن الجن كانوا يكذبون.
 ولو أنهم علموا الغيب لعلموا بموت سليمان ولم يلبثوا في العذاب المهين.
 وقد عاش سليمان بضعا وخمسين سنة.
 دام ملكه فيها أربعين سنة.
 ثم ملك بعده ابنه سنوات.
 ثم تفرقت بعدهما مملكة بني إسرائيل.
 سلاماً على سليمان في العالمين.

وكان مما قدره الله على بني إسرائيل وقضاه خراب بيت المقدس .
وذلك حين ظهرت فيهم المعاصي والفساد وخالفوا أمر الله .
وبين سبحانه أن هذا سيكون مرتين لا مرة واحدة .
وقد وقعت الأولى بعد سليمان .

وها نحن اليوم في انتظار الآخرة :

(وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ

أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا

ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ

لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا

أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا

ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيِّنَ

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا

إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا

فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ

وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم

وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) .

ويحكي أن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل .

حين ظهرت فيهم المعاصي :

أن قم بين قومك .

فأخبرهم أن لهم قلوباً ولا يفقهون .

وأعيناً ولا يبصرون .

وأذاناً ولا يسمعون .

وإني علمت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم.
فسألهم كيف وجدوا أثر طاعتي.
وهل سعد أحدٌ ممن عصاني بمعصيتي؟
وهل شقي أحدٌ ممن أطاعني بطاعتي؟
إن الدواب تَذكر أوطانها فتنزِع إليها.
وإن هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمتُ عليه آباءهم.
والتمسوا الكرامة من غير وجهها.
أما أحبارهم فأنكروا حقّي.
وأما قراؤهم فعبدوا غيري.
وأما نساكهم فلم ينتفعوا بما علموا.
وأما ولائهم فكذبوا عليّ وعلى رسلي.
خزّنوا المكر في قلوبهم وعودوا الكذب ألسنتهم.
وإني أقسم بجلالي وعزّي لأهيجن عليهم أجيالاً لا يفقهون ألسنتهم.
ولا يعرفون وجوههم ولا يرحمون بكاءهم.
ولأبعثن فيهم ملكاً جباراً قاسياً.
له عساكرٌ كقطع السحاب ومواكبٌ كأمثال الفجاج.
كأن خفّقان رايّاتِه طيران النسور.
وكأن حمل فرسانِه كُرّ العقبان والطيور.
يُعيدون العُمرانَ خراباً ويتركون القرى وحشةً.
فيا ويل إيليا وسكانها كيف أذلّهم للقتل.
وأسلّط عليهم السيّ وأعيد أعراسهم عويلاً وصراخاً.
وبعد صهيل الخيل عواء الذئاب.
وبعد شرفات القصور مساكن السباع.
وبعد ضوء الشُّرج وهج العجاج.
وبالعز ذلاً وبالنعمة عبودية.
وأبدلن نساءهم بعد الطيب التراب.
ولأدوسنهم بألوان العذاب.
وإن دعوني لم أجبهم وإن سألوا لم أعطهم.

وإن بكوا لم أرحمهم وإن تضرعوا صرفت وجهي عنهم.
ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد تحقق وعدُّ الله وحلَّ قضاؤه ببني إسرائيل.
 فحين عظمتِ الأحداثُ فيهم وعملوا بالمعاصي.
 وقتلوا الأنبياءَ واستحلُّوا المحارم.
 طمِعَ مَلِكُ بابلِ بِجُتُنُصَّرَ الجبارِ فيهم.
 وقذفَ اللهُ في قلبه فحدَّثَ نفسه بالسَّيرِ إليهم.
 لما أراد اللهُ أن يَنتقمَ به منهم.
 فأوحى اللهُ إلى نبيهم إني مُهلكُ بني إسرائيلِ ومنتقمُ منهم.
 فقم على صخرة بيت المقدس يأتِكَ أمرِي ووحْيِي.
 فقام النبي وبلَّغَ بني إسرائيلَ أنَّ هلاكهم على أيدي عبدة النيران.
 فلما بلَّغهم نبيُّهم رسالةَ ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد.
 عصَّوه وكذبوه واتَّهموه.
 ثم أخذوه وقيدوه وسجنوه.
 فعند ذلك بعث اللهُ عليهم جُتُنُصَّرَ.
 فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم.
 ثم حاصروهم بجنوده طويلاً.
 فلما طال بهم الحصار نزلوا على حكمه ففتحو الأبواب.
 وسار جُتُنُصَّرَ وجنوده في الأزقة (فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ).
 وحكم فيهم بحكم الجاهلية وبطش الجبارين.
 فقتل منهم الثلث وسبي الثلث.
 وترك الزماني وأصحاب العاهات والعجائز.
 ثم وطَّعهم بالخيل وهدم بيت المقدس وأخذ الأطفال.
 وأوقف النساء في الأسواق حاسراتٍ وقتل المقاتلة وخرب الحصون.
 وهدم المعابد وحرق التوراة.
 ودخل بيت المقدس واحتل الشام كلها.
 وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم.
 فلما فرغ منها انصرف راجعاً وحمل الأموال التي كانت بها.

وساق السبايا من النساء والأولاد بالآلاف.
وانطلق حتى قدم أرض بابل.
ومنذ ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل في البلاد.
فنزلت طائفة منهم الحجاز وطائفة يشرب وطائفة وادي القرى.
وطائفة أخرى بلاد مصر.

ثم كان من أنبياء بني إسرائيل نبي اسمه عزير .
أوحى الله تعالى إليه أني سأعمر بيت المقدس .
فأخرج إليها فانزلها فخرج حتى قدمها وهي خراب .
فقال في نفسه: كيف يحييها الله بعد موتها؟
ثم وضع رأسه فنام ومعه حمأه وسللة من طعام .
فمكث في نومه مائة سنة وكان من شأنه ما قصه الله علينا:
(أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا
قَالَ أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا
فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ
قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ
فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ
وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ
وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).
وخلال نوم عزير الطويل هلك بختنصر .
وقام بعده على الملك ولده .
فبلغه عن بلاد الشام أنها خراب وأن السباع قد كثرت فيها .
فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل .
أن من شاء أن يرجع إلى الشام فليرجع .
وملك عليهم رجلاً من آل داود .
وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبنى مسجدها .
فرجعوا فعمروها .
ثم بعث الله عزيراً وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة .
وعهده بالمدينة خراباً .
فلما نظر إليها عامرة أهله قال أعلم أن الله على كل شيء قدير .
فأقام بنو إسرائيل بها ورد الله عليهم أمرهم .

فمكثوا كذلك حتى غلبت عليهم الروم قبل بعثة المسيح.
ثم لم يكن لهم جماعة ولا سلطان بعد ظهور النصارى عليهم.
وكان عُزَيْر نبياً من أنبياء بني إسرائيل.
فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى.
وأنه لما لم يبق في بني إسرائيل من يحفظ التوراة ألهمه الله حفظها.
فسردها على بني إسرائيل فعظّموه وغالوا فيه.
وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ.
كما قالت النصارى بعدهم الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ.
تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ولأنَّ الله يعلم القلبَ النقيَّ .
 ويسمع الصوتَ الخفيَّ .
 فإنَّ عبده زكريا .
 كان قد كبرَتْ سنُّه .
 ووهنَ عظمُه .
 ولم يُرزقْ بولد .
 فقام من الليل فنَادَى رَبَّهُ .
 مناداهُ أسْرَهَا عَمَّنْ كان حاضراً عنده .
 وكان الباعثُ له على هذه المسألة .
 أنه لما كفلَ مريمَ ابنةَ عمرانَ أمَّ المسيح .
 وكان كلما دخلَ عليها محرَّجاً .
 وجدَ عندها فاكهةً في غيرِ أوانها .
 فعلمَ أن الرازقَ للشيءِ في غيرِ أوانه .
 قادرٌ على أن يرزقه ولداً .
 وإن كان قد طعنَ في سنه .
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (كهيعص)

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا
 إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا
 قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا
 وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا
 وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا
 فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
 يَرِنُ مِنِّي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا
 يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى
 لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا

قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا
 وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا
 قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئُ
 وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَمَ تَكُ شَيْئًا
 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً
 قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا
 فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ
 فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا
 يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا
 وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا
 وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَمَ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا
 وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا).
 وقال تعالى:

(فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
 وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا
 قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّنِي لَكَ هَذَا
 قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
 هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ
 قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ
 فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ
 أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ
 وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ
 قَالَ رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ
 قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ
 قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً
 قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا
 وَادْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ).
 وقال تعالى:

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ
إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونََنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ).

والعبرة من قصة زكريا وابنه يحيى أنه لا ييأس أحد من فضل الله.
ولا يقنط من رحمته.

فقد كان زكريا متزوجاً بخالة مريم بنت عمران.

وهو من نسل هارون أخي موسى.

وكان نجاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها.

وكان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة.

وكان عيسى يلبس الصوف وكان يحيى يلبس الوبر.

ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم.

ولا عبْد ولا أمة ولا مأوى يأويان إليه.

فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني.

قال: لا تغضب.

قال لا أستطيع إلا أن أغضب.

قال لا تقنّ مالا.

قال أما هذه فعسى.

وقد أمر الله يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن.

وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن.

وكاد أن يبطئ في تبليغ الرسالة.

فقال له عيسى: إنك قد أمرت بخمس كلمات.

أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن.

فأما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن؟

فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يُخسف بي.

فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس.

حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف.

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن.

أمركم أن تعبدوا الله وألا تشركوا به شيئاً.

فإن مَثَل ذلك كَمَثَل من اشترى عبداً من خالص ماله.
بفضة أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غَلته إلى غير سيده.
فأيكم يسُرُّه أن يكون عبده كذلك؟
وأن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.
وأمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت.
فإذا صليتم فلا تلتفتوا.
وأمركم بالصيام فإن مَثَل ذلك كَمَثَل رجل معه صُرة من مسك في جماعة.
كلهم يجد ريح المسك.
وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.
وأمركم بالصدقة فإن مَثَل ذلك كَمَثَل رجل أسره العدو.
فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال:
هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟
فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.
وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً.
فإن مَثَل ذلك كَمَثَل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره.
فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه.
وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل.

وكان يحيى كثيرَ الابتعاد عن الناس.
وإنما يأنس إلى البراري ويأكل من الأشجار.
ويشرب ماء الأنهار ويقول: من أنعم منك يا يحيى؟
وفي يوم خرج أبواه في طلبه فوجداه عند بحيرة الأردن.
فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً.
بسبب ما هو فيه من العبادة والخوف من الله.
وقيل إن زكريا فقدَ ابنه يحيى ثلاثة أيام.
فخرج يلتمسه في البرية.
فإذا هو قد احتفر قبراً وأقام فيه يبكي على نفسه.
فقال: يا بُنيّ أنا أطلبك منذ ثلاثة أيام.
وأنت في قبر قد احتفرته قائماً تبكي فيه!
فقال يابِتِ ألسَتِ أنتِ أخبرتني أن بين الجنة والنار عقبةً.
لا تُقطع إلا بدموع البكّائين؟
فقال له: ابلِكِ يا بُنيّ فبكيا معاً.
وكان يحيى كثيرَ البكاء حتى أترَّ البكاء في خديه.

وكان يحيى خير أهل زمانه وأجملهم وأصبحهم وجهاً.
 كما قال الله تعالى عنه (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) لا يحتاج إلى النساء.
 فهوته زوجة ملك بني إسرائيل.
 فأرسلت إليه وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها.
 فأجمعت على قتل يحيى.
 وكان لهم عيدٌ يجتمعون إليه في كل عام.
 وكانت عادة الملك أن يعد ولا يخلف ولا يكذب.
 فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيعته.
 وكان بها معجباً.
 فلما شيعته قال الملك سليني فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك.
 قالت: أريد دم يحيى بن زكريا.
 قال لها: سليني غيره قالت: هو ذاك قال هو لك.
 فبعثت جلاوزتها إلى يحيى وهو في محرابه يصلي.
 فذبحوه في طشت وحملوا رأسه ودمه إليها.
 سلاماً على زكريا ويحيى في العالمين.

وكما اصطفى الله آدمَ ونوحاً وآلَ إبراهيمَ.
 اصطفى كذلك آلَ عمرانَ والدِ مريمَ البتولَ عليها السلام.
 وهو من سلالة داود عليه السلام.
 وكان عمران صاحبَ صلاة بني إسرائيل في زمانه.
 وكانت زوجته من العابدات.
 وكان زكريا نبيُّ ذلك الزمان زوجَ خالة مريم.
 وكانت أمُّ مريم لا تحبل.
 فرأت يوماً طائراً يُطعم فرخاً له فاشتتهت الولد.
 فنذرتُ لله إن حملتُ لتجعلن ولدَها حبيساً في خدمة بيت المقدس.
 فحاضت من فورها ثم حملتُ بمريم.
 ولما ولدتها كان من شأنها ما قصه الله علينا:
 (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ
 ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
 إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا
 فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى
 وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ
 فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا
 كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا
 قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ).
 ولما وضعتها وأتمت رضاعها خرجت بها إلى المسجد.
 فسلمتها للقائمين على أمر المسجد.
 ولأنها ابنة إمامهم وصاحبِ صلاتهم تنازعوا أيهم يكفلها.
 وكان زكريا نبيهم وزوجته خالتها والخالة بمنزلة الأم.
 فأراد أن يكفلها.

فتخاصموا في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم.
(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ).
فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها.
إذ كان أحقَّ بها شرعاً وقدرأً.
واتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواه.
فكانت تعبدُ الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سِدانة البيت إذا جاءت نوبتها.
وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها حتى صارت يُضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل.
واشْتُهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة.
حتى أن نبيَّ الله زكريا كان كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً في غير أوانه.
فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.
فيسألها أتى لك هذا؟ فتقول هو من عند الله.

ثم إن الملائكة بشرت مريمَ باصطفاء الله لها على سائر النساء.
 بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب.
 وبُشرت بأن يكون نبياً شريفاً (وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ).
 ويكون معجزة لبني إسرائيل.
 يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.
 وأمروها بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع.
 لتكون أهلاً لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة.
 فكانت تقوم في الصلاة حتى تفتطرت قدماها رضي الله عنها.
 (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ
 وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ
 يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ
 ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ
 وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُتْلَى أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ
 وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ
 إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ
 اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
 وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ
 وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ
 قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
 إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
 وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ
 وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ
وَلَأَجَلٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ
وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

شاء الله ولادة عيسى وكان أمراً مقضياً.
فنفخ جبريل في مريم فحملت من فورها.
ولما ظهرت عليها علامات الحمل كان أول من فطن لذلك.
رجل من عبّاد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار.
وكان ابن خالها.

فجعل يتعجب من ذلك عجباً شديداً.
وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها.
وهو مع ذلك يراها حُبلى وليس لها زوج.
فعرّض لها ذات يوم في الكلام فقال:
يا مريم هل يكون زرعٌ من غير بذر؟
قالت: نعم فمن خلق الزرع الأول؟
ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟
قالت: نعم فمن خلق الشجر الأول؟
ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟
قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى.
قال لها: فأخبريني خبرك.

فقالت إن الله بشرني بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم.

(فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا
فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ
قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا
فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا
وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا
فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا
فَأِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا
فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنسِيًّا
فَأْتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا
يَا أُخْتِ هَازُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا
قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا
وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَمَنْ يَجْعَلِنِي جَبَّارًا شَقِيًّا
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا
ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ
مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ
فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

وكان عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابني خالة.
وكان حملهما معاً.

وقيل إن أم يحيى قالت لمريم:

إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك.

وأن مريم قالت: كنتُ إذا خلوتُ حدّثني وكلمني.

وإذا كنتُ بين الناس سبح في بطني.

وقد وُلد بقرية يقال لها بيت لحم.

على أميال من بيت المقدس.

(ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ

إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

(ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ

ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ).

واختلف الناس في عيسى ابن مريم.
 فقال اليهود إنه ابن زنى واستمروا على كفرهم وعنادهم.
 وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا هو الله وقال آخرون هو ابن الله.
 تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.
 وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وابن أمته.
 وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.
 وقد جعل الله الإيمان ببشرية عيسى من أسباب دخول الجنة.
 فمن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
 وأن محمداً عبده ورسوله.
 وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.
 والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.
 أما من غالى فيه وجاوز الحد.
 وقال فيه بغير الحق.
 فقد كبرت كلمة تخرج من أفواههم.
 إن يقولون إلا كذباً.
 (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا
 لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا
 تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا
 أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا
 وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا
 إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا
 لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا
 وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا).
 إذ لا ينبغي لله ولد.
 لأنه خالق كل شيء ومالكه.
 وكل شيء فقير إليه خاضع ذليل لديه.
 وجميع سكان السموات والأرض عبيده.

وهو ربه لا إله إلا هو ولا رب سواه.
 (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ
 وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ
 بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ يُكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ
 وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
 ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ
 وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ
 لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ
 قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا
 وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ).

فكيف لخالق كل شيء أن يكون له ولد؟
 والولد لا يكون إلا بين شيئين متناسبين.

والله تعالى لا نظير له ولا شبيه له ولا عدل.
 ولا صاحبة له فلا يكون له ولد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ
 لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ).

فالله أحد لا شبيه له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ
 إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ
 وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً
 انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ
 سُبحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا
 لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
 وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا
 فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
 وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا
 وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا).

لذا سمي عيسى ابن مريم لأنه من غير أب مثل أبيه آدم:

(ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ
إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ
فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ
ثُمَّ تَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ
إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ).
وإن النصارى قلدوا اليهود في كفرهم.

وفي قولهم على الله غير الحق:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ
ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ

اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ
وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ
وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

ثم حكم الله عليهم بهذا الحكم الدامغ إلى يوم القيامة:

(لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ
وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ
قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ

بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
 وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ
 يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ
 أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ
 فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).
 وخاطب الله كل من له عقل بأن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام.
 فكيف يكون إلهاً من يحمل بين جنبيه المخلفات والفضلات!
 (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ
 وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ
 انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ).
 ثم هذا عيسى سوف يسأله الله يوم القيامة وهو أعلم به:
 (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
 أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إلهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ
 قَالَ سُبحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ
 إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ
 تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ
 مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ
 وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ
 فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
 إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِن تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وُلد عيسى ببيت لحم قريباً من بيت المقدس.
 فلما ولد خَرَّت الأَصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها.
 وحارت الشياطين في سبب ذلك.
 حتى كشف لهم إبليس أمر عيسى.
 فوجدوه في حجر أمه والملائكة مُحَدِّقَة به.
 وأنه ظهر نجم عظيم في السماء.
 وأن ملك الفرس أشفق من ظهور هذا النجم.
 فسأل الكهنة عن ذلك؟
 فقالوا هذا المولود عظيم في الأرض.
 فبعث رسله ومعهم ذهب ومُرّ وليان هديةً إلى أم عيسى.
 فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم.
 فذكروا له ذلك.
 فسأل عن ذلك الوقت.
 فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس.
 واشتهر أمره بسبب كلامه في المههد.
 فأرسلهم إليه بما معهم.
 وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه.
 فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا.
 قيل لها إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك.
 فاحتملته فذهبت به إلى مصر فأقامت به.
 حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة.
 وظهرت عليه كرامات ومعجزات في صغره.
 منها أن التاجر الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره.
 وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمخاويج.
 فلم يعلم من أخذه.
 وعز ذلك على مريم عليها السلام.

وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعيانهم ذلك.
فلما رأى عيسى ذلك عمد إلى رجل أعمى.
وآخر مُقعد كانا متلازمين.
فقال للأعمى: احمل هذا المقعد وانفض به.
فقال: إني لا أستطيع ذلك.
فقال بلى كما فعلت أنت وهو حين أخذتما المال من الكوة في الدار.
فلما قال ذلك صدّقه فيما قال وأتيا بالمال.
فعظّم عيسى في أعين الناس وهو صغير.
وعرضوا عليه وعلى أمه مالا جزيلاً.
فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس.

وبعد الكلام الذي تكلم به عيسى وهو طفل.
 فمجد الله تمجيداً لم تسمع الأذان بمثله.
 أمسك عيسى ابنُ مريم عن الكلام.
 بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان.
 ثم أنطقه الله بعد ذلك بالحكمة والبيان.
 فأكثر اليهودُ فيه وفي أمّه من القول.
 وكانوا يسمونه ابن البغيّ.

(وَيَكْفُرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا).
 فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمّه في الكتاب.
 فجعل لا يعلمه المعلمُ شيئاً إلا سبقه إليه.
 فعلمه يوماً مسألةً فقال عيسى: ما كذا؟
 فقال المعلم: لا أدري.

فقال عيسى: كيف تعلمني ما لا تدري؟
 فقال المعلم: إذن فعلمي أنت.
 فقال له عيسى: فقم من مجلسك.
 فقام فجلس عيسى مجلسه فقال سلني.
 فقال المعلم ما كذا؟
 فأخبره عيسى.

فعجب المعلم من ذلك.
 وكان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان.
 فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟
 فيقول نعم فيقول: خبأت لك كذا وكذا.
 فيذهب الغلام إلى أمه فيقول لها أطعميني ما خبأت لي.
 فتقول وأي شيء خبأت لك؟ فيقول كذا وكذا.
 فتقول له: من أخبرك؟ فيقول عيسى ابنُ مريم.
 فقالوا والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدَهم.
 فحبسواهم عنه.

وكان عيسى يرى العجائب في صباه إلهاماً من الله.
ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى.
فتهاست به بنو إسرائيل.
فخافت أمه عليه.
فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر.
ثم إن عيسى لما بلغ اثنتي عشرة سنة.
أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا.
فقدم عليهما يوسف ابن خال أمه.
فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى إيليا.
وأقام بهما حتى أنزل الله عليه الإنجيل وعلمه التوراة.
وأعطاه إحياء الموتى وإبراء السقام.
والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم.
وتحدث الناس بقدمه وفرعوا لما كان يأتي من العجائب.
فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره.

ثم إنَّ عيسى وهو ابن ثلاثين سنة أنزل الله عليه الإنجيل.
 ومكث حتى رُفِعَ إلى السماء وهو ابن ثلاثٍ وثلاثين سنة.
 وقيل إن عيسى ابن مريم لقي إبليس.
 فقال: أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كُتِبَ لك؟
 قال إبليس: فارتق بذروة هذا الجبل فتردَّ منه فانظر هل تعيش أم لا.
 فقال عيسى أما علمت أن الله قال:
 لا يجربني عبدي فأني أفعل ما شئت.
 وإنَّ العبد لا يتبلي ربَّه ولكنَّ الله يتبلي عبده.
 وعصم الله عيسى وأمه من إبليس.
 وأيده بجبريل.
 (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ.
 إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا.
 وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ.
 وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي.
 وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي
 وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي
 وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ
 فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ).

ولما بُعث عيسى ابن مريم إلى بني إسرائيل وجاءهم بالبينات.
 جعل المنافقون والكافرون منهم يعجبون منه ويستهزئون به.
 فيقولون ما أكل فلان البارحة؟ وما ادخر في منزله؟ فيخبرهم.
 فيزداد المؤمنون إيماناً والكافرون والمنافقون شكاً وكفراناً.
 وكان عيسى مع ذلك ليس له منزل يأوي إليه.
 إنما يسبح في الأرض ليس له قرار.
 ولا مكان يُعرف به.
 وكان أول ما أحيا من الموتى.
 أنه مر ذات يوم على امرأة قاعده عند قبر وهي تبكي.
 فقال لها مالك أيتها المرأة؟
 فقالت: ماتت ابنة لي لم يكن لي ولد غيرها.
 وإني عاهدت ربي ألا أبرح من موضعي هذا.
 حتى أذوق ما ذقت من الموت أو يحييها الله لي.
 فقال لها عيسى أرايت إن نظرت إليها أراجعة أنت؟
 قالت: نعم.
 فصلّى عيسى ثم جاء فجلس عند القبر.
 فنادى يا فلانة قومي بإذن الرحمن فاخرجي.
 فخرجت وهي تنفض رأسها من التراب.
 ثم أقبلت على أمها فقالت يا أماه:
 اصبري واحتسي.
 فبلغ ذلك اليهود فازدادوا عليه غضباً.
 (وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي
 وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ).

ثم كان من جملة نعم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم.
أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه.

ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي.

قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ).

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخَيِّي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ

وَلَأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ

قَالَ الْخَوَارِجِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ).

وكانت معجزة كل نبي في زمانه بما يناسب أهل ذلك الزمان.

فكما أن موسى كانت معجزته مما يناسب أهل زمانه.

وكانوا سحرة أذكىء فكانت معجزته في العصا والحية.

فهكذا عيسى ابن مريم بُعث في زمن الأطباء الحكماء.

فأرسل بمعجزات لا يستطيعونها ولا يهتدون إليها.

وكيف لطبيب إبراء الأكمه الذي هو أسوأ حالاً من الأعمى.

والأبرص والمجنون ومن به مرض مزمن.

وكيف يتوصل أحد من الخلق إلى أن يقيم الميت من قبره؟

ثم إن اليهود لما أقام عيسى عليهم الحجج والبراهين.
أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بالمزيد.
فجاء بها وطالبهم بطاعته فيما يأمرهم به عن ربه.
وإقرارهم لله بالعبودية فظهر كفرهم وأعلنوه.
فخافهم واختمهم عنهم.
وبعد أن صار أمره مشهوراً قصدوا قتله وسعوا فيه.
مع أنهم كانوا يعلمون أنه المسيح المبشّر به في التوراة.
وأنه ينسخ دينهم فكانوا أول الطاعنين فيه.
فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله؟
فما استجاب له إلا الحواريون.

ثم إن عيسى أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً.
 فلما أتموها سألو عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم.
 ليأكلوا منها وتطمئن بها قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم.
 وتكون لهم عيداً يُفطرون عليها يوم فطرهم.
 فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها.
 فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل.
 فقام إلى مصلاه وتضرع إلى الله:
 فأنزل الله تعالى المائدة من السماء.
 والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين:
 (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
 هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
 قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
 قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
 وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ
 قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
 تَكُونُ لَنَا عَيْدًا لِأَوْلَانَا وَأَخْرِنَا وَأَيَّةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ
 قَالَ اللَّهُ إِلَيَّ مُنْرَهُمَا عَلَيْكُمْ
 فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ).

و ذات يوم افتقد الحواريون نبيهم عيسى .
 ف قيل لهم إنه توجه نحو البحر .
 فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء .
 يرفعه الموج مرةً ويضعه أخرى حتى انتهى إليهم .
 فقال له أحدهم ألا أجيء إليك يا نبي الله؟
 قال: بلى .
 فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى .
 فقال: أوه غرقتُ يا نبي الله .
 فقال: أرني يدك يا قصير الإيمان .
 لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة لمشي على الماء .
 وسئل عيسى بأي شيء تمشي على الماء؟
 قال: بالإيمان واليقين .
 وكان عيسى إذا دُكرت عنده الساعة صاح .
 ويقول: لا ينبغي لابن مريم أن تُذكر عنده الساعة ويسكت .
 وبينما عيسى يوماً نائماً على حَجَرٍ قد توسده وقد وجد لذة النوم .
 إذ مر به إبليس فقال: يا عيسى ألسنتَ تزعم أنك لا تريد شيئاً من عَرْض الدنيا؟
 فهذا الحَجَر من عَرْض الدنيا .
 فقام عيسى فأخذ الحَجَر ورمى به إليه وقال: هذا لك مع الدنيا .
 وخرج عيسى على أصحابه وعليه جُبة صوف .
 مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش .
 فقال: السلام عليكم يا بني إسرائيل أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها .
 وقال عيسى للحواريين: كما ترك لكم الملوكة الحكمة .
 فكذلك فاتركوا لهم الدنيا .
 وقال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح .
 واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين .
 فإن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة .

وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة.
وكان عيسى يقول: اعبروا الدنيا ولا تعمروها.
وكان يقول: كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر داراً.
فلا يتخذ الدنيا قراراً.
وقال: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر:
كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله.
وقالت امرأة لعيسى: طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك.
فقال: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه.
وقال: طوبى لعين نامت ولم تحدّث نفسها بالمعصية.
وقال: يا معشر الحواريين ارضوا بدين الدنيا مع سلامة الدين.
كما رضي أهل الدنيا بدين الدين مع سلامة الدنيا.
وقال عيسى: تعجبت من ثلاث أناس:
طالب الدنيا والموت يطلبه وباني القصور والقبر منزله.
ومن يضحك ملء فمه والنار أمامه!
ووقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يُدلى فيه.
فجعلوا يذكرون القبر وضيقة.
فقال: قد كنتم فيما هو أضيق منه.
في أرحام أمهاتكم فإذا أحب الله أن يوسّع وسّع.

ولما علم عيسى أنه آخر أنبياء بني إسرائيل.
 قام فيهم خطيباً فبشّرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده.
 ونوّه باسمه وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه.
 إقامة للحجة عليهم وإحساناً من الله إليهم:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
 الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَجُلُّ هُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ
 وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ
 فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
 وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
 قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
 الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
 فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ
 الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ
 وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ).

ثم قام عيسى في بني إسرائيل خطيباً.

فأخبرهم أن النبوة قد انقطعت عنهم.

وأنها بعده في النبي العربي الأمي خاتم الأنبياء أحمد صلى الله عليه وسلم.

ولما ضاق اليهود بعیسی .
 وقرروا التخلص منه .
 وشوا به إلى ملك ذلك الزمان .
 وكان الرومان إذا أرادوا قتل أحد صلبوه .
 فأنقذه الله منهم .
 ورفعہ إليه من بین أظهرهم .
 وألقى شبّهه على أحد أصحابه .
 فأخذوه فصلبوه وهم يعتقدون أنه المسيح .
 وهم في ذلك مخطئون ولحق كارهون .
 (وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) .
 (فَبِمَا نَقُضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ .
 وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ .
 بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا
 وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا
 وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ .
 وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ .
 وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ .
 وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا
 بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
 وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ .
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) .
 (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلْبَ وَارْفَعْكَ إِلَيَّ .
 وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا .
 وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .
 ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ
 فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَدُّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
 وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ.
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ
 ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ
 إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ.
 ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُحْتَرَبِينَ
 فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ
 فَتَلَّ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ
 ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ
 إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ
 وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ).
 (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ
 وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ
 فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ
 وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
 يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).
 (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ
 كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ
 قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ
 فَأَمَنَت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ
 فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ).

رفع الله عبده عيسى إلى السماء.
 وخلصه من اليهود والرومان.
 وكانوا حينما قرروا قتله وصلبه.
 حصروه في دار في القدس.
 وذلك عشية الجمعة ليلة السبت.
 فلما دخلوا عليه وهو بين الحواريين.
 ألقى الله شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده.
 ورفع عيسى من فتحة في سقف ذلك البيت إلى السماء.
 وأهل البيت ينظرون.
 ودخلت الشرطة فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقى عليه شبهه.
 فأخذوه ظانين أنه عيسى.
 فضلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانةً له.
 وترك عيسى من الحواريين اثني عشر رجلاً.
 وكان عيسى حين أعلمه الله أنه خارج من الدنيا.
 فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً.
 فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة.
 فلما اجتمعوا إليه من الليل عشائهم وقام يخدمهم.
 لما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده.
 ويمسح أيديهم بثيابه فتعاضموا ذلك وتكارهوه.
 حتى إذا فرغ من ذلك قال:
 أما ما صنعتُ بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام.
 فليكن لكم بي أسوة.
 ولا يتعظّم بعضكم على بعض.
 وليبدل بعضكم لبعض نفسه كما بدلت نفسي لكم.
 ولما أخذوا شبيهه الذي وُشئ به.
 أوثقوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون:

أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرئ المجنون.
أفلا تنجّي نفسك من هذا الحبل؟
ويصقون عليه ويُلْقون عليه الشوك.
حتى أتوا به إلى الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها.
وصلبوا الشبية على الصليب.
ورُفِعَ المسيحُ إلى السماء معزراً كريماً.
وبقي المصلوبُ على الصليب ثم أنزلوه ودفنوه.
وبعد دخول الرومان في النصرانية.
بنوا على قبر المصلوب كنيسةً عظيمة.
وأسموها كنيسة القيامة.
تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم إن عيسى عليه السلام قبل أن يُرفع.
أوصى الحواريين بأن يدعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له.
وعيّن كل واحد منهم إلى طائفة من الناس في إقليم من الأقاليم.
من الشام والمشرق وبلاد المغرب.
فأصبح كل إنسان منهم يتكلم بلغة الذين أرسل إليهم.
ونقل الإنجيل عنه أربعة: لوقا ومتى ومرقس ويوحنا.
وبين هذه الأناجيل الأربعة تفاوت كبير.
وزيادات كثيرة ونقص من واحدة إلى الأخرى.
وهؤلاء الأربعة منهم اثنان ممن أدرك المسيح ورآه وهما متى ويوحنا.
ومنهم اثنان من أصحاب أصحابه وهما مرقس ولوقا.
وقد اختلف أتباع عيسى فيه بعد رفعه.
فقال بعضهم: كان فينا عبدُ الله ورسوله فُزِعَ إلى السماء.
وقال آخرون هو الله.
وقال آخرون هو ابن الله:
(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ)
فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ).
وكما اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل.
كذلك زاد اختلافهم بعد المسيح بثلاثمائة سنة.
حيث حدثت الطامة العظمى والبليّة الكبرى.
فقد اختلف البطارقة الأربعة وجميع الأساقفة.
والقساوسة والشمامسة والرهبان في المسيح.
على أقوال متعددة لا حصر لها.
فاجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين.

وفي مجّمع نيقية الأول.
 حضر ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً.
 وتم اختيار ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً متفقين.
 فوضعوا شرائع النصرانية وكان رئيس هذا المجمع بطرق الإسكندرية.
 وحضر الاجتماع البطارقة الثلاثة الآخرون:
 بطرك أنطاكية - بطرك روما - بطرك القسطنطينية.
 واتفقوا على قولهم:
 (نؤمن بالله الواحد الآب مالك كل شيء.
 وصانع ما يُرى وما لا يُرى
 وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد.
 بكر الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها.
 وليس بمصنوع إله حق من إله حق.
 من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم.
 وخلق كل شيء من أجلنا ومن أجل خلاصنا.
 نزل من السماء وتجدد من روح القدس وصار إنساناً.
 وحُبل به وولد من مريم البتول.
 وقُتل وصلب أيام بيلاطوس ودُفن.
 ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء.
 وجلس عن يمين أبيه.
 وهو مستعد للمجيء تارة أخرى بين الأموات والأحياء.
 ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من أبيه.
 وبعمودية واحدة لغفران الخطايا.
 وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية.
 وبقيام أبداننا وبالحياة الدائمة أبد الأبدين).
 فصدّق قسطنطين قول أكثر فرقة اتفقت.
 فسمّوا الملكية.
 وأنكر من عداهم وأبعدهم.

وتفردت فرقة تابعة لعبدالله بن إديوس.
قالت إن عيسى عبداً من عباد الله ورسولاً من رسله.
فسكنوا البراري والبوادي وبنوا الصوامع والأديرة.
وقنعوا بالعيش الزهيد ولم يخالطوا أولئك الملل والنحل.
وبنت الملكية الكنائس الهائلة على الطراز اليوناني.
وبنى الملك قسطنطين كنيسة بيت لحم مكان ولادة المسيح.
وبنت أمه هيلانة كنيسة القيامة على قبر المصلوب.
وقد كفروا ووضعوا قوانين وأحكام من عندهم.
مخالفةً للتوراة وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة.
ومن ذلك الخنزير والصلاة إلى الشرق.
ولم يكن المسيح صلّى إلا إلى صخرة بيت المقدس.
وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى.
وصوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك.
ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم التي يسمونها بالأمانة.
وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة.
وأخرجوا الخشبة التي زعموا أن المسيح صُلب عليها.
وجعلوا ذلك اليوم عيداً يُسمى عيد الصليب.
سلاماً على عيسى يوم وُلد ويوم يموت.
ويوم يُبعث حياً.

وفي زمن قديم قبل عيسى عليه السلام.
 عاش ملك عادل اسمه ذو القرنين.
 جمع بين الملك والنبوة.
 (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا
 إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا
 فَأَتْبَعَ سَبَبًا
 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
 وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا
 قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا
 قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا
 وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ
 وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا
 ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا
 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ
 لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا
 كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا
 ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا
 حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ
 وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا
 قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوحَ وَمَأْجُوحَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ
 فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا
 قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ
 فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا
 آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا
 حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
 فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا
ذكر الله تعالى ذا القرنين وأثنى عليه بالعدل.
وأنه بلغ المشارق والمغارب.
وملك الأقاليم وحكم أهلها.
وسار فيهم بالعدل التام والسلطان المؤيد.
واختلفوا في السبب الذي سُمِّي به ذا القرنين.
ف قيل لأنه ملك فارس والروم.
وقيل لأنه بلغ قرني الشمس غرباً وشرقاً.
وقيل لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها.
وليس هو ذا القرنين باني الإسكندرية.
فإن الأول كان عبداً مؤمناً وملكاً عادلاً.
وأما الثاني فكان مشركاً وبينهما عصور طويلة.

وفي زمن قديم قبل عيسى عليه السلام.
 كان مجموعة من الشباب المؤمنين.
 وقومهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام.
 وكان هؤلاء الفتيان من أبناء الملوك وأبناء الأكابر.
 وفي يوم عيد لقومهم رأوا ما يفعلونه من السجود للأصنام .
 فأنكروا ما رأوه واتفقوا على اجتنابهم والتبرؤ منهم.
 والخروج من بينهم والفرار بدينهم.
 ولجأوا إلى الكهف فكان من أمرهم ما قص الله علينا:
 (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا
 إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً
 وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا
 فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا
 ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا
 نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ
 إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاَهُمْ هُدًى
 وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا
 هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ
 فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 وَإِذِ اعْتزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ
 فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
 وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَعًا
 وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ
 وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ
 ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ
 مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا

وَتَحْسَبُهُمْ آيِقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ
 وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ
 لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا
 وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ
 قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ
 قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ
 فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ
 فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ
 وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا
 إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
 أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا
 وَكَذَلِكَ أَعَزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
 وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ
 فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ
 قَالَ الَّذِينَ عَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا
 سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
 وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ
 وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ
 قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ
 فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَنَفِتْ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا
 وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَيْءٍ إِيَّيَّ فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ
 وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا
 وَلَبِئُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا
 قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ
 مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا).
 وكان في قصتهم عبر عظيمة.

منها أن من يجد الله في قلبه صدق الإيمان يربط على قلبه.

ويثبتُه ويحمِه .
ويُجِر الخوارقَ من أجله .
ومنها أن الخلاف في تفاصيل ما لم يرد فيه نص .
مثل كم كان عدد هؤلاء الفتية؟
فإنه لا طائل تحته ولا جدوى منه .
بل الأولى رُدُّ ذلك إلى الله .
(قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ) .
ولو كان في تعيين عددهم فائدة لذكرها الله .
ومنها أدب عظيم إذا قال أحدهم إني سأفعل في المستقبل كذا .
أن يقول: إن شاء الله لأن علمه ناقص .
ولا يدري أيكون ما عزم عليه أم لا .
(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ) .
وبذلك يرتاح قلبه إلى النتيجة مهما كانت .

وفي زمن قدس قبل عيسى عليه السلام.
 عاش رجلان صديقان.
 وكان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً.
 وكان لكل منهما مال.
 فأنفق المؤمن ماله في طاعة الله.
 وأما الكافر فقد اتخذ له بساتين من كل الثمار.
 وافتخر بماله على صاحبه المؤمن.
 وهدفه أن يقول ماذا أغنى عنك إنفاقك في سبيل الله؟
 كان الأولى بك أن تفعل كما فعلت لتكون مثلي.
 وأنكر قيام الساعة والحساب في الآخرة.
 فكان عاقبتهما ما قص علينا القرآن الكريم:
 (وَاصْرِبْ لَهُم مِّثْلًا مِّثْلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ
 وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا
 كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا
 وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا
 وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
 أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا
 وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا
 وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً
 وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا
 قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ
 ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا
 لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا
 وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
 إِنَّ تَرَنُّنًا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا
 فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ

وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا
أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا
وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا
وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا
هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا).

وفي قصتهما عبر عظيمة وكثيرة.

منها أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا.

ولا يغتر ولا يثق بها.

بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نُصْبَ عينيه.

وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه.

وأن من قَدَمَ هوى نفسه على طاعة الله عومل بنقيض قصده.

وأن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق.

وأن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونَقَدَ أمرُ الله.

وفي زمن قديم قبل عيسى عليه السلام.
 عاش مجموعة من الإخوة.
 وقد ورثوا مزرعة كبيرة من أبيهم.
 وكان أبوهم صالحاً يتصدق منها كثيراً.
 فلما صار أمرها إليهم استهجنوا أمر أبيهم.
 وأرادوا استغلالها من غير أن يعطوا الفقراء شيئاً.
 فعاقبهم الله أشد العقوبة وجعلهم عبرة لكل جاحد نعمة الله.
 ولكل منكر حق الفقير والمسكين:
 (إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ
 إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ
 وَلَا يَسْتَشْنُونَ
 فطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ
 فَأَصْبَحَت كَالصَّرِيمِ
 فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ
 أَنِ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ
 أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينًا
 وَغَدُوا عَلَيَّ حَرْدٍ قَادِرِينَ
 فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ
 بَل لَّحَنُ مَحْرُومُونَ
 قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ
 قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ
 فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ
 قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ
 عَسَى رَبُّنَا أَن يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ
 كَذَلِكَ الْعَذَابُ
 وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).

وفي زمن قديم قبل عيسى عليه السلام.
 في مدينة ساحلية اسمها أيلة.
 تقع بين مدينين والطور.
 كان أهلها متمسكين بالتوراة في تحريم السبت.
 وكانت الأسماك قد ألفت منهم السكينة في مثل هذا اليوم.
 لأنه كان يحرم عليهم الاصطياد فيه وجميع الأعمال.
 فكانت الأسماك يوم السبت تكثر على الشاطئ.
 فتأتي ظاهرة آمنة مسترسلة.
 فلا يهيجونها ولا يذعرونها.
 ولا تظهر فيما عدا السبت.
 لأنهم كانوا يزعمونها بالصيد.
 وذلك اختباراً لهم من الله.
 بسبب الفسق الذي كان من بعضهم.
 فلما رأوا ذلك احتالوا على اصطيادها في يوم السبت.
 بأن نصبوا الجبال والشبّاك والشصوص.
 وحفروا الحفر التي يجري معها الماء.
 إلى مواضع قد أعدوها إذا دخلها السمك لا يستطيع أن يخرج منها.
 ففعلوا ذلك في يوم الجمعة.
 فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت علقّت بهذه المصايد.
 فإذا انقضى السبت أخذوها.
 فغضب الله عليهم ولعنهم لما احتالوا على مخالفة أمره.
 وانتهكوا محارمه بالحيل.
 فعل ذلك طائفة منهم.
 وطائفة رفضوا وأنكروا عليهم.
 وطائفة ثالثة لم يفعلوا ولم ينكروا.
 بل أنكروا على الطائفة الثانية الذين نَهوا.

وقالوا: (لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ
أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا)
فردوا عليهم: (مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ).
أي نقوم بواجب ما أمرنا به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
(وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) فيتركون ما هم عليه من هذا الصنيع.
(فلما نسوا ما ذكروا به) ولم يلتفتوا إلى من نهاهم.
(أنجينا الذين ينهون عن السوء).
وهم الفرقة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر.
(وأخذنا الذين ظلموا) وهم المرتكبون الفاحشة.
(بعذاب بئيس) شديد مؤلم (بما كانوا يفسقون).
(وَإِسَاءَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ
إِذْ يَغْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا
وَيَوْمَ لَا يَسْتَيْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ
أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ).

وفي زمن قديم قبل عيسى عليه السلام.
 عاش رجل صالح ذو عبادة وحكمة عظيمة.
 اسمه لقمان الحكيم.
 وكان عبداً نوبياً نجاراً.
 من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة.
 فجاءه رجل وهو في مجلس أناس يحدثهم.
 فقال له: ألسنت الذي كنت ترعى معي الغنم؟ قال: بلى.
 قال: فما بلغ بك ما أرى؟
 قال: صدق الحديث والصمتُ عما لا يعنيني.
 وكان قد تزوج وولد له أولادٌ فماتوا فلم يبك عليهم.
 وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر.
 وأثنى عليه القرآن وحكى من كلامه فيما وَعَظَ به وَلَدَهُ.
 إذ هو أحبُّ الخلق إليه وهو أشفقُ الناس عليه:
 (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ
 وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
 وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ
 إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ
 وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ
 أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ
 وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
 وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
 وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
 فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
 يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ
 فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ
 إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ
 وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ
 وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ
 إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ).
 وكان لقمان يقول لابنه: يا بُنَيَّ اتق الله.
 ولا تُرَي الناسَ أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر.
 ثم إن لقمان قال له سيِّده: اذبح لي شاة فذبح له شاة.
 فقال جئني بأطيب مُضغتين فيها فأتاه باللسان والقلب.
 وفي يوم آخر قال له اذبح لي شاة فذبح له شاة.
 فقال له: وألِّقِ أَحْبَبْهَا مُضغتين فرمى باللسان والقلب.
 فقال أمرتك أن تأتيني بأطيبها مُضغتين فأتيتني باللسان والقلب.
 وأمرتك أن تلقي أَحْبَبْهَا مُضغتين فألقيت اللسان والقلب.
 فقال له: إنه ليس شيء أطيب منهما إذا طابا.
 ولا أَحْبَبْتَ منهما إذا حَبَّبْتَا.
 ومن حكمة لقمان أنه قال لابنه:
 لا ترغب في ود الجاهل فيرى أنك ترضى عمله.
 ولا تتهاون بمقت الحكيم فيزهده فيك.
 وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ ما ندمتُ على السكوت قط.
 وإن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب.
 وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ اعتزل الشر يعتزلك فإن الشر للشر خُلِقَ.
 وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ إياك وشدة الغضب.
 فإن شدة الغضب ممحقة لفؤاد الحكيم.
 وقال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بُنَيَّ اخترِ المجالس على عينك.
 فإذا رأيت المجلس يُذكر فيه الله عز وجل فاجلس معهم.
 فإنك إن تك عالماً ينفغك علمك.
 وإن تك غيبياً يعلموك.

وإن يطلع الله عليهم برحمة تصيبك معهم.
وقال لقمان لابنه: يا بُني لا يأكلُ طعامك إلا الأتقياء.
وشاور في أمرك العلماء.

191

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
 في قرية من قرى اليمن هي بجران.
 عاش ملك وكان له ساحر.
 فلما كبر الساحر قال للملك إني قد كبرت سيّتي وحضرت أجلي.
 فادفع إليّ غلاماً لأعلمه السحر.
 فدفع إليه غلاماً فكان يعلمه السحر.
 وكان في الطريق بين قصر الملك وبيت الساحر راهب.
 فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه.
 وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال ما أخرك؟
 وإذا أتى أهله ضربه وقالوا: ما أخرك؟
 فشكا ذلك إلى الراهب فقال:
 إذا أراد الساحر أن يضربك فقل حبسني أهلي.
 وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل حبسني الساحر.
 فبينما هو ذات يوم إذ مر على حيوان فظيع عظيم.
 قد حبس الناس فلا يستطيعون المرور.
 فقال اليوم أعلم أمر الساحر أحب إلى الله أم أمر الراهب؟
 فأخذ حجراً فقال:
 اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر.
 فاقتل هذه الدابة حتى يمر الناس.
 ورمها فقتلها ومضى فأخبر الراهب بذلك.
 فقال: أيّ بُيِّ أنت اليوم أفضل مني.
 وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدلّ عليّ.
 فكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص ويشفيهم الله على يديه.
 وكان جليساً للملك قد عمي فسمع بالغلام فأتاه بهدايا كثيرة.
 فقال: اشفني ولك ما ههنا كله.
 فقال: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي الله عز وجل.
 فإن آمنت به ودعوت الله شفاك.

فآمن فدعا الله فشفاه.
ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس.
فقال له الملك: يا فلان من رد عليك بصرك؟
فقال: ربي قال: أنا؟ قال: لا ربي وربك الله.
قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم ربي وربك الله.
فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام فأُتي به.
فقال: أي بُيِّ بلغ من سحرك أن تُبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدوية؟
قال: أنا لا أشفي أحداً إنما يشفي ربي.
قال: أنا؟ قال: لا. قال: أولك رب غيري؟ قال ربي وربك الله.
فأخذه أيضاً بالعذاب ولم يزل به حتى دل على الراهب.
فأتى الراهب فقال: ارجع عن دينك فأبي.
فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه.
وقال للأعمى ارجع عن دينك فأبي.
فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه.
وقال للغلام ارجع عن دينك فأبي.
فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا.
وقال إذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فارموه من فوقه.
فذهبوا به فلما علوا الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت.
فرجف بهم الجبل فسقطوا أجمعون.
وجاء الغلام حتى دخل على الملك.
فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال كفانيهم الله.
فبعث به مع نفر في زورق.
فقال: إذا دخلتم البحر فإن رجع عن دينه وإلا فأغرقوه في البحر.
فدخلوا به البحر فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت.
فانكفأ بهم الزورق فغرقوا أجمعون.
وجاء الغلام حتى دخل على الملك.
فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال كفانيهم الله.
ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به.
فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتنني.

وإلا فإنك لا تستطيع قتلي.
 قال: وما هو؟
 قال تجمع الناس في مكان واحد.
 ثم تربطني على جذع وتأخذ سهماً من كيناتي.
 ثم تقول: بسم الله رب الغلام.
 فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.
 ففعل ووضع السهم في كبد القوس ثم رماه.
 وقال بسم الله رب الغلام فوق السهم في صدغه.
 فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات.
 فقال الناس: آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام.
 فقيل للملك: رأيت ما كنت تحذر فقد نزل بك.
 لقد آمن الناس كلهم.
 فأمر بأفواه السكك فحُفرت فيها الأحاديث وأضرمت فيها النيران.
 وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها.
 فكان المؤمنون يتدافعون فيها ويتوقعون.
 وجاءت امرأة بابتها ترضعه فكأنها تقاعست أن تقع في النار.
 فقال الصبي: اصبري يا أمه فإنك على الحق.
 ففي هؤلاء نزل قول الله تعالى:
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
 وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ
 وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
 قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ
 النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ
 إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ
 وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ
 وَمَا نَعْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ
 الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
 إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ

فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ).

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
كان في بني إسرائيل رجل عابد يقال له جريج.
فبنى لنفسه صومعة وتعبّد لله فيها.
فتذاكر بنو إسرائيل عبادة جريج إعجاباً بها.
فقالَت امرأةٌ بغيٌّ منهم لئن شئتُم لأفتنته.
فقالوا: قد شئنا ذلك.
فأتته فتعرضت له فلم يلتفت إليها.
فأمكنت نفسها من راعٍ كان يُؤوي غنمه قريباً من صومعة جريج.
فحملت فولدت غلاماً فقالوا ممن؟ قالت من جريج.
فأتوه فأنزلوه وشتموه وضربوه وهدموا صومعته.
فقال: ما شأنكم؟
قالوا أنت زينت بهذه البغي فولدت غلاماً.
فقال وأين هو؟ قالوا هو هذا.
فقام فصلّى ودعا ثم انصرف إلى الغلام.
فقال بالله يا غلام من أبوك؟
فقال أنا ابن الراعي.
فوثبوا إلى جريج فجعلوا يقبلونه وقالوا: نبي صومعتك من ذهب.
قال: لا حاجة لي في ذلك ابوها من طين كما كانت.
وبينما امرأةٌ في حجرها ابنٌ لها ترضعه.
إذ مر بها راكب ذو هيئة حسنة.
فقالَت: اللهم اجعل ابني مثل هذا؟ فترك ثديها وقال:
اللهم لا تجعلني مثله ثم عاد إلى ثديها فمصه.
ثم مرّت بامرأة تُضرب.
فقالَت: اللهم لا تجعل ابني مثلها.
فترك ثديها وقال اللهم اجعلني مثلها.
فتعجبت منه وقالت: مر الراكب ذو الهيئة الحسنة.

فقلتُ: اللهم اجعلِ ابني مثله.
فقلتُ: اللهم لا تجعلني مثله.
ومررتُ بهذه المرأة فقلتُ: اللهم لا تجعلِ ابني مثلها.
فقلتُ اللهم اجعني مثلها!
فقال يا أمّاه إن الراكب ذا الهيئة جبار من الجبابرة.
وهذه المرأة يقولون: زنت ولم تزن وهي تقول حسبي الله.
فهؤلاء ثلاثة أطفال تكلموا في المهد:
الطفلان السابقان وعيسى ابنُ مريم عليه السلام.

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
كانت امرأة ترعى الغنم.
وكان لها إخوة أربعة.
وكانت تأوي بالليل إلى جوار صومعة راهب.
فنزل الراهب ففجر بها فحملت.
فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها.
فإنك رجل تُصدِّق ويُسمع قولك.
فقتلها ثم دفنها فأتى الشيطانُ إخوتها في المنام فقال لهم:
إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم.
فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.
فلما أصبحوا قال رجل منهم:
والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصُّها عليكم أم أترك؟
قالوا: لا بل قصِّها علينا فقصها فقال الآخر:
وأنا والله لقد رأيت ذلك فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك.
قالوا فوالله إن هذا لحق.
فانطلقوا فشكوا ذلك إلى ملكهم على ذلك الراهب فأمر به فأنزلوه.
ثم انطلقوا به فأتاه الشيطان فقال:
إني أنا أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري.
فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه.
فسجد له فقال إبليس: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين.
(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ
فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ).
فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأمر بقتله.
(فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ).

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
 كان ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون.
 إذ أصابهم مطر فأووا إلى غار فانطبق عليهم.
 فقال بعضهم لبعض: إنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق.
 فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه.
 فقال واحد منهم: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجر.
 عمل لي مقابل أجره من زرع.
 فذهب وتركه.
 وإني عمدت إلى ذلك الزرع فزرعته.
 فصار من أمره أني اشتريت منه بقرًا.
 وأنه أتاني يطلب أجره.
 فقلت اذهب إلى هذه البقر فستأخذها.
 فقال لي إنما لي عندك أجر من زرع.
 فقلت له اعمد إلى تلك البقر فأخما من ذلك الأجر.
 فساقها فإن كنت تعلم أي فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا.
 فانزاحت عنهم الصخرة قليلاً.
 فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران.
 وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم لي.
 فأبطأتُ عنهما ليلة فجئت وقد رقدا.
 وأهلي وعيالي يكون من الجوع.
 وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبوي.
 فكهرت أن أوقفهما.
 فلم أزل أنتظرهما حتى استيقظا مع الفجر.
 فإن كنت تعلم أي فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا.
 فانزاحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء.
 فقال الآخر: اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لي ابنة عم.
 من أحب الناس إليّ وإني راودتها عن نفسها.

فأبَتْ إِلا أَنْ آتَيْهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ.
فَأْتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا فَأَمَكَّنْتَنِي مِنْ نَفْسِهَا.
فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا لَأَقْعَ بِهَا.
قَالَتْ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْضَحْ خَتَمَ الْإِبْحَقِ.
فَقَمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ.
فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا.
فَفَرِّجْ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا.

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
 كان ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأعمى وأقرع.
 بدا لله أن يبتليهم فبعث الله إليهم ملكاً.
 فأتى الأبرص فقال له: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟
 فقال لونه حسن وجلد حسن فقد قَدِرني الناس.
 فمسحه فذهب عنه فأعطني لوناً حسناً وجلداً حسناً.
 فقال: أيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال الإبل.
 فأعطني ناقة عُشراء وقال يبارك لك فيها.
 وأتى الأقرع فقال له: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟
 قال: شَعْرُ حسن ويذهب عني هذا فقد قَدِرني الناس.
 فمسحه فذهب عنه وأعطني شَعراً حسناً.
 قال: فأَيُّ المال أحبُّ إليك؟ قال: البقر.
 فأعطاه بقرة حاملاً وقال يُبارك لك فيها.
 وأتى الأعمى فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟
 قال: يرد الله إليّ بصري فأبصر به الناس.
 فمسحه فرد الله إليه بصره.
 قال: فأَيُّ المال أحبُّ إليك؟
 قال: الغنم فأعطاه شاة والداً.
 فأنتج هذان وولد هذا.
 فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم.
 ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته التي كان عليها.
 فقال: رجلٌ مسكين تقطعت بي الحبال في سفري.
 فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك.
 أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال.
 أن تعطيني بغيراً أتبلِّغ عليه في سفري.
 فقال له: اذهب فإن الحقوق كثيرة.
 فقال له كأني أعرفك.

ألم تكن أبرص يُغذرك الناس فقيراً فأعطاك الله؟
فقال: لقد ورثتُ هذا كائناً عن كائناً.
فقال إن كنتَ كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.
وأتى الأقرع في صورته وهيئته التي كان عليها.
فقال له مثل ما قال لهذا فرد عليه مثل ما رد عليه هذا.
فقال: إن كنتَ كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.
وأتى الأعمى في صورته فقال رجل مسكين وابن سبيل.
تقطع بي الحبال في سفري فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك.
أسألك بالذي رد عليك بصرك شاهة أتبلغ بها في سفري.
فقال قد كنتُ أعمى فرد الله إلي بصري.
وفقيراً فقد أغناني فخذ ما شئت.
فوالله لا أمنعك اليوم شيئاً أخذته.
فقال أمسك مالك فإنما ابتليتكم.
فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبك.

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
 كان رجلاً من بني إسرائيل.
 سأل بعض بني إسرائيل أن يُسلفه ألفَ دينار.
 فقال ائني بشهداء أشهدهم.
 قال: كفى بالله شهيداً.
 قال: ائني بكفيل.
 قال كفى بالله كفيلاً.
 قال: صدقتَ فدفعها إليه إلى أجلٍ مسمّى.
 فخرج في البحر فقضى حاجته.
 ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله.
 فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها.
 وأدخل فيها ألفَ دينار وصحيفةً معها إلى صاحبها.
 ثم أغلق الخشبة ثم أتى بها البحر.
 ثم قال: اللهم إنك قد علمتَ أني استسلفتُ فلاناً ألفَ دينار.
 فسألني كفيلاً فقلت كفى بالله كفيلاً فرضي بذلك.
 وسألني شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً فرضي بذلك.
 وإني قد اجتهدت أن أجد مركباً أبعث إليه بالذي أعطاني فلم أجد.
 وإني استودعْتُكها فرمى بها في البحر حتى وُلجت فيه.
 ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده.
 فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً يجيئه بماله.
 فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً.
 فلما كسرهما وجد المال والصحيفة.
 ثم قدم الرجل الذي كان تسلّف منه فاتاه بألف دينار.
 وقال والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركبٍ لآتيك بمالك.
 فما وجدتُ مركباً قبل الذي أتيتك فيه.
 قال هل كنت بعثت إليّ بشيء؟ قال: نعم.
 قال: فإن الله أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة فانصرف بألفك راشداً.

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
 اشترى رجلٌ من رجلٍ داراً له.
 فوجد الرجلُ الذي اشترى العقارَ في عقاره جرةً فيها ذهب.
 فقال له الذي اشترى العقارَ خذ ذهبك مني.
 إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أبتع منك الذهب.
 وقال الذي له الأرض إنما بعثك الأرض وما فيها.
 فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه:
 ألكما ولد؟ قال أحدهما لي غلام وقال الآخر لي بنت.
 قال أنكحوا الغلامَ الفتاة وأنفقوا عليهما منه وتصدّقاً.
 وكان في بني إسرائيل رجل قتل تسعةً وتسعين إنساناً.
 ثم خرج يسأل هل له توبة؟
 فأتى راهباً فسأله فقال هل من توبة؟ قال لا فقتله وأكمل به المائة.
 فجعل يسأل هل له توبة؟
 فقال له رجل: ومن يحول بينك وبين التوبة؟
 أت قرية كذا وكذا فإن فيها قوماً يعبدون الله فاعبد معهم.
 فأدركه الموتُ في الطريق بين القريتين.
 فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب.
 فأوحى الله إلى هذه أن تقرّبي وأوحى إلى هذه أن تباعدني.
 وقال قيسوا ما بينهما.
 فوجدوه إلى هذه أقرب بشير فغفر له.
 وبينما رجل يسوق بقرةً إذ ركبها فضرها.
 فقالت إنا لم نُخلق لهذا إنما خُلقنا للحرث.
 فقال الناس سبحان الله بقرة تتكلم!
 وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة.
 فلحقه حتى استنقذها منه.
 فقال له الذئب: استنقذتها مني فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري.
 فقال الناس سبحان الله ذئب يتكلم.

وبينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش.
إذ رآته بغياي بني إسرائيل فنزعت نعلها فسقته فعفر لها به.
وعذبت امرأة في هرة سجنها حتى ماتت.
فدخلت فيها النار فلا هي أطعمتها ولا سقتها إذ حبستها.
ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض.
وبينما رجل وامرأة له لا يقدران على شيء.
فجاء الرجل من سفره فدخل على امرأته جائعا قد أصابته مسغبة شديدة.
فقال لامرأته: عندك شيء؟
قالت: نعم أبشر أتاك رزق الله؟
وليس عندها شيء ولكن ثقة في الله.
ولما رأت ما لقي زوجها من التعب.
قامت إلى الرحي فوضعتها وإلى التنور فسجرتة ثم قالت:
اللهم ارزقنا فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا.
فقال الزوج: أصبتم شيئا؟
قالت امرأته: نعم رزق من ربنا.
فرفعت إليه الطعام.

وفي زمن قريب من عيسى عليه السلام.
بينما رجل في مملكته.
ففكر فعلم أن ذلك زائل عنه.
وأن ما هو فيه قد شغله عن عبادة ربه فخرج ذات ليلة من قصره.
وأصبح في مملكة غيره.
وأتى ساحل البحر فكان يخلط الماء والطين.
ويصنع الطوب فيأكل ويتصدق بالزيادة على الناس.
ولم يزل كذلك حتى وصل خبره إلى ملكهم.
فأرسل إليه فأبى أن يأتيه.
فركب إليه الملك فلما رآه ولّى هارباً فركض في أثره فلم يدركه.
فناداه: يا عبدالله إنه ليس عليك مني بأس.
فقام حتى أدركه فقال له: من أنت رحمك الله؟
فقال: أنا فلان بن فلان صاحب مملكة كذا وكذا.
ففكرت في أمري فعلمتُ أنّ ما أنا فيه زائل.
وأنه قد شغلني عن عبادة ربي فتركته وجمت ههنا أعبد ربي.
فقال له: ما أنت بأحوج لما صنعت مني.
فنزل عن دابته فسيبها وتبعه فكانا جميعاً يعبدان الله عز وجل.

ثم كان عيسى خاتم أنبياء بني إسرائيل.
 وكانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء.
 كلما مات نبي خلفه نبي.
 وأكثر الرسل كانوا في بني إسرائيل.
 (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض
 منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات
 وآتيناه عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس).
 (إننا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده
 وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط
 وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتيناه داود زبوراً
 ورسلنا قد فصلناهم عليك من قبل ورسلنا لم نقصصهم عليك
 وكلم الله موسى تكليماً
 رسلنا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل
 وكان الله عزيزاً حكيماً).
 والأنبياء جميعاً دينهم واحد وهو التوحيد.
 وشرائعهم مختلفة في الفروع والأحكام.
 (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً).
 (لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه).
 (ولكل وجهة هو موليها).
 وهذه الشرائع نسخ بعضها بعضاً.
 حتى انتهى الجميع إلى أصل الدين.
 وهو التوحيد بأن يُعبد الله وحده لا شريك له.
 (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا يُوحى إليه
 أنه لا إله إلا أنا فاعبدون).
 (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا
 أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعبدون).

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ).
 فالشرائع وإن تنوعت في أوقاتها.
 إلا أن الجميع تأمر بعبادة الله وحده لا شريك له.
 وهو دين الإسلام الذي شرعه الله لجميع الأنبياء.
 وهو الدين الذي لا يقبل الله غيره يوم القيامة:
 (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ).
 (وَمَن يَرْغَبْ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
 إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ
 وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ
 أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ
 تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ).
 (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَخُكُّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا).
 فالإسلام هو عبادة الله وحده لا شريك له.
 وهو الإخلاص له وحده دون سواه.
 وهو الدين الذي لا يقبل إلاه.

ثم أفل نجم بني إسرائيل.
 وبرز نجم بني إسماعيل.
 وتلك الأيام نداؤها بين الناس.
 وانتقلت الرسالة إلى العرب.
 وأصبحوا مكلفين بنقل الرسالة إلى العالمين.
 وستبقى فيهم إلى يوم الدين.
 وبدأت أخبارهم من القحطانيين.
 في جنوب الجزيرة العربية.
 وهم المعروفون باليمنيين.
 في قصة معروفة باسم سبأ.
 وهو جدُّهم الأكبر.
 واسمه سبأ بن يعرب بن قحطان.
 وكان أول من تتوَّج.
 وكان على دين التوحيد.
 وقد وُلد له عشرة أولاد.
 فسكن باليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة.
 وقد كان من اليمن بلقيس.
 وقصتها مع سليمان معروفة مشهورة.
 (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ
 جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
 كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ
 فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ
 وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ
 وَأَنْثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ
 ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ
 وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَى ظَاهِرَةً

وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيَرُوا فِيهَا لَيَالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَفْنَاهُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ
وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

وعاش قوم سبأ في غبطة كبيرة.
 وأرزاق وفيرة.
 وثمار وزروع كثيرة.
 وكانوا مع ذلك على الاستقامة والسداد وطريق الرشاد.
 فلما بدلوا نعمة الله كفراً أحلوا قومهم دار البوار.
 فإيهم لما عدلوا عن الهدى إلى الضلال.
 وسجدوا للشمس من دون الله.
 وكان ذلك في زمان بلقيس وقيلها.
 واستمر ذلك فيهم حتى أرسل الله عليهم سيل العرم.
 وكان من شأن سد مأرب.
 أن المياه كانت تجري بين جبلين.
 فعمدوا في قديم الزمان فسدوا ما بينهما ببناء محكم.
 فزرعوا وغرسوا البساتين.
 فعاشوا في غبطة عظيمة وعيش رغيد وأيام طيبة.
 حتى أن المرأة كانت تمر بالملكوت على رأسها.
 فتمتلئ من الثمار ما يتساقط فيه من نضجه وكثرته.
 فلما عبدوا غير الله ويطروا نعمته.
 وسألوا بعد تقارب ما بين قراهم.
 وطيب ما بينها من البساتين وأمن الطرقات.
 سألو أن يُباعد بين أسفارهم.
 فسلبوا تلك النعمة العظيمة.
 وأرسل الله عليهم سيل العرم.
 فسقط السد وانهار.
 وخرت مملكة سبأ.
 (فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ)
 وتفرقوا في الجزيرة والشام.
 وبقي بعضهم في اليمن.

وفي عصر تُبَّع الحميريّ.
 وكان ملكاً عظيماً صالحاً.
 سار بالجيوش حتى حَيَّرَ الحيرة ثم أتى سمرقند فهدمها.
 وفي طريقه لغزو المشرق مر بالمدينة المنورة يشرب.
 وخلف بين أظهرهم ابناً له.
 فقتل غيلة.
 وفي عودته من المشرق دخلها.
 فلما علم بمقتل ولده عزم على خرابها.
 واستئصال أهلها وقطع نخلها.
 فاجتمع أهل يثرب من أسلاف الأنصار للدفاع عنها فاقتتلوا.
 فبينما تُبَّع على ذلك من قتالهم.
 إذ جاءه حَبْران من أحبار اليهود من بني قريظة.
 عالمان راسخان حين سمعا بما يريد من إهلاك يثرب وأهلها.
 فقالوا له أيها الملك لا تفعل.
 فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها.
 ولم نأمن عليك العقوبة.
 فقال لهما ولم ذلك؟
 قالا هي مُهاجر نبيّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان.
 تكون داره وقراره.
 فرأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما.
 فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما.
 وكان تُبَّع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها.
 فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن.
 فأتاه نفر من هذيل فقالوا له أيها الملك:
 ألا ندلك على بيت مال عَقَل عنه الملوك قبلك.
 فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟

قال: بلى.

قالوا: بيت بمكة يعبده أهله ويصلُّون عنده.

وقد أراد الهذليون هلاكه بذلك حسداً منهم على قريش.

فلما استعد لما قالوا أرسل إلى الحزيرين فسألهما عن ذلك.

فقالا له: ما أراد القومُ إلا هلاكك وهلاك جنديك.

ما نعلم بيتاً لله عز وجل اتخذ في الأرض لنفسه غيره.

ولكن فعلت ما دعوك إليه لتَهْلِكَن وليَهْلِكَن من معك جميعاً.

قال: فماذا تأمراني أن أصنع إذا أنا قدمتُ عليه؟

قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله:

تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده.

وتتذلل له حتى تخرج من عنده.

قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟

قالا أما والله إنه لبيتُ أبينا إبراهيم وإنه لكما أخبرناك.

ولكن أهله حَالُوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله.

وبالدماء التي يُريقون عنده.

وهم نجس أهل شرك.

فعرف نصحتهما وصدَّق حديثهما.

وقرَّب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم.

ثم مضى حتى قدم مكة فطاف بالبيت.

ونحر عنده وحلق رأسه.

وأقام بمكة ينحر بها للناس ويُطعم أهلها ويسقيهم العسل.

ورأى في المنام أن يكسُو البيتَ فكساه.

وكان تُبَّع أول من كسا البيت.

وأوصى به ولاته من جرهم وأمرهم بتطهيره.

وألا يُقرَّبوه دماً ولا مَيْتة.

وجعل له باباً ومفتاحاً.

ثم خرج تبَّع متوجهاً إلى اليمن ومعه الحزيران.

حتى إذا دخل اليمن دعا قومه إلى الدخول فيما دخل فيه.

فأبوا عليه وقالوا: لا تدخل علينا وقد فارقت ديننا.

فدعاهم إلى دينه وقال: إنه خير من دينكم.
من أجل ذلك ذكرهم القرآن وذمهم:
(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ).
والذم إنما كان لقوم تُبِعَ وليس له هو.
فإنه قد كان أسلم وكان أول من كسا الكعبة رضي الله عنه.

وفي عهد أواخر ملوك حمير.
 دخل أهل نجران في دين النصارى.
 وكان ذلك على يدي رجل من عبّاد النصارى بأطراف الشام.
 اسمه فيميون وكان مجاب الدعوة.
 وصحبه رجل يقال له صالح.
 فكانا يتبعان معاً.
 ثم أسرهما بعض الأعراب فباعوهما بنجران.
 فكان الذي اشترى فيميون يراه إذا قام في مصلاه.
 بالبيت الذي هو فيه في الليل.
 يمتلئ عليه البيث نوراً فأعجبه ذلك من أمره.
 وكان أهل نجران يعبدون نخلة طويلة.
 يُقيمون لها عيداً كل سنة.
 فيعلّقون عليها حلي نساءهم ويعكفون عندها.
 فقال فيميون لسيده:
 أرايت إن دعوت الله على هذه الشجرة فهلكت.
 أتعلمون أن الذي أنتم عليه باطل؟
 قال نعم وجمع له أهل نجران.
 وقام فيميون إلى مصلاه فدعا الله عليها.
 فأرسل الله عليها قاصفاً فاستأصلها من أصلها ووقعت إلى الأرض.
 فاتّبعه أهل نجران على دين النصرانية.
 وحملهم على شريعة الإنجيل.
 إلى أن وقعت محرقة (أصحاب الأخدود النار ذات الوفود).
 على يد الملك الحميري ذي نواس:
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ
 وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ

وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ
قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ
النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ
وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ
وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا
فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ).

ويسبب هذه المحرقة لأصحاب الأعداء.
 خرج الملك من جَمِير باليمن إلى الحبشة.
 وذلك أنه لم ينج من أهل نجران إلا رجل واحد.
 يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له.
 فمضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم.
 فاستنصره على ذي نواس وجنوده.
 وأخبره بما بلغ منهم وذلك لأنه نصراني على دينهم.
 فقال له بَعُدْتُ بلادك منا ولكن سأكتب لك إلى ملك الحبشة.
 فإنه على هذا الدين وهو أقرب إلى بلادك.
 فكتب إليه يأمره بنصره والطلب بثأره.
 فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر.
 فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة.
 وأمر عليهم رجالاً منهم يقال له أرياط.
 ومعه في جنده أبرهة الأشرم صاحب الفيل.
 فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن.
 وسار إليه ذو نواس في جَمِير ومن أطاعه من قبائل اليمن.
 فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه.
 ولما رأى ذو نواس ما نزل به ويقومه وجّه فرسه في البحر.
 ثم ضربه فدخل فيه حتى غرق فيه.
 ودخل أرياط اليمن ومَلَكها.

أقام أرباط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك.
ثم نازعه أبرهه الحبشي صاحب الفيل.
حتى تفرقت الحبشة عليهما.
فأحاز إلى كل منهما طائفة.
ثم سار أحدهما إلى الآخر.
فلما تقارب الناس أرسل أبرهه إلى أرباط:
إنك لن تصنع إلا أن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها.
فأبرز لي وأبرز لك فأئنا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده.
فقال أرباط أنصفت.
فخرج إليه أبرهه وكان رجلاً قصيراً سميناً.
وكان متمسكاً بدين النصرانية.
وخرج إليه أرباط وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً وفي يده حربة له.
وجعل أبرهه غلاماً له ليحمي ظهره.
فرفع أرباط الحربة فضرب أبرهه يريد رأسه.
فوقعت الحربة على جبهة أبرهه فشرمت حاجبه وعينه وأنفه وشفته.
فبذلك سمي أبرهه الأشرم.
وحمل غلام أبرهه على أرباط من الخلف فقتله.
وانصرف جنده أرباط إلى أبرهه.
فاجتمعت عليه الحبشة باليمن.
فلما بلغ ذلك النجاشي ملك الحبشة الذي بعثهم إلى اليمن.
غضب غضباً شديداً على أبرهه.
وقال عدا على أميرى فقتله بغير أمرى!
ثم حلف ألا يدع أبرهه حتى يطأ بلاده ويجز ناصيته.
فحلق أبرهه رأسه وملاً جراباً من تراب اليمن.
ثم بعث به إلى النجاشي ثم كتب إليه:
أيها الملك إنما كان أرباط عبدك وأنا عبدك.

فاحتلُّنا في أمرِك وكلُّ طاعته لك.
إلا أني كنت أقوى على أمر الحبشة وأضبط لها وأسوس منه.
وقد حلقْتُ رأسي كَلَّه حين بلغني قَسَم المَلِك.
وبعثتُ إليه بجراب تراب من أرضي ليضعه تحت قدمه فيبرَّ قَسَمه.
فلما انتهى ذلك إلى النجاشي رضي عنه.
وكتب إليه أن اثبت بأرض اليمن حتى يأتيك أمري.
فأقام أبرهة باليمن حتى هلك في معركة الفيل.

ثم إن أبرهة بنى في صنعاء كنيسة لم يُر مثلها في زمانها.
وسمّاها القليس.
وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك كنيسة لم يُن مثلها لملك قبلك.
ولست أنتهي حتى أصرف إليها حج العرب.
وقد سخّر أبرهة أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة.
وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخاماً وأحجاراً وأمتعة عظيمة.
وركّب فيها صلباناً من ذهب وفضة.
وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس.
وجعل ارتفاعها عظيماً واتساعها باهراً.
فلما تحدّث العرب بكتاب أبرهة إلى النجاشي.
غضب رجلٌ من أهل مكة فخرج حتى أتى القليس.
فقعد فيه وتبرز ولطخ الجدران بالغايط والأقذار.
ثم خرج فلحق بأرضه.
ولما أخبر أبرهة بذلك قال من صنع هذا؟
فقيل له صنعه رجل من أهل هذا البيت الذي تحجه العرب بمكة.
عندما سمع بقولك إنك تريد أن تصرف حج العرب إلى بيتك هذا.
فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه.
ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت.
ثم سار وخرج معه بالفيلة وعلى رأسها الفيل الأكبر واسمه محمود.
وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضعوا به.
ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة.
فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر.
فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة.
لصده عن بيت الله الحرام وما يريد من هدمه وإخراجه.
فأجابه من أجابه إلى ذلك.

ثم عرض له فقاتله.
فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ أسيراً.
ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له.
حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نُفيل بن حبيب الخثعمي.
في قبيلة خثعم ومن تبعه من قبائل العرب.
فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ أسيراً.
حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعتب التَّقفي.
فقال له أيها الملك إنما نحن عبيدك.
سامعون لك مطيعون ليس عندنا لك خلاف.
ونحن نبعث معك من يدُك على الكعبة.
فبعثوا معه أبا رغالٍ يدُله على الطريق إلى مكة.
فخرج أبرهة ومعه أبو رغالٍ حتى أنزله قريباً من مكة.
فلما أنزله به مات أبو رغالٍ هنالك.
فرجمت قبره العربُ فهو القبر الذي يرحمه الناس.
وفيه قال الشاعر جرير:
إذا مات الفرزدقُ فارجموهُ
كرجمكمُ لقبرِ أبي رغالٍ
فكان أولَ الخونة أبو رغالٍ قديماً.
ثم المعلم يعقوب أيام الحملة الفرنسية على مصر حديثاً.
فلما اقترب أبرهة من مكة.
بعث رجلاً في سرية فساق إليه أموالاً لقريش وغيرهم.
وأصاب فيها مائتي بَعير لعبدالمطلب بن هاشم.
وهو يومئذ كبير قريش وسيدها.
فهتت قريش وكنانة وهذيل وغيرهم بقتاله.
ثم عرفوا أنه لا طاقة لهم به فتركوا ذلك.
وبعث أبرهة حناطة الحِميري إلى مكة.
وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم.
ثم قل له: إن الملك يقول إني لم آتٍ لحربكم.
إنما جئتُ لهدم هذا البيت.

فإن لم تتعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم.
فإن هو لم يُرد حرّبي فائتني به.
فلما دخل حنّاطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها.
فقيل إنه عبدالمطلب بن هاشم.
فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة.
فقال له عبدالمطلب والله ما نريد حرّبه وما لنا بذلك من طاقة.
هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم.
فإن يمنعه منه فهو حرّمه وبيته.
وإن يُخلّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه.
فقال له حنّاطة فانطلقْ معي إليه فإنه قد أمرني أن آتبه بك.
فانطلقْ معه عبدالمطلب ومعه بعض بنيه.
فقيل لأبرهة هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك.
فأذن له أبرهة وقال لترجمانه قل له ما حاجتُك؟
فقال: حاجتي أن يرد عليّ الملكُ إِبلي التي أصابها.
فقال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك.
ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني.
أتكلمني في مائتي بغير أصبْتُها لك.
وتترك بيتاً هو دينُك ودين آبائك.
قد جئت لأهدمه ولا تكلمني فيه؟
فقال له عبدالمطلب أما الإبل فأنا رُجُها وأما البيت فله ربُّ يحميه.
فقال ما كان ليحميه مني.
قال أنت وذاك.
ثم رد على عبدالمطلب إبله.
وانصرف عبدالمطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر.
وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في رؤوس الجبال.
ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة.
وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده.
فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة.
وهياً الفيلة وعباً جيشه.

ولما وجهوا الفيل إلى مكة برك الفيل.
فضربوه ليقوم فأبى فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول.
وكلما وجهوه إلى مكة برك فإذا وجهوه إلى اليمن قام.
وأرسل الله عليهم طيراً جماعات.
مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها:
حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحُمْص والْعَدَس.
لا تصيب منهم أحداً إلا هلك.
فخرجوا هاربين يبتدون الطريق التي منها جاؤوا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ
أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ
تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ).

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك على كل منهل.
وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أملةً أملةً.
حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر.
فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.
وكان أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب كانت في ذلك العام.
وفي عام الفيل ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ولما هلك أبرهة وابناه وزال ملك الحبشة عن اليمن.
هُجِرَ القُلَيْسِ الذي كان بناه أبرهة.
وأصبح يباباً لا أنيس به.
فلم يزل كذلك إلى زمن أول خلفاء بني العباس.
فبعث إليه جماعة من أهل العزم والحزم والعلم.
فنقضوه حجراً حجراً ودرست آثاره.

فلما هلك أبرهة مَلِك الحبشة.
 خرج سيف بن ذي يَزَن الحِميري.
 حتى قدم على قيصر مَلِك الروم.
 فشكا إليه ما هم فيه من ظلم الأحباش.
 فلم يسمع له قيصر لأن أهل حَمير يهود والحبشة نصارى.
 فخرج سيف حتى أتى النعمانَ بن المنذر.
 وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العراق.
 فشكا إليه أمرَ الحبشة.
 فقال له النعمان إن لي على كسرى وفادَةٌ في كل عام.
 فأقم عندي حتى يكون ذلك ففَعَل.
 ثم خرج معه فأدخله على كسرى.
 فقال: أيها الملك غلبتُنا على بلادنا الغربان يعني الحبشة.
 فجئتك لتنصرتني ويكون مُلك بلادني لك.
 فقال له كسرى: بَعُدت بلادك مع قلة خيرها.
 ورفض أن يُهلك جيشه في أرض العرب.
 وأجازه بعشرة آلاف درهم وهدايا وثياب.
 فخرج سيف فجعل ينثر تلك الأموال للناس.
 فبلغ ذلك المَلِك فقال إن لهذا لشأناً.
 ثم بعث إليه فقال عمدتَ إلى عطاء المَلِك تنثره للناس؟
 قال وما أصنع بعطائك؟
 ما جبال أرضي التي جئتُ منها إلا ذهبٌ وفضة.
 إنما جئتُ المَلِكَ ليمنعني من الظلم ويدفع عني الذل.
 فجمع كسرى مرازته فقال لهم: ما ترون في أمر هذا الرجل وما جاء له؟
 فقال قائل: أيها المَلِك إن في سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل.
 فلو أنك بعثتهم معه فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردتَ بهم.
 وإن ظفروا كان مُلكاً ازددتَه.

فبعث معه كسرى من كان في سجنونه وكانوا ثمانمائة رجل.
واستعمل عليهم وهرز وكان ذا سن فيهم وأفضلهم حسباً وبيتاً.
فخرجوا في ثماني سفن إلى ساحل عَدَن.
فجمع سيف إلى وهرز من استطاع من قومه.
وقال له رجلي ورجلك حتى تموت جميعاً أو نظفر جميعاً.
فقال له وهرز: أنصفت.
وخرج إليه مسروق بن أبرهة ملك اليمن.
فكان النصر لسيف على الحبش.
ووفدت العرب من الحجاز وغيرها على سيف.
يهنئونه بعود الملك إليه وامتدحوه.
فكان في وفد قريش عبدالمطلب بن هاشم.
فبشره سيف برسول الله صلى الله عليه وسلم.
وأخبره بما يعلم من أمره من البشارة به.
صلى الله عليه وسلم.

كثر بنو إسماعيل واتسع ملكهم في الجزيرة.
 حول البيت وفي البلاد المجاورة.
 وكثرت رحلاتهم التجارية إلى الشمال والجنوب.
 في الشتاء والصيف.
 وكثرت قبائلهم مثل قريش وخزاعة وكنانة.
 وكانوا سدنة البيت يعظمونه ويعظمون دين إبراهيم.
 ثم إن أحدهم واسمه عمرو بن لحي.
 خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره.
 فلما قدم البلقاء أرض العماليق.
 رأهم يعبدون الأصنام فسألهم عنها.
 فقالوا هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا.
 فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه.
 فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة.
 فنصبه ودعا الناس إلى عبادته وتعظيمه.
 ثم كان من شأن بني إسماعيل.
 أنه لا يخرج من مكة أحد منهم.
 حين ضاقت عليهم والتمسوا السعة في البلاد.
 إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم.
 فحيث ما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة.
 حتى صاروا يعبدون ما استحسنا من الحجارة.
 في الأجيال المتأخرة.
 ووصل بهم الأمر في الجاهلية إذا لم يجد أحدهم حجراً.
 جمع حُفنة من التراب وجاء بالشاة فحلبها عليه ثم طاف بها.
 واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل الأوثان.
 وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات.
 وبقي فيهم قلة على دين إبراهيم.

يتمسكون بتعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة.
والوقوف على عرفات والمزدلفة والذبح والإهلال بالحج والعمرة.
مع إدخالهم فيه ما ليس منه.
فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا: لبيك اللهم لبيك.
لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك.
فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده.
(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ).
وتصرفوا في أحكام الحلال والحرام بعقولهم.
(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ
هُذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ).
(مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ).

وازداد الجهل في العرب وانتشرت فيهم عبادة الأوثان.
 فكان الصنم وُدُّ لبني كلب بن مُرّة في دومة الجندل.
 وكان سُواعُ لبني هُذيل بن إلياس بن مدركة بن مضر.
 وكان منصوباً في ينبع.
 وكان يغوثُ لطِيءٍ وكان منصوباً بجرش.
 وكان يَعُوقُ منصوباً بأرض همدان.
 وكان نَسْرٌ منصوباً بأرض حَمِيرٍ لقبيلة ذي الكلاع.
 (وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ أَهْلَتَكُمْ
 وَلَا تَدْرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوعَاً وَلَا يَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا).
 واتخذت قريش صنماً في جوف الكعبة يقال له هُبَل.
 وكانت العزى لبني كنانة.
 وكانت اللاتُ لثقيف بالطائف.
 وكانت مناةٌ للأوس والخزرج من أهل المدينة:
 (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى
 وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى
 أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى
 تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى
 إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيئُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ
 إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
 وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى).

وكانت قبيلة قريش أكبر القبائل العربية في الحجاز.
 ولغتها أفصح اللغات.
 وكانت لهم الرياسة على شؤون البيت.
 بزعماء قُصيِّ بن كِلاب الذي كانت له حِجَابَة البيت وسَدَانَتَه واللِوَاء.
 وبنى داراً للفصل في المظالم والخصومات سماها دار الندوة.
 إذا وقعت قضية اجتمع الرؤساء من كل قبيلة.
 فتشاوروا فيها وفصلوها وكانت داراً مناسباتهم.
 ولهذا الدار باب إلى المسجد الحرام.
 ولما كبر قُصيِّ فَوَّضَ أمر هذه الرئاسة لابنه عبدالدار وكان أكبر ولده.
 وكان لابنه عبدمناف بن قُصيِّ أربعة أولاد هم:
 هاشم وعبدشمس والمطلب ونوفل.
 وُوُلِدَ لهاشم بن عبدمناف أربعة منهم عبدالمطلب وأسد.
 وُوُلِدَ لعبدالمطلب عشرة ذكور.
 منهم العباس وحمزة وعبدالله وأبو طالب والزيبر والحارث وأبو لهب.
 فَوُلِدَ لعبدالله محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 سيده ولد آدم وأمه آمنة بنت وهب.
 فهو أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً إلى يوم الدين.
 فإن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل.
 واصطفى قريشاً من كنانة.
 واصطفى هاشماً من قريش.
 واصطفاه صلى الله عليه وسلم من بني هاشم.

211

وكان عبدالمطلب نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم.
لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعه.
ليذبحنَّ أحدهم لله عند الكعبة.
فلما تكامل بنوه عشرةً وعرف أنهم سيمنعونه جمعهم.
ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك.
فأطاعوه وقالوا كيف نصنع؟
قال ليأخذ كل رجل منكم سهماً ثم يكتب فيه اسمه.
ثم اتنوني به ففعلوا ثم أتوه.
فدخل بهم على هبل في جوف الكعبة.
وكان عند هبل الأزام التي يتحاكمون إليها.
إذا صُعب عليهم أمر جاءوه فاستقسموا بها.
فما أمرتهم به أو نهتهم عنه امتثلوه.
ولما جاء عبدالمطلب يستقسم خرج السهم على ابنه عبدالله.
وكان أصغر ولده وأحبهم إليه.
فأخذ عبدالمطلب بيد ابنه عبدالله وأخذ الشفرة ليذبحه.
فقامت إليه قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد يا عبدالمطلب؟
قال أذبحه فقالت له قريش والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذر فيه.
ثم أشارت قريش على عبدالمطلب أن يذهب إلى الحجاز.
فإن بها عرّافة لها تابع من الجن فيسألها عن ذلك.
وقالوا إن أمرتك بذبحه فاذبحه وإن أمرتك بأمر لك وله فيه مخرج قبلته.
فانطلقوا حتى أتوا المدينة فوجدوا العرافة.
فسألوها وقصَّ عليها عبدالمطلب خبره وخبر ابنه.
فقالت لهم ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله.
ثم غدوا عليها فقالت لهم قد جاءني الخبر كم الدية فيكم؟
قالوا عشرٌ من الإبل.
قالت فارجعوا إلى بلادكم ثم قرّبوا صاحبكم وقرّبوا عشرًا من الإبل.

ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح.
فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى رثكم.
وإن خرجت على الإبل فاحروها عنه فقد رضي رثكم ونجا صاحبكم.
فخرجوا حتى قدموا مكة.
فلما أجمعوا على ذلك الأمر قام عبدالمطلب يدعو الله.
ثم قرَّبوا عبدالله وعشراً من الإبل.
ثم ضربوا فخرج السهم على عبدالله فزادوا عشراً.
ثم ضربوا فخرج السهم على عبدالله فزادوا عشراً.
فلم يزلوا يزيدون عشراً عشراً ويخرج السهم على عبدالله.
حتى بلغت الابل مائة فخرج السهم عليها.
فقالت عند ذلك قريش لعبدالمطلب وهو قائم عند هُبل يدعو الله:
قد رضي رثك يا عبدالمطلب.
فنحروها عند ذلك عبدالمطلب وافتدى ولده عبدالله.

ثم انصرف عبدالمطلب آخذاً بيد ابنه عبدالله.
 ولما رأى تزويجه ذهب به إلى وهب بن عبدمناف بن زُهرة.
 وهو يومئذ سيد بني زُهرة سنّاً وشرفاً.
 فزوجه ابنته آمنه بنت وهب وهي يومئذ سيدة نساء قومها.
 فلما دخل عليها حملت منه برسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وحين حملت به توفي أبوه عبدالله وهو جنين في بطن أمه.
 فقد خرج عبدالله بن عبدالمطلب إلى غزة في تجارة لقريش.
 ولما فرغوا من تجارتهم انصرفوا فمروا بالمدينة.
 وعبدالله بن عبدالمطلب يومئذ مريض.
 فقال أتخلف عند أخوالي بني عديّ بن النجار.
 فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة.
 فسألهم عبدالمطلب عن ابنه عبدالله.
 فقالوا خلّفناه عند أخواله بني عديّ بن النجار وهو مريض.
 فبعث إليه عبدالمطلب أكبر ولده الحارث.
 فوجده قد توفي ودُفن في المدينة.
 فرجع إلى أبيه فأخبره.
 فحزن عليه عبدالمطلب وإخوته وأخواته حزناً شديداً.

ثم إنَّ أمانة بنت وهب قالت:
لقد حملتُ به فما وجدتُ له مشقة حتى وضعته.
فلما فصل مني خرج معه نور أضاء ما بين المشرق إلى المغرب.
ثم وَقَعَ إلى الأرض معتمداً على يديه.
ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء.
فلما وضعته بعثتُ إلى عبدالمطلب فقالت قد وُلد لك غلام فانظر إليه.
فلما جاءها أخبرته وحدثته بما كانت رأت حين حملت به.
وما قيل لها فيه وما أمرت أن تسميه.
فأخذه عبدالمطلب فأدخله جوف الكعبة.
وأعجب به وحظي عنده.
وقال: ليكون لابني هذا شأن فكان له شأن.
وكان المولود إذا وُلد في قريش.
دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح يكفأن عليه بُرمة وهي إناء من فخار.
فلما ولد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم دفعه عبدالمطلب إلى نسوة.
فكفأن عليه بُرمة فلما أصبحن وجدن البُرمة قد انفلقت عنه باثنتين.
ووجدنه مفتوح العينين شاخصاً ببصره إلى السماء.
فلما كان اليوم السابع ذبح عنه ودعا له قريشاً.
فلما أكلوا قالوا: يا عبدالمطلب:
أرأيت ابنك هذا الذي أكرمتنا على وجهه ما سميتَه؟
قال سميتُه محمداً.
قالوا فلماذا رغبت به عن أسماء أهل بيته؟
قال أردت أن يحمده الله في السماء وحلقه في الأرض.

214

وكان يهودي قد سكن مكة يتجر بها.
 فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 قال في مجلس من قریش:
 يا معشر قریش هل ولد فيكم الليلة مولود؟
 فقال القوم: والله ما نعلم.
 فقال: وُلد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة.
 وإذا يهودي آخر في يثرب يصرخ ذات غداة:
 يا معشر يهود! فاجتمعوا إليه فقالوا ويلك مالك؟
 قال قد طلع نجم أحمد الذي يولد به في هذه الليلة.
 وقال يوشع اليهودي: أطل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم.
 فسأله أهل يثرب ما صفته؟
 فقال: رجل ليس بالقصير ولا بالطويل.
 في عينيه حمرة يلبس الشملة ويركب الحمار.
 سيفه على عاتقه وهذا البلد مهاجره.
 فأصبحوا وكل يهود يثرب يقولون هذا.
 وقال الزبير بن باطا: قد طلع الكوكب الأحمر.
 الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره.
 ولم يبق أحد إلا أحمد وهذا مهاجره.
 وكان أحبار يهود بني قريظة والنضير يذكرون صفة النبي.
 فلما طلع الكوكب الأحمر أخبروا أنه نبي وأنه لا نبي بعده.
 واسمه أحمد ومهاجره إلى يثرب.
 وقال زيد بن عمرو بن نفيل:
 قال لي حَبْر من أحبار الشام:
 قد خرج في بلدك نبي قد خرج نجمه فارجع فصدقه واتبعه.
 ولما كانت الليلة التي ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 اهتز إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة.
 وخدمت نار فارس ولم تخمد قبل ذلك.

وكانت حاضنته صلى الله عليه وسلم أمُّ أيمن واسمها بركة.
 وكان قد ورثها عليه الصلاة والسلام من أبيه.
 فلما كبر أعتقها وزوجها مولاه زيد بن حارثة.
 وأرضعته مع أمه عليه الصلاة والسلام مولاه عمه أبي لهب نُويبة.
 وذلك قبل حليلة السعدية.
 ثم استرضع له عليه الصلاة والسلام من حليلة بنت أبي ذؤيب.
 من بني سعد بن بكر بن هوازن.
 وله إخوة عليه الصلاة والسلام من الرضاعة: عبدالله والشيماء.
 قالت حليلة في قصة رضاعه صلى الله عليه وسلم:
 قدمت مكة في نسوة وكن عشرة من بني سعد.
 يلتمسن بها الرضعاء في سنة شهباء ذات فحطٍ وجدبٍ.
 فقدمت على حمارة لي بيضاء كانت تتأخر عن الركب.
 ومعى صبي لنا وناقة مسنة والله ما تحلب قطرة لبن.
 وما ننام ليلتنا مع صبينا ذاك من بكائه.
 إذ ما نجد في ثديي ما يغنيه ولا في ناقتنا ما يغذيه.
 ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج فقدمنا مكة.
 فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد.
 فتأباه إذا قيل إنه يتيم.
 وقلن ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبيه.
 فوالله ما بقي من صواحي امرأة إلا أخذت رضيعاً إلا أنا.
 فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي الحارث بن العزى:
 والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحي ليس معى رضيع.
 لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلاخذنه.
 فقال لا عليك ألا تفعلني فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة.
 فذهبت فأخذته فجئت به رحلي فأقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن.

فشرب حتى روي وشرب أخوه حتى روي.
وقام صاحبي إلى ناقتنا تلك فإذا بها ممتلئة الضرع.
فحلب ما شرب وشربت حتى روينا.
فبتنا بخير ليلة.
فقال صاحبي حين أصبحنا: يا حليلة والله إني لأراك قد أخذت نَسمة مباركة.
ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟
فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً.
ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا فوالله لقد سبقت حماتي الركب.
حتى ما يتعلق بها حمائر حتى أن صواحي ليقلن:
ويلك يا بنت أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟
فأقول نعم والله إنها لهي فيقلن والله إن لها لشأناً.
حتى قدمنا أرض بني سعد.
وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها.
فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً بُناً.
فتحلب ما شئنا وما حولنا أحد تبض له شاة بقطرة لبن.
وإن أغنامهم لتروح جياً حتى إنهم ليقولون لرعائهم:
ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم.
فيسرحون مع غنمي حيث تسرح فتروح أغنامهم جياً ما فيها قطرة لبن.
وتروح أغنامي شباعاً بُناً نحلب ما شئنا.
فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين.
فكان يَشِبُّ شباباً لا تشبُّه الغلمان.
فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً شديداً.
فقدمنا به على أمه ونحن أضئ شيء به مما رأينا فيه من البركة.
فلما رآته أمه قلت لها دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى.
فإننا نخشى عليه وباء مكة.
فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم.
فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة.
فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة.
في غنم لنا جاء أخوه ذلك يشتد.

فقال ذاك أخي القرشي جاءه رجلان.
عليهما ثياب بيض فأضحعا فشقا بطنه.
فخرجت أنا وأبوه نشد نحوه فنجدته منتقعاً لونه.
فاعتنقه أبوه وقال يا بُنيَّ ما شأنك؟
قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض.
أضحعاني وشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه.
فقال أبوه يا حليلة لقد خشيتُ أن يكون ابني قد أصيب.
فانطلقني بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف.
قالت حليلة فاحتملناه فلم تُرَع أمه إلا به.
فقدمنا به عليها فقالت ما ردكما به؟ فقد كنتما عليه حريصين؟
فقلنا إن الله قد أدّى عنا وقضينا الذي علينا.
وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث فنرُدُّه إلى أهله.
فقالت ما ذاك بكما فاصدقاني شأنكما؟
فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره.
فقالت أحشيتما عليه الشيطان؟
كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل.
والله إنه لكائن لابني هذا شأن ألا أخبركما خبره؟ قلنا بلى!
قالت حملتُ به فما حملتُ حملاً قط أحفَّ منه.
فأريت في النوم حين حملتُ به كأنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام.
ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود.
معتماً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء.

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب.
 ومع جده عبدالمطلب في كلاءة الله وحفظه.
 يُنبته الله نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته.
 فلما بلغ ست سنين توفيت أمه آمنة بنت وهب.
 وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عديّ بن النجار تُزيه إياهم.
 فماتت وهي راجعة به إلى مكة بالأبواء بين مكة والمدينة.
 وكان معها أمُّ أيمن حاضنته.
 قالت أم أيمن: فجاءني ذات يوم رجلان من يهود المدينة.
 فقالا لي أخرجي إلينا أحمد ننظر إليه.
 فنظرا إليه وقلباه فقال أحدهما لصاحبه هذا نبي هذه الأمة وهذه دار هجرته.
 فلما سمعتُ أمه خافت وانصرفت به فماتت بالأبواء وهي راجعة.
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبدالمطلب بن هاشم.
 بعد موت أمه آمنة بنت وهب.
 فكان يوضع لعبدالمطلب فراش في ظل الكعبة.
 وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه.
 لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له.
 فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام.
 حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه.
 فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني فوالله إن له لشأناً.
 ثم يُجلسه معه على فراشه ويمسح ظهره بيده ويسرّه ما يراه يصنع.
 وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول: عليّ بابني فيؤتى به إليه.
 فلما حضرت عبدالمطلب الوفاة أوصى أبا طالب.
 بحفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياطته وكان ابن ثمان سنين.
 ثم مات عبدالمطلب.
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جده مع عمه أبي طالب.

لوصية عبدالمطلب له به ولأنه كان شقيق أبيه عبدالله من الأم.
وكان أبو طالب لا مال له وكان يحبه حباً شديداً لا يحبه ولده.
وكان لا ينام إلا إلى جنبه ويخرج فيخرج معه.
وكان إذا أكل عيال أبي طالب جميعاً أو فرادى لم يشبعوا.
وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبعوا.
فكان إذ أراد أن يغديهم قال كما أنتم حتى يأتي ولدي.
فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فيأكل معهم فكانوا يُفضلون من طعامهم.
وإن لم يكن معهم لم يشبعوا فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.
وكان الصبيان يصبون زُمصاً غُمصاً شُعثاً.
ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهيناً كحياً صقيلاً.

ثم إن أبا طالب خرج في ركبٍ تاجراً إلى الشام.
فلما تمهياً للرحيل تعلّق به رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فرقّ له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً.
فلما نزل الركب بُصّرى من أرض الشام.
وبها راهب يقال له بَحيرى في صومعة له.
وكان إليه علمُ أهل النصرانية يتوارثونه كابراً عن كابر.
فلما نزلوا ذلك العام ببَحيرى.
وكانوا كثيراً ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم.
حتى كان ذلك العام.

فلما نزلوا قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً.
وذلك لأنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب.
حتى أقبل وعمامة تظلمه من بين القوم.
ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه.
فنظر إلى العمامة حين أظلت الشجرة.
ومالت أغصانُ الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
حتى استظل تحتها.

فلما رأى ذلك بَحيرى نزل من صومعته وقد أمر بطعام فصنع.
ثم أرسل إليهم فقال إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش.
فأنا أحب أن تحضروا كلُّكم كبيركم وصغيركم وعبدكم وحرّكم.
فقال له رجل منهم: والله يا بَحيرى إن لك لشأناً اليوم.
ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟
فاجتمعوا إليه وتحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم.
في رحال القوم تحت الشجرة لصعّر سنّه.

فلما رآهم بَحيرى لم ير فيهم الصفة التي يعرفها.
فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي.
قالوا: يا بَحيرى ما تخلف أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام.

وهو أصغرنا سنًا فتخلف في رحالنا.
قال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.
ثم قام أحدهم إليه وأجلسه مع القوم.
فلما رآه بجيرى جعل يلحظه لحظاً شديداً.
وينظر إلى أشياء من جسده.
حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بجيرى وقال له:
يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه.
فقال له: لا تسألني باللات والعزى فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما.
فقال له بجيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه؟
فقال له سلمي عما بدا لك.
فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره.
فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره.
فوافق ذلك ما عند بجيرى من صفته.
ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه بصفته التي عنده.
فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له ما هذا الغلام منك؟
قال: ابني قال بجيرى ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً.
قال: فإنه ابن أخي.
قال فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به.
قال صدقت ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود.
فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً.
فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فخرج به عمه أبو طالب سريعاً.
حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام.

وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي طالب.
يرعاها الله عز وجل ويحفظه ويجوطه من أمور الجاهلية لما يريد به من كرامته.
حتى بلغ أن كان رجلاً فكان أفضل قومه مُروءة وأحسنهم خلقاً.
وأكرمهم مخالطة وأحسنهم جواراً وأعظمهم حِلماً وأمانة.
وأصدقهم حديثاً وأبعدهم من الفحش والأذى.
ما رئي مُلاحياً ولا مُمارياً أحداً حتى سَمَّاه قومه الأمين.
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
يحدث عما كان الله يحفظه به في صغره.
فقال: لقد رأيتني في غلمان من قريش.
ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغلمان.
كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة.
فإني لأقبل معهم كذلك وأدير إذ لكمني لاكم ما أراه لكممةً وجيعةً.
ثم قال شُدَّ عليك إزارك فأخذته فشددته عليّ.
ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي.
وقال: ما هممتُ بشيء مما كان أهل الجاهلية يهْمُون به من النساء إلا ليلتين.
كلتاها عصمني الله عز وجل فيهما:
قلتُ ليلةً لبعض فتيان مكة ونحن في رعاء غنم أهلها.
فقلت لصاحبي أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة أسمرُ فيها كما يسمر الفتيان.
فقال بلى فدخلتُ حتى جئتُ أول دار من دور مكة.
فسمعت عزفاً بالغرابيب والمزامير فقلت ما هذا؟ قالوا تزوج فلان فلانة.
فجلست أنظر وضرَبَ الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس.
فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟
فقلت ما فعلتُ شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت.
ثم قلتُ له ليلةً أخرى أبصر لي غنمي حتى أسمر ففعل.
فدخلتُ فلما جئتُ مكة سمعتُ مثل الذي سمعتُ تلك الليلة.
فسألتُ فقيل فلان فلانة فجلستُ أنظر.
وضرَبَ الله على أذني فوالله ما أيقظني إلا مسُّ الشمس.

فرجعتُ إلى صاحبي فقال ما فعلت؟ فقلتُ لا شيء ثم أخبرته الخبر.
فوالله ما هممتُ ولا عدتُ بعدهما لشيء من ذلك.
حتى أكرمني الله عز وجل بنبوته.
وما استلّم صنماً قط حتى أكرمه الله تعالى بالذي أكرمه وأنزل عليه.

ولما وقعت حرب الفجار كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة. وإنما سُمِّيَ يومَ الفجار بما استحلَّت فيه كِنانة وقيس عيلان من المحارم بينهم. وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبدشمس. وكان الظَّفَر في أول النهار لقيس على كنانة. حتى إذا كان وسط النهار كان الظَّفَر لكنانة على قيس. وشهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرجه أعمامه معهم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت أنبل على أعمامي أي أردُّ عليهم نَبَل عدوهم إذا رموهم بها. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: شهدت مع عمومي حلف المطيبين. فما أحبُّ أن أنكته وأنَّ لي حُمُر النَّعم. والمطيِّبون هاشم وأمّية وزُهرة ومخزوم. وذلك أن قريشاً تحالفوا بعد موت قُصيِّ. وتنازعوا في الذي كان جعله قُصيِّ لابن عبدالدار. من السقاية والرفادة واللواء والندوة والحِجَابَة. ونازعهم فيه بنو عبدمناف. وقامت مع كل طائفة قبائل من قريش وتحالفوا عن النصرة لحزبهم. فأحضر أصحاب بني عبدمناف جَفَنَة فيها طيب. فوضعوا أيديهم فيها وتحالفوا. فلما قاموا مسحوا أيديهم بأركان البيت. فسُمُّوا المطيبين. وهناك حلف الفضول وكان في دار عبدالله بن جُدعان. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد شهدت في دار ابن جُدعان حلفاً لو دعيتُ به في الإسلام لأجبت. تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وألا يَعدُو ظالمٌ على مظلوم. وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمع به وأشرفه في العرب.

وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبدالمطلب.
وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة.
فاشترها منه العاص بن وائل فحبس عنه حقه.
فاستعدى عليه الزبيدي قريشاً.
فاجتمعت هاشم وُهره وتيم بن مُرّة في دار عبدالله بن جدعان.
فصنع لهم طعاماً وتحالفوا وتعاهدوا بالله.
أن يكونوا يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدّى إليه حقه.
ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

وكانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً ذاتَ شرفٍ ومال.
تستأجر الرجال على مالها مضاربة.
فلما بلغها عن رسول الله ما بلغها من صدق حديثه.
وعظيم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه.
فعرضت عليه أن يخرج لها في مال تاجراً إلى الشام.
وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار.
مع غلام لها يقال له ميسرة.
فقبله رسول الله منها وخرج في مالها ذلك.
وخرج معه غلامها ميسرة حتى نزل الشام.
فزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة.
قريباً من صومعة راهب من الرهبان فاطلع الراهب إلى ميسرة.
فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت الشجرة؟
فقال ميسرة هذا رجل من قريش من أهل الحرم.
فقال له الراهب ما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.
ثم باع رسول الله سلعته التي خرج بها واشترى ما أراد أن يشتري.
ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة.
فكان ميسرة إذا كانت المهاجرة واشتد الحر.
يرى سحابة تظلل من الشمس وهو يسير على بعيره.
فلما قدم مكة على خديجة بمالها كانت تجارتها رابحة.
وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعمما كان يرى من إظلال السحابة إياه.
فلما أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقلت له يا بن عمّ إني قد رغبت فيك لقربتك وشرفك في قومك.
وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك.
ثم عرضت نفسها عليه.
وكانت أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهن شرفاً وأكثرهن مالاً.
كل قومها كان حريصاً على زواجها لو يقدر عليه.

فلما قالت ذلك لرسول الله ذكر ذلك لأعمامه.
فخرج معه عمّاه أبو طالب وحمزة حتى دخلا على خويلد بن أسد.
فخطباها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام.
فأصدقها عشرين ناقةً وكانت أول امرأة تزوجها صلى الله عليه وسلم.
ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت.
فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم إلا إبراهيم:
القاسم وكان به يُكنى وعبدالله وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
يرعى الغنم لقريش قبل أن يتزوج خديجة.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم.
فقال له أصحابه وأنت يا رسول الله؟
فقال: وأنا رعيتهما لأهل مكة بالقراريط.

وقد كانت خديجة بنت خويلد ذكرت لورقة بن نوفل.
وكان ابن عمها وكان نصرانياً قد تتبع الكتب.
ذكرت له قول غلامها عن الراهب وما كان يرى منه إذ كان الملكان يُظَلَّانَه.
فقال ورقة: لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لني هذه الأمة.
قد عرفتُ أنه كائن لهذه الأمة نبي هذا زمانه.
وبعد أن تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة.
كان البيت الحرام أهتم فأعادت قريش بناءه.
فلما أرادوا وضع الحجر تشاجروا مَنْ يضعه.
فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب.
فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب بني شيبه.
فأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه.
وأمر كل فخذ أن يأخذوا بطائفة من الثوب.
فرفعوه وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه.
فكان لا يزداد على السن إلا رضاً.
حتى دَعَوْهُ الأُمَيَّةَ قبل أن ينزل عليه الوحي.

وكانت الأحبار من اليهود والكهان من النصارى ومن العرب.
 قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه.
 أما الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى فمما وجدوا في كتبهم.
 ومن صفتة وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه:
 (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ
 الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ).
 (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ
 وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ).
 (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ
 تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
 سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مَنْ أَنْزَلَ السُّجُودَ
 ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ).
 (وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ
 ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ
 قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا
 قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ).
 وما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق.
 لئن بُعث محمدٌ وهو حي ليؤمننَّ به ولينصرنَّه.
 وقد دعا إبراهيم عليه السلام:
 (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ).
 لذا قال صلى الله عليه وسلم:
 أنا دعوة أبي إبراهيم وبُشرى أخي عيسى.
 ورأت أُمِّي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام.
 أما في الملائكة الأعلى فقد كان أمره مشهوراً مذكوراً معلوماً.
 من قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
إني عبد الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته.
وأما الكهان من العرب فيما أتتهم به الشياطين من الجن مما تسترق من السمع.
قبل أن تُحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم.
وكان الكاهن لا يزال يقع منه بعض ذكر أمره.
ولا يُلقي العرب لذلك فيه بالأحتمى بعثه الله تعالى.
ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون فعرفوها.

فلما اقترب خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر زمان بعثته.
حُجبت الشياطين عن السمع.
وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعدھا لاستراق السمع فيها.
فُرجموا بالنجوم فعرفت الشياطين أن ذلك لأمرٍ حدث من أمر الله عز وجل.
(وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ
فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا).

وكان سلمان رجلاً فارسياً من أهل أصبهان.
 من أهل قرية يقال لها جبي وكان أبوه شيخ القرية.
 وبعد إسلامه حكى لابن عباس قصته فقال:
 وكنتُ أحبُّ خلق الله إلى أبي.
 فلم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الفتاة.
 واجتهدتُ في الجوسية حتى كنتُ خادم النار التي يوقدها لا يتركها تحبو ساعة.
 وكانت لأبي ضيعة عظيمة فشُغل في بنيان له يوماً.
 فقال لي يا بني إني قد شُغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي.
 فاذهب إليها وأمرني فيها ببعض ما يريد.
 ثم قال لي ولا تحتبس عني.
 فإنك إن احتبست عني كنتُ أهمَّ إليَّ من ضيعتي.
 فخرجتُ أريد ضيعته التي بعثني إليها.
 فمررتُ بكنيسة من كنائس النصارى.
 فسمعتُ أصواتهم فيها وهم يصلُّون.
 وكنت لا أدري ما أمرُ الناس لحبس أبي إياي في بيته.
 فلما سمعتُ أصواتهم دخلتُ عليهم أنظرُ ما يصنعون.
 فلما رأيتُهم أعجبتني صلاتهم ورغبتي في أمرهم.
 وقلت هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه.
 فوالله ما برحتُهم حتى غربت الشمس وتركْتُ ضيعة أبي فلم آتها.
 ثم قلت لهم أين أصلُ هذا الدين؟ قالوا بالشام.
 فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن أمره كله.
 فلما جئت قال: أي بني أين كنت ألم أكن أعهد إليك ما عهدته؟
 قلت يا أبي مررت بأناس يصلُّون في كنيسة لهم.
 فأعجبني ما رأيت من دينهم فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس.

قال أي بني ليس في ذلك الدين خير دينك ودين أبائك خير منه.
قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا.

فخافني فجعل في رجلي قيلاً ثم حبسني في بيته.

وبعثتني إلى النصارى فقلت لهم:

إذا قدم عليكم ركبٌ من الشام فأخبروني بهم.

فقدم عليهم ركبٌ من الشام فجاءني النصارى فأخبروني بهم.

فقلت إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأخبروني.

فلما أرادوا العودة إلى بلادهم أخبروني بهم.

فألقيت الحديد من رجلي ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام.

فلما قدمتها قلت: من أفضل أهل هذا الدين علماً؟

قالوا الأسقف في الكنيسة.

فجئته فقلت له: إني رغبت في هذا الدين وأحببت أن أكون معك.

وأخدمك في كنيستك وأتعلّم منك فأصلي معك.

قال ادخل فدخلت معه فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها.

فإذا جمعوا له شيئاً كنزه لنفسه ولم يعطه المساكين.

حتى جمع سبع قلال من ذهب وفضة.

وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع.

ثم مات واجتمعت له النصارى ليدفنوه.

فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها.

فإذا جئتموه بما كنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً.

فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ فقلت لهم أنا أدلكم على كنزه.

قالوا: فدلنا عليه.

فأرئيتهم موضعه فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وفضة.

فلما رأوها قالوا: لا ندفنه أبداً فصلبوه ورموه بالحجارة.

وجاؤوا برجل آخر فوضعوه مكانه.

قال سلمان فما رأيث رجلاً يصلي الخمس أفضل منه .

ولا أزهدي الدنيا ولا أرغب في الآخرة ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه.

فأحبيته حباً لم أحب شيئاً قبله مثله.

فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة فقلت له إني قد كنت معك.

وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى .
 فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني به؟
 قال أي بني والله ما أعلم اليوم أحداً على ما كنتُ عليه .
 لقد هلك الناس وبدّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه .
 إلا رجلاً بالمؤصل وهو فلان وهو على ما كنتُ عليه فالحق به .
 فلما مات ودفن لحقتُ بصاحب المؤصل .
 فقلت له: يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك .
 وأخبرني أنك على أمره .
 فقال لي أقم عندي فأقمتُ عنده فوجدته خير رجل على أمر صاحبه .
 فلم يلبث أن مات فلما حضرته الوفاة .
 قلت له يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك .
 وأمرني بالحق بك وقد حضرك من أمر الله ما ترى .
 فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟
 قال يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه .
 إلا رجلاً بنصيين وهو فلان فالحق به .
 فلما مات ودُفن لحقتُ بصاحب نصيين .
 فأخبرته خبري وما أمرني به صاحباي .
 فقال أقم عندي فأقمتُ عنده فوجدته على أمر صاحبيه .
 فأقمتُ مع خير رجل فوالله ما لبث أن نزل به الموت .
 فلما حضره قلت له: يا فلان إن فلاناً كان أوصي بي إلى فلان .
 ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصي بي فلان إليك .
 فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟
 قال يا بني والله ما أعلم أحداً على أمرنا أمرك أن تأتيه .
 إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم فإنه على مثل ما نحن عليه .
 فإن أحببتَ فائته فإنه على أمرنا .
 فلما مات ودفن لحقتُ بصاحب عمورية فأخبرته خبري .
 فقال أقم عندي فأقمتُ عند خير رجل على هدي أصحابه وأمرهم .
 واكتسبتُ حتى كانت لي بقرات وعُنيمَة .
 ثم نزل به أمر الله فلما حُضِر قلت له يا فلان .

إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى فلان ثم أوصى بي فلان إلى فلان.
ثم أوصى بي فلان إلى فلان ثم أوصى بي فلان إليك.
فإلى من توصي بي وبم تأمري؟ قال أي بني.
والله ما أعلم أحداً على مثل ما كنا عليه من الناس أمرك أن تأتيه.
ولكنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب.
هجرته إلى الأرض بين حرتين بينهما نخل به علامات لا تخفى.
يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة.
فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.
ثم مات ودُفن ومكثتْ بعمورية ما شاء الله أن أمكث.
ثم مرّ بي نفر من قبيلة كلب تجار.
فقلت لهم: احمولوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمي هذه.
قالوا نعم فأعطيتموها وحمولوني معهم.
حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل يهودي عبداً.
فكنت عنده ورأيت النخل فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي.
فبينما أنا عنده إلى قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة.
فابتاعني فاحتملني إلى المدينة.
فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتُها بصفة صاحبي لها.
فأقمتُ بها وبُعث رسول الله فأقام بمكة ما أقام.
ولا أسمع له بذكر مما أنا فيه من شغل الرّق.
ثم هاجر إلى المدينة فوالله إني لفي رأس نخل لسيدي أعمل فيه بعض العمل.
وسيدي جالس تحتي إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال.
يا فلان قاتل الله بني قيلة (يعني الأوس والخزرج).
والله إنهم يجتمعون الآن بقباء على رجل قديم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي.
قال سلمان فلما سمعتها أخذتني الرعدة حتى ظننتُ أني ساقط على سيدي.
فنزلتُ عن النخلة فجعلتُ أقول لابن عمه ماذا تقول؟ ماذا تقول؟
فغضب سيدي فلكنني لكمةً شديدة.
ثم قال مالك ولهذا؟ أقبل على عمك.

فقلت لا شيء إنما أردت أن أستثبته عما قال.
وقد كان عندي شيء قد جمعته فلما أمسيت أخذته.
ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقباء.
فدخلت عليه فقلت له إنه قد بلغني أنك رجل صالح.
ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة.
وهذا شيء كان عندي للصدقة فرأيتم أحق به من غيركم.
فقرنته إليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا.
وأمسك يده فلم يأكل.
فقلت في نفسي هذه واحدة.
ثم انصرف عنه فجمعت شيئاً.
وانتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.
ثم جئت فقلت له إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها.
فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وأمر أصحابه فأكلوا معه.
فقلت في نفسي هاتان اثنتان.
ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببيقع العرق.
قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليه شملتان وهو جالس في أصحابه.
فسلمت عليه ثم استدبرته أنظر إلى ظهره.
هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟
فلما رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته.
عرفت أنني أستثبت في شيء ووصف لي.
فألقي رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته.
فأكببت عليه أقبله وأبكي.
فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعال.
فتحولت بين يديه فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يابن عباس.
فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه.
ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر وأحد.
قال سلمان: ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كاتب يا سلمان.
فكاتبني صاحبي على ثلاثمائة نخلة أغرسها له وأربعين أوقية.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أعينوا أحاكم.

فأعانوني في جمع الفسائل حتى اجتمعت لي ثلاثمائة فسيلة.
فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب يا سلمان فاحفر لها.
فإذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي.
فحفرت وأعاني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته.
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم معي إليها.
فجعلنا نقرب إليه الفسائل ويضعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده.
حتى إذا فرغنا فوالذي نفس سلمان بيده ما ماتت منها فسيلة واحدة.
فأديت النخل وبقي عليّ المال.
فأتني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعة صغيرة من ذهب.
فقال ما فعل الفارسي المكاتب؟
فدعيت له قال خذ هذه فأدّها مما عليك يا سلمان.
قلت: وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟
قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك.
فأخذتها فوزنت لهم منها.
والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية فأوفيتهم حقهم وعُتق سلمان.
فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرّاً.
ثم لم تُقتني معه غزوة بعد ذلك.

225

قال العباس بن عبدالمطلب: خرجتُ في تجارة إلى اليمن.
 في ركب منهم أبو سفيان بن حرب.
 فقدمتُ اليمن فكنت أصنع يوماً طعاماً ويصنع أبو سفيان يوماً.
 فقال لي في يومي الذي كنتُ أصنع فيه:
 هل لك يا أبا الفضل أن تأتي إلى بيتي وترسل إلينا غداءك؟
 فقلت نعم وانصرفت أنا والنفر إلى بيته وأرسلت الغداء.
 فلما تغدى القوم قاموا واحتبسني فقال:
 هل علمت يا أبا الفضل أن ابن أخيك يزعم أنه رسول الله؟
 فقلت أيُّ بني أخي؟ فقال أبو سفيان إياي تكتم؟
 وأيُّ بني أخيك ينبغي أن يقول هذا إلا رجل واحد؟
 قلت وأيُّهم على ذلك؟ قال: هو محمد بن عبدالله.
 فقلت قد فعل؟ قال بلى قد فعل.
 وأخرج كتاباً باسمه من ابنه حنظلة بن أبي سفيان فيه:
 أخبرك أن محمداً قام بالأبطح فقال:
 أنا رسول أدعوكم إلى الله عز وجل.
 قلت: فلعله يا أبا حنظلة صادق.
 فقال مهلاً يا أبا الفضل فوالله ما أحبُّ أن يقول مثل هذا.
 لنشدتك يا أبا الفضل هل سمعت ذلك؟ قلت نعم قد سمعت.
 قال فهذه والله شؤمتكم قلت فلعلها يُمتتنا.
 فما كان بعد ذلك إلا ليال.
 حتى قدم عبدالله بن حذافة بالخبر وهو مؤمن.
 ففشنا ذلك في مجالس اليمن.
 وكان أبو سفيان يجلس مجلساً باليمن يتحدث فيه خبر من أخبار اليهود.
 فقال له اليهودي ما هذا الخبر؟
 بلغني أن فيكم عمّ هذا الرجل الذي قال ما قال؟
 قال أبو سفيان صدقوا وأنا عمُّه.
 فقال اليهودي أخو أبيه؟ قال نعم.
 قال فحدثني عنه قال لا تسألني.

ما أحبُّ أن يدَّعي هذا الأمر أبداً.
وما أحبُّ أن أعيبه وغيره خير منه.
فرأى اليهودي أنه لا يغمس عليه ولا يُحب أن يعيبه.
فقال اليهودي ليس به بأس على اليهود وتوراة موسى.
قال العباس فناداني الحبر فحئتُ فخرجت.
حتى جلستُ ذلك المجلس من الغد.
وفيه أبو سفيان بن حرب والحبر.
فقلت للحبر بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا.
زعم أنه رسول الله وأخبرك أنه عمه وليس بعمه.
ولكنه ابن عمه وأنا عمه وأخو أبيه.
قال أخو أبيه؟ قلت أخو أبيه.
فأقبل على أبي سفيان فقال صدق؟ قال نعم صدق.
فقلت: سلني فإن كذبت فليرد عليّ.
فأقبل عليّ فقال نشدتك هل كان لابن أخيك صَبوة أو سَفْهة؟
قلت لا وإله عبدالمطلب ولا كذب ولا خان.
وإنه كان اسمه عند قريش الأمين.
قال فهل كتب بيده؟ فظننتُ أنه خير له أن يكتب بيده.
فأردت أن أقولها ثم ذكرتُ مكان أبي سفيان يكذبني ويرد عليّ فقلت لا يكتب.
فوثب الحبر ونزل رداؤه وقال دُبجتُ يهود وُقُلتُ يهود.
فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو سفيان:
يا أبا الفضل إن اليهود تفزع من ابن أخيك!
قلت قد رأيتُ ما رأيتَ فهل لك يا أبا سفيان أن تؤمن به؟
فإن كان حقاً كنتَ قد سبقتَ وإن كان باطلاً فمعك غيرك من أكفائك؟
قال لا أو من به حتى أرى الخيل في كداء قلت ما تقول؟
قال كلمةٌ جاءت على فمي إلا أنني أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع من كداء.
قال العباس فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة.
ونظرنا إلى الخيل وقد طلعت من كداء قلت يا أبا سفيان تذكر الكلمة؟
قال: إي والله إني لذاكرها فالحمد لله الذي هداني للإسلام.

وكان أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه من الوحي الرؤيا الصالحة.
 وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.
 ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتعب فيه.
 ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها.
 حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.
 فجاءه الملك فقال: اقرأ.

فقال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذني فضمني حتى بلغ مني الجهد ثم تركني.
 فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فضمني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم تركني.
 فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ.

فأخذني فضمني الثالثة حتى بلغ مني الجهد.
 ثم أرسلني فقال:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ).

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه يرحف فؤاده.

فدخل على خديجة بنت خويلد.

فقال: زملوني زملوني.

فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيتُ على نفسي.

فقالت خديجة: كلا والله لا يجزيك الله أبداً.

إنك لتصل الرحم وتفرّي الضيف وتحمل الكّل.

وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها.
وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية.
وكان يكتب الكتاب العبراني.
فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب.
وكان شيخاً كبيراً قد عمي.
فقالت له خديجة: يا بن عم! اسمع من ابن أخيك.
فقال له ورقة: يا بن أخي ماذا ترى؟
فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما أرى.
فقال له ورقة: هذا الملك الذي كان ينزل على موسى.
يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أومخرجي هم؟
فقال: نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي.
وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.
ثم لم يلبث ورقة أن توفي.

وقال صلى الله عليه وسلم.
وهو يخبر عن بداية الوحي فقال في حديثه:
بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء.
فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء.
جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه.
فرجعت فقلت: زملوني زملوني دثروني دثروني.

(يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ

قُمْ فَأَنْذِرْ

وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ

وَتُيَابِكَ فَطَهِّرْ

وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ

وَلَا تَمُنَّ بِتَسْتَكْبِرْ

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ).

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمْ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا

نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا

أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا).

وكان ابتداء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين.
لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان.
وكان إذا جاءه الوحي يحمر وجهه ويغطُّ كما يغطُّ الذكر من الإبل.
ويتفصّد جبينه عرقاً في اليوم الشديد البرد.

وكان الجن قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.
 يصعدون إلى السماء يستمعون الوحي.
 فإذا حفظوا الكلمة زادوا فيها تسعاً.
 فأما الكلمة فتكون حقاً وأما ما زادوا فتكون باطلاً.
 فلما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم مُنعوا مقاعدَهم.
 فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك.
 فقال لهم إبليس هذا لأمر قد حدث في الأرض.
 فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 قائماً يصلي بين جبلين فأتوه فأخبروه.
 فقال هذا الأمر الذي حدث في الأرض.
 ثم انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
 عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء.
 وأُرسِلت عليهم الشُّهب فرجعت الشياطين إلى قومهم.
 فقالوا ما لكم؟ قالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأُرسِلت علينا الشُّهب.
 فقالوا: ما ذلك إلا من شيء حدث.
 فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها.
 فمَرُّوا بسوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر.
 فلما سمعوا القرآن استمعوا له.
 فقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء.
 فرجعوا إلى قومهم فقالوا:
 (إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا
 يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا).
 وأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم:
 (قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا).

ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وأمره الله (قُمْ فَأَنْذِرْ).
 شرع في تبليغ رسالة ربه.
 فدخل عليه علي بن أبي طالب بعد البعثة بيوم وهو يصلي هو وخديجة.
 فقال عليّ يا محمد ما هذا؟ قال دين الله الذي اصطفى لنفسه.
 وبعث به رسله فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عبادته.
 وأن تكفر باللات والعزى.
 فقال عليّ: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم.
 فلستُ بقاضٍ أمراً حتى أحدث به أبا طالب.
 فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره.
 قبل أن يستعلن أمره فقال له: يا عليّ إذا لم تُسلم فإكتم.
 فمكث عليّ تلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلبه الإسلام.
 فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 حتى جاءه فقال ماذا عرضت عليّ يا محمد؟
 فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
 وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد.
 ففعل عليّ وأسلم ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب.
 وكنتم عليّ إسلامه ولم يُظهره.
 وأسلم زيد بن حارثة وكان مولى لرسول الله.
 فمكثنا قريباً من شهر يختلف عليّ وزيد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وكان مما أنعم الله به على عليّ.
 أنه كان في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام.
 وذلك أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة.
 وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمة العباس.

وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال.
وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة.
فانطلق بنا إليه حتى نخفف عنه من عياله.
فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمه إليه.
فلم يزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبياً.
فاتبعه عليٌّ وآمن به وصدقه.
وفي ذلك قال عفيف بن قيس:
كنتُ امرأةً تاجراً فقدمت منى أيام الحج.
وكان العباس بن عبدالمطلب امرأةً تاجراً.
فأتيته أبتاع منه وأبيعه.
قال فبينما نحن عنده إذ خرج رجل من خباء فقام يصلي تجاه الكعبة.
ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلي وخرج غلام فقام يصلي معه.
فقلت: يا عباس ما هذا الدين؟ إن هذا الدين ما ندري ما هو.
فقال: هذا محمد بن عبدالله يزعم أن الله أرسله به.
وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه.
وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به.
وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به.
قال عفيف: فليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون ثانياً.
فكان عليٌّ أول من أسلم وهو ابن تسع سنين.
ثم أبوبكر الصديق صديق رسول الله صلى الله عليه وسلم.
كان صدرًا معظماً ورئيساً في قريش مكرماً.
وصاحب مال وداعية إلى الإسلام.
وكان محبباً متألفاً يبذل المال في طاعة الله ورسوله.
فقد لقي أبوبكر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقال: أحقُّ ما تقول قريش يا محمد؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بلى إني رسول الله ونبيه.
بعثني لأبلغ رسالته وأدعوك إلى الله بالحق.
فوالله إنه للحق أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له.

ولا تعبد غيره والموالاته على طاعته وقرأ عليه القرآن.
فأسلم وكفر بالأصنام ورجع أبوبكر وهو مؤمن مصدق.
وفي هذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كَبُوة وتردد ونظر.
إلا أبا بكر ما تلبَّث عنه حين ذكرته ولا تردد فيه.

ولما أسلم أبوبكر وأظهر إسلامه دعا إلى الله عز وجل.
 وكان أبوبكر رجلاً مألُفاً لقومه محبباً سهلاً.
 وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر.
 فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه.
 فأسلم على يديه الزبير بن العوام وعثمان بن عفان.
 وطلحة بن عبيدالله وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف.
 فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعهم أبوبكر.
 فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن وأنبأهم بحق الإسلام فآمنوا.
 وكان هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام.
 صدّقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنوا بما جاء من عند الله.
 قال طلحة بن عبيدالله: حضرت سوق بُصرى فإذا راهب في صومعته يقول:
 سلوا أهل الموسم أفيهم رجل من أهل الحرم؟
 قال طلحة: قلت: نعم أنا.
 فقال هل ظهر أحمد بعد؟ قلت ومن أحمد؟
 قال النبي وهذا شهره الذي يخرج فيه.
 وهو آخر الأنبياء مخرجه من الحرم.
 ومهاجره إلى نخل وحرّة وسباخ فأياك أن تُسبق إليه.
 قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال فخرجتُ سريعاً حتى قدمتُ مكة.
 فقلتُ هل كان من حدث؟ قالوا: نعم محمد بن عبدالله الأمين قد تنبأ.
 وقد اتبعه أبوبكر بن أبي قحافة.
 فخرجتُ حتى قدمت على أبي بكر.
 فقلتُ اتبعت هذا الرجل؟ قال نعم فانطلقُ إليه فادخلُ عليه.
 فاتّبعتُه فإنه يدعو إلى الحق فأخبره طلحة بما قال الراهب.
 فخرج أبوبكر بطلحة فدخل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فأسلم طلحة وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال الراهب.
 فسُئِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك.
 فلما أسلم أبوبكر وطلحة أخذهما نوفل بن خويلد بن العدوية.

وكان يُدعى أسد قريش فشدهما في حبل واحد.
ولم يمنعهما بنو تميم فلذلك سمّي أبوبكر وطلحة القرينان.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم اكفنا شر ابن العديّة.

ولما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.
 وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً.
 ألح أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور والإعلان.
 فقال: يا أبا بكر إنا قليل فلم يزل أبو بكر يلح.
 حتى ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته.
 وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس.
 فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم.
 وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين.
 فضربوا في نواحي المسجد ضرباً شديداً.
 ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً.
 ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة.
 فجعل يضربه بتعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه.
 ونزا على بطن أبي بكر حتى ما يُعرف وجهه من أنفه.
 وجاء بنو تميم يتعادون فأجلكت المشركين عن أبي بكر.
 وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله.
 وهم ولا يشكُّون في موته.
 ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا:
 والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة.
 فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى أجاب.
 فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
 فتناولوه بألسنتهم وعذلوه ثم قاموا.
 فلما خلت به أمه جعل يقول:
 ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
 فقالت والله ما لي علم بصاحبك.
 فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه.

فخرجت حتى جاءت أمّ جميل.
فقلت إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله؟
فقلت ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله.
وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك؟ قالت نعم.
فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً.
فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح وقالت:
والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر.
وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.
قال فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
قالت هذه أمك تسمع! قال فلا شيء عليك منها.
قالت: إنه سالم صالح قال أين هو؟ قالت في دار ابن الأرقم.
قال فإن لله عليّ ألا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً.
حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فلما هدأت الرجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما.
حتى أدخلتاها على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فأكب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله.
وأكب عليه المسلمون ورقاً له رسول الله صلى الله عليه وسلم رقة شديدة.
فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي يا رسول الله.
ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي.
وهذه أمي برة بولدها.
وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها.
عسى الله أن يستنقذها بك من النار.
فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ودعاها إلى الله فأسلمت.
وأقاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار شهراً.
وهم تسعة وثلاثون رجلاً.

وقد كان حمزة بن عبدالمطلب أسلم يوم ضُرب أبوبكر.
 وقد نال أبوجهل وعديّ بن الحمراء وابن الأصداء.
 نالوا من النبي فبلغ ذلك حمزة فدخل المسجد.
 فضرب رأس أبي جهل بالقوس.
 وأسلم حمزة فعزّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون.
 ودعا رسول الله لعمر بن الخطاب أو لأبي جهل فكانت لعمر.
 وكانت الدعاء يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس.
 فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وكبر معه أهل البيت تكبيرة سُمعت بأعلى مكة.
 وخرج أبو الأرقم وهو أعمى كافر وهو يقول:
 اللهم اغفر لابني الأرقم فإنه كفر.
 فقام عمر فقال يا رسول الله علام نخفي ديننا ونحن على الحق؟
 ويظهر دينهم وهم على الباطل؟ قال: يا عمر إنا قليل قد رأيت ما لقينا.
 فقال عمر: فوالذي بعثك بالحق.
 لا يبقى مجلس جلستُ فيه بالكفر إلا أظهرتُ فيه الإيمان.
 ثم خرج فطاف بالكعبة ثم مر بقريش وهي تنتظره.
 فقال أبوجهل بن هشام: يزعم فلان أنك صبوت؟
 فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
 وأن محمداً عبده ورسوله.
 فوثب المشركون إلى عمر ووثب على عتبة فبرك عليه وجعل يضربه.
 وأدخل إصبه في عينيه فجعل عتبة يصيح.
 ففتنحى الناس عن عمر فقام.
 فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ منه حتى أعجز الناس.
 واتبع المجالس التي كان يجالس فيها فيُظهر الإيمان.
 ثم انصرف إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ظاهر عليهم.
 فقال ما عليك بأبي أنت وأمي.

والله ما بقي مجلس كنتُ أجلس فيه بالكفر.
إلا أظهرتُ فيه الإيمان غير هائب ولا خائف.
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وخرج عمر أمامه وحمزة بن عبدالمطلب.
حتى طاف بالبيت وصلى الظهر مؤمناً.

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:
كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لُعُقبَة بن أبي مُعيط بمكة.
فأتى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر.
وقد فرّأ من المشركين فقالا عندك يا غلام لبن تسقيننا؟
قلت إني مؤتمن ولست بساقيكما.
فقالا هل عندك من جذعة لم ينزّ عليها الفحل بعد؟ قلت نعم.
فأتيتهما بها فاعتقلها أبو بكر.
وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الضرع.
ودعا فحفل الضرع وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة.
فحلب فيها ثم شرب هو وأبو بكر ثم سقياني.
ثم قال للضرع اقلص فقلص.
فلما كان بعد أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقلت علّمني من هذا القول الطيب يعني القرآن.
فقال: إنك غلام معلّم.
فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد.

وكان إسلام خالد بن سعيد بن العاص قديماً وكان أول إخوته أسلم.
 وكان بدء إسلامه أنه رأى في المنام أنه وقف به على شفير النار.
 فذكر من سعتها ما الله أعلم به.
 ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها.
 ويرى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذاً بحقويه لئلا يقع.
 ففزع من نومه فقال أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق.
 فلقي أبا بكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له.
 فقال أبو بكر أريد بك خيرٌ.
 هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه.
 فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام.
 والإسلام يحجزك أن تدخل النار وأبوك واقع فيها.
 فلقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بأجباد.
 فقال يا رسول الله يا محمد إلام تدعو؟
 قال: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له.
 وأن محمداً عبده ورسوله.
 وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع.
 ولا يضر ولا يبصر ولا ينفع ولا يدري من عبده ممن لا يعبه .
 قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله.
 فسُر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامه.
 وتغيب خالد وعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه فأتي به.
 فأثبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرهما على رأسه.
 وقال: والله لأمنعك الطعام.
 فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به.
 وانصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يُكرمه ويكون معه.

وكان سبب إسلام حمزة بن عبدالمطلب.
 عم النبي صلى الله عليه وسلم.
 أن أبا جهل اعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا.
 فأذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه وعرضه.
 فذكر ذلك لحمزة بن عبدالمطلب.
 فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه.
 رفع القوس فضربه بها ضربة شجّه منها شجّة منكرة.
 وقامت رجال من قريش إلى حمزة لينصروا أبا جهل منه.
 وقالوا ما نراك يا حمزة إلا قد صبوت؟
 قال حمزة ومن يمنعني وقد استبان لي منه؟
 أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وأن الذي يقول حق فوالله لا أرجع فامنعوني إن كنتم صادقين.
 فقال أبو جهل: دُعُوا أبا عمارة.
 فأبى والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً.
 فلما أسلم حمزة عرفت قريش.
 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع.
 فكفُّوا عما كانوا يتناولون منه.

وكان سبب إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
 أن أخته فاطمة بنت الخطاب.
 وكانت زوجة لسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيْل.
 وكانت قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد.
 وهم مستخفون بإسلامهم من عمر.
 فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه.
 يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه.
 فلقيه رجل فقال: أين تريد يا عمر؟
 قال أريد محمداً هذا الصابئ الذي فزق أمر قريش.
 فقال له الرجل: والله لقد غرتك نفسك يا عمر.
 أترى بني عبدمناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟
 أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم.
 قال: وأي أهل بيتي؟ قال صهرك وابن عمك سعيد بن زيد.
 وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه.
 فرجع عمر إلى أخته فاطمة.
 وعندها خباب بن الأرت معه صحيفة فيها سورة طه.
 يقرئها إياها فلما سمعوا حسَّ عمر تعيَّب خباب في بعض البيت.
 وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها.
 وقد سمع عمر حين دنا إلى الباب قراءة خباب عليها.
 فلما دخل قال ما هذا الصوت الذي سمعت؟
 قالوا له ما سمعت شيئاً.
 قال بلى والله لقد أُخبرْتُ أنكما تابعتما محمداً.
 وبطش بصهره سعيد بن زيد.
 فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها.
 فضرها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها:
 نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع وارعوى.
وقال لأخته أعطيني هذه الصحيفة التي كنتم تقرؤون.
فقال له أخته إنا نخشاك عليها.
قال لا تخافي وحلف لها بألته ليردنها إذا قرأها إليها.
فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت:
يا أخي إنك نجس على شركك وإنه لا يمسه إلا المطهرون.
فقام عمر فاغتسل فأعطته الصحيفة وفيها طه فقرأها فلما قرأ منها صدراً.
قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمه.
فلما سمع ذلك خباب بن الأرت خرج إليه فقال له:
والله يا عمر إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه.
فإني سمعته أمس وهو يقول:
اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب.
فالله الله يا عمر.
فقال له عند ذلك: فدلي يا خباب على محمد حتى آتية فأسلم.
فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه.
فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله وأصحابه.
فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته.
قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فنظر من فتحة الباب فإذا هو بعمر متوشح بالسيف.
فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فرع.
فقال حمزة: فائذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه.
وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.
فأذن له ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
حتى لقيه في الحجرة فأخذ بمجمع رداءه.
ثم جذبه جذبة شديدة فقال ما جاء بك يا بن الخطاب؟
فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة.
فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله ورسوله.
فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة.
فعرف أهل البيت أن عمر قد أسلم.

فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكائهم.
وقد عَزُّوا في أنفسمهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة.
وعلموا أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ويتنصفون بهما من عدوهم.

وكان سبب إسلام أبي ذر الغفاري أنه قال:
كنت رُبع الإسلام أسلم قبلي ثلاثة نفر وأنا الرابع.
أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت:
السلام عليك يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله.
فرايت الاستبشار في وجه الله صلى الله عليه وسلم.
وحدث أبو ذر بقصة إسلامه فقال:
خرجنا من قومنا غفار وكان يستحلون الشهر الحرام.
أنا وأخي أنيس وأئنا فانطلقنا.
حتى نزلنا على خال لنا ذي مال وذي هيئة.
فأكرمنا خالنا وأحسن إلينا.
فحسدنا قومه فقالوا له: إنك إذا خرجت عن أهلك خلقت إليهم أنيس.
فجاء خالنا فحدثنا ما قيل له.
فقلت له: أما ما مضى من معروفك فقد كدرته ولا بقاء لنا فيما بعد.
فقرنا الإبل فاحتملنا عليها.
وتغطى خالنا بثوبه وجعل يبكي.
فانطلقنا حتى نزلنا مكة.
وكنت أصلي قبلها لله ثلاث سنين.
فقال أنيس: إن لي حاجة بمكة فانتظر حتى آتيك.
فانطلق فتأخر عليّ ثم أتاني.
فقلت ما حبسك؟ قال: لقيت رجلاً يزعم أن الله أرسله على دينك.
فقلت ما يقول الناس له؟ قال يقولون إنه شاعر وساحر وكان أنيس شاعراً.
فقال لقد سمعت الكهان فما يقول بقولهم.
وقد وضعت قوله على أقرء الشعر وقوافيه فوالله ما يلتئم لسان أحد أنه شعر.
ووالله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.
فقلت له هل أنت كافي حتى انطلق؟
قال نعم! وكن من أهل مكة على حذر فإنهم قد شنعوا له وتجهموا له.
فانطلقت حتى قدمت مكة فاخترت رجلاً ضعيفاً منهم.

فقلت أين هذا الرجل الذي يدعونه الصابئ؟
فأشار إليّ وصرخ وجمع عليّ الناس وقال انظروا إلى هذا الصابئ.
فمال أهل الوادي عليّ بكل حجر وعظم حتى خرت مغشياً عليّ.
ثم قمت فأتيت زمزم فشريت من مائها وغسلت عني الدم.
ودخلت بين الكعبة وأستارها فلبثت بها ثلاثين يوماً وليلة.
ما لي طعام إلا ماء زمزم فسمنتُ حتى تكسرت طيات بطني.
وما وجدتُ على كبدي ضعف الجوع.
فبينما أهل مكة في ليلة قمرء بيضاء.
وضرب الله على آذان أهل مكة.
فما يطوف بالبيت غير امرأتين فأتتا عليّ وهما تدعوان إساف ونائلة.
فقلت: أنكحوا أحدهما الآخر وشتمّ الصنمين.
فانطلقتا تولولان وتقولان لو كان ههنا أحد من رجالنا؟
فاستقبلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر.
وهما هابطان من الجبل فقال ما لكما؟
فقالتا الصابئ بين الكعبة وأستارها.
قالا: ما قال لكما؟ قالتا: قال لنا كلمة تملأ الفم.
وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وصاحبه.
حتى استلم الحجر وطاف بالبيت ثم صلّى.
فأتيته فكنت أول من حياه بتحية أهل الإسلام.
فقال: عليك السلام ورحمة الله من أنت؟
قلت من غفار قال: فأهوى بيده.
قال متى كنت ههنا؟ قلت منذ ثلاثين ليلة.
قال: فمن كان يطعمك؟ قلت: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم.
فسمنتُ حتى تكسرت طيات بطني وما وجدتُ ضعف الجوع.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنها مباركة إنها طعام طعم.
فقال أبو بكر: ائذن لي يا رسول الله في طعامه الليلة.
ففعّل فانطلق النبي صلى الله عليه وسلم وانطلقتُ معهما.
حتى فتح أبو بكر باباً فجعل يقبض لنا من زيب الطائف.
فكان ذلك أول طعام أكلته بها.

فلبث ما لبثت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
إني قد وجهت إلى أرض ذات نخل ولا أحسبها إلا يشرب.
فهل أنت مبلغ عني قومك؟ لعل الله ينفعهم بك ويأجرك فيهم.
فانطلقت حتى أتيت أخي أنيساً.
فقال لي ما صنعت؟ قلت صنعتُ أني أسلمت وصدقت.
قال فما بي رغبة عن دينك فإني قد أسلمتُ وصدقت.
ثم أتينا أمنا فقالت ما بي رغبة عن دينكما فإني قد أسلمتُ وصدقت.
فرحلنا حتى أتينا قومنا غفار.
فأسلم بعضهم قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة.
وكان يؤمُّهم خفاف الغفاري وكان سيدهم يومئذ.
فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فأسلم بقيتهم.
وجاءت أسلم فقالوا يا رسول الله إخواننا نُسلم على الذي أسلموا عليه.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غفار غفر الله لها وأسلم سلمها الله.

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح.
 وأبو سلمة عبدالله بن عبدالأسد.
 والأرقم بن أبي الأرقم.
 وعثمان بن مظعون.
 وعبيدة بن الحارث.
 وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب.
 وأسماء بنت أبي بكر وعائشة بنت أبي بكر وهي صغيرة.
 وقدامة بن مظعون وعبدالله بن مظعون.
 وخبّاب بن الأرت.
 وعمير بن أبي وقاص.
 وعبدالله بن مسعود.
 ومسعود بن القاري.
 وسليط بن عمرو.
 وعياش بن أبي ربيعة وامرأته أسماء بنت سلمة.
 وحنينيس بن حذاقة.
 وعامر بن ربيعة.
 وعبدالله بن جحش.
 وأبو أحمد بن جحش.
 وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس.
 وحاطب بن الحارث وامرأته فكيهة بنت يسار.
 ومعمر بن الحارث بن معمر الجمحي.
 والسائب بن عثمان بن مظعون.
 والمطلب بن أزهري بن عبدمناف وامرأته رملة بنت أبي عوف.
 ونعيم بن عبدالله بن أسيد.
 وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر.
 وخالد بن سعيد.
 وأمينة بنت خلف.

وحاطب بن عمرو بن عبد شمس.
وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة.
وواقد بن عبد الله حليف بني عدي.
وخالد بن البكير وعامر بن البكير وعافل بن البكير وإياس بن البكير.
وعمار بن ياسر.
وضهيب بن سنان.
ثم دخل الناس في الإسلام جماعاتٍ من الرجال والنساء.
حتى فشا أمر الإسلام بمكة وتحدثت به الجزيرة.

عند ذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم.
 بعد ثلاث سنين من البعثة بأن يصدع بما أمر.
 وأن يصير على أذى المشركين.
 (فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)
 وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
 إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم.
 فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر يصلون بشعاب مكة.
 إذ ظهر عليهم بعض المشركين فأنكروا عليهم.
 وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم.
 فضرب سعد رجلاً من المشركين بعظمة جمل فشجّه.
 فكان أول دم أريق في الإسلام.
 وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بإبلاغ الرسالة إلى الخاص والعام:
 (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)
 (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)
 قال ابن عباس قال: لما أنزل الله (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)
 أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه.
 ثم نادى فاجتمع الناس إليه.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 يا بني عبدالمطلب يا بني فهر يا بني كعب:
 أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟
 قالوا نعم! قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.
 فقال عمه أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا دعوتنا؟
 وأنزل الله عز وجل: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ).
 وقال أبو هريرة لما نزلت هذه الآية: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)
 دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فعمّ وخصّ.
 فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار.

يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار.
يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار.
يا معشر بني عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار.
يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار.
فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً.
إلا أن لكم رحماً سألها ببالها.
وقالت عائشة رضي الله عنها لما نزل: (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)
قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
يا فاطمة بنت محمد.
يا صفيئة بنت عبدالمطلب.
يا بني عبدالمطلب لا أملك لكم من الله شيئاً.
سلوني من مالي ما شئتم.
وقال عليّ: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقال: يا عليّ إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتي.
فاصنع لنا يا عليّ شاة على صاع من طعام.
ثم اجمع لي بني عبدالمطلب.
قال: ففعلت فاجتمعوا له يومئذ وهم أربعون رجلاً.
فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب.
فأكل القوم حتى شبعوا.
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اسقهم يا علي.
فشربوا حتى نهلوا جميعاً.
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
يا بني عبدالمطلب:
إني والله ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به.
إني قد جئتمكم بأمر الدنيا والآخرة.

وجاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا:
 إن ابن أخيك هذا قد آذانا في نادينا ومسجدنا فأنه عنا.
 فقال: يا عقيل انطلق فائتني بمحمد.
 فانطلقتُ إليه فاستخرجته من حجرته.
 فجاء في الظهرية في شدة الحر.
 فلما أتاهم قال يا بن أخي:
 إن قومك قد جاءوني وقالوا كذا وكذا.
 فأبى عليّ وعلى نفسك ولا تحمّلي من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت.
 فاكفّف عن قومك ما يكرهون من قولك.
 فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قد بدا لعمه فيه.
 وأنه خاذله ومُسلّمه وضَعُف عن القيام معه.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري.
 ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه.
 ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكي.
 فلما ولى قال له حين رأى ما بلغ الأمر به:
 يا بن أخي فأقبل عليه.
 فقال امض على أمرتِ وافعل ما أحببتِ فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً.

عند ذلك بدأ إيذاء مشركي مكة الجسدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وقال أبو جهل: يا معشر قريش:
 إن محمداً قد أبلى إلا ما ترون من عيب ديننا.
 وشتم آباءنا وتسفيه أحلامنا وسب آلهتنا.
 وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر.
 فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه (يعني هشمته).
 فليصنع بعد ذلك بنو عبدمناف ما بدا لهم.
 فلما أصبح أبو جهل لعنه الله.
 أخذ حجراً ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره.
 وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام يصلي وكانت قبيلته الشام.
 وقد أصبحت قريش فجلسوا في أنديتهم ينتظرون.
 فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر.
 ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منبهتاً ممتعاً لونه مرعوباً.
 قد يبست يده على حجره حتى رمى الحجر من يده.
 وقامت إليه رجال من قريش.
 فقالوا له: ما بك يا أبا الحكم؟
 فقال قمتُ إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة.
 فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل.
 والله ما رأيت مثل هامته ولا أنيابه فهم أن يأكلني.
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ذلك جبريل ولو دنا مني لأخذه.
 وقال العباس بن عبدالمطلب:
 قال: كنت يوماً في المسجد.
 فأقبل أبو جهل فقال:
 إن لله عليّ إن رأيت محمداً ساجداً أن أطأ على رقبته.
 فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
 لو فعل لأخذته الملائكة عياناً.

ومر أبو جهل بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي .
 فقال: ألم أهلك أن تصلي يا محمد؟
 لقد علمت ما بما أحد أكثر نادياً مني .
 فانتهره النبي صلى الله عليه وسلم .
 ونزل قوله تعالى (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَدْعُ الرِّيَانِيَّةِ)
 وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه .
 قال: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على قريش .
 غير يوم واحد فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس .
 وسلاً جزور قريب منه .
 فقالوا: من يأخذ هذا السلاً فيلقيه على ظهره؟
 فقال عُقبة بن أبي مُعيط: أنا .
 فأخذه فألقاه على ظهره .
 فلم يزل ساجداً حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره .
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم عليك بهذا الملائ من قريش:
 اللهم عليك بعتبة بن ربيعة
 اللهم عليك بشيبة بن ربيعة
 اللهم عليك بأبي جهل بن هشام
 اللهم عليك بعقبة بن أبي معيط
 اللهم عليك بأبي بن خلف
 فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعاً .
 ثم سحبوا إلى القليب .
 وقال عبدالله بن عمرو بن العاص عن أشد شيء صنعته المشركون برسول الله:
 بينما النبي صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة .
 إذ أقبل عليه عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه على عنقه .
 فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبوبكر رضي الله عنه .
 حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم .
 وقال: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ).

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع لهم.
ورأوا أن عمه أبو طالب يدافع عنه.
مشى رجال من أشرف قريش إلى أبي طالب.
فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا.
وعاب ديننا وسقَّه أحلامنا وضلل آباءنا.
فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تخلِّي بيننا وبينه.
فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفك إياه؟
فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردَّهم رداً جميلاً.
وكانوا يمشون إلى أبي طالب كثيراً في هذا الأمر.
وذات مرة مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة.
فقالوا له يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد.
أجمل فتى في قريش فخذ فلك عقله ونصره.
واتخذه ولداً وأسلم إلينا ابن أخيك فنقتله رجلاً برحماً.
قال: والله لبئس ما تسؤموني؟ أعطوني ابنكم أعدوه لكم.
وأعطيكم ابني فتقتلونه! هذا والله ما لا يكون أبداً.
فقال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك.
وجهدوا على التخلص مما تكره.
فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً؟
فقال أبو طالب للمطعم: والله ما أنصفوني.
ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ فاصنع ما بدالك.
فاشتد الأمر وحميت الحرب وتنابد القوم ونادى بعضهم بعضاً.

ثم إن قريشاً اتفقوا بينهم على من في القبائل من أصحاب رسول الله.
الذين أسلموا معه.
فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم.
ومنع الله منهم رسوله صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب.
وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون.
قام في بني هاشم وبني عبدالمطلب.
فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه.
وأجابوه إلى ما دعاهم إليه.
إلا أبا لهب عدو الله.
ثم اجتمع أشراف قريش بعد غروب شمس عند ظُهر الكعبة.
فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه.
وخاصموا حتى تُعذروا فيه.
فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك.
فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً.
وهو يظن أنهم قد غيروا رأيهم فيه.
وكان حريصاً عليهم يحب رشدهم فجلس إليهم.
فقالوا: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك.
وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك.
لقد شتمت الآباء وعبت الدين وسفهت الأحلام.
وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة.
وما بقي من قبيح إلا وقد جثته فيما بيننا وبينك.
فإن كنت إنما جثت بهذا الحديث تطلب مالاً.
جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً.
وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا.
وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيك من الجن.
بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون.
ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم.
ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم.
ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً.
وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً.
فبلغتكم رسالة ربي ونصحتُ لكم.
فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة.
وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

ثم شرعت قريش في تحدي رسول الله.
 وفي تعجيزه بطلبات خارقة.
 فقالوا يا محمد:
 لقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيّق بلاداً.
 ولا أقلّ ماء ولا أشدّ عيشاً منا.
 فاسأل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به.
 فليسيرّ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا.
 وليسط لنا بلادنا.
 وليجرّ فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق.
 وليبعث لنا من مضي من آبائنا.
 فإن فعلت ما سألناك صدقناك.
 فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 ما بهذا بُعثت إليكم إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به.
 فقد بلغتكم ما أرسلتُ به إليكم.
 فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة.
 وإن تردوا عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.
 قالوا فإن لم تفعل لنا فاسأل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك بما تقول.
 وتسأله فيجعل لنا جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة.
 ويغنيك عما نراك تبتغي.
 فإنك تقوم في الأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه.
 فقال لهم: ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا.
 وما بُعثت إليكم بهذا.
 ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً.
 فإن قبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة.
 وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.
 قالوا فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل.

فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.
 فلما أكثروا في ذلك قام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم.
 وقام معه عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي.
 وهو ابن عمته عاتكة بنت عبدالمطلب.
 فقال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله.
 ثم سألك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل.
 ثم سألك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم فلم تفعل.
 ثم سألك أن تعجل ما تخوفهم به من العذاب.
 فوالله لا أومن لك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً.
 ثم ترقى منه وأنا أنظر حتى تأتيها وتأتي معك بنسخة.
 ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول.
 وإيم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك.
 ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله.
 حزينا أسفاً لما فاته بما طمع فيه من قومه حين دعوه:
 (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا
 أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارَ حِلالَهَا تَفْجِيرًا
 أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتِ عَلَيْنَا كَسَفًا
 أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا
 أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ
 وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ
 قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا
 وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى
 إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا
 قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ
 لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا).

ولما عجزت قريش فكثرت في أمر جديد.
 فبعثت النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط.
 إلى أحبار يهود بالمدينة.
 فقالوا لهما: سلوهما عن محمد.
 وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله.
 فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.
 فخرجوا حتى قدما المدينة.
 فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 ووصفا لهم أمره وبعض قوله.
 وقالوا إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.
 فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن.
 فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل.
 وإن لم يفعل فهو رجل متقول فروا فيه رأيكم:
 سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟
 وسلوه عن رجل طواف طاف مشارق الأرض ومغاربها.
 وسلوه عن الروح ما هي؟
 فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالوا:
 يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد.
 قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور فأخبراهم بها.
 فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد أخبرنا.
 فسألوه عما أمرهم به.
 فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 أخبركم غداً بما سألتهم عنه. ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله).
 فانصرفوا عنه.
 ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليالي لا يأتيه جبريل.
 حتى هاج أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً.

ومرت ليالي لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه.
وأحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخر الوحي عنه.
وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة.
ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بالكهف.
فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم.
وخبّر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف:
(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ
وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا).
ونزل قوله: (أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا
ثُمَّ قَالَ: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا).
وقال في سورة الإسراء: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ
قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا).

وازداد إيذاء قريش على من أسلم.
 مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه.
 فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين.
 فجعلوا يجسسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش.
 ويطرحونهم على حجارة مكة إذا اشتد الحر.
 ليفتنوهم عن دينهم فممنهم من يُفتن من شدة البلاء.
 ومنهم من يَصَلب لهم (يقاوم) ويعصمه الله منهم.
 فكان بلال بن رباح مولى لأمية بن خلف.
 وكان صادق الإسلام طاهر القلب.
 وكان أمية بن خلف يخرجها إذا حميت الظهيرة.
 فيطرحه على ظهره في صحراء مكة.
 ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره.
 ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد.
 فيقول: أأحدُّ أحد.
 فمر أبوبكر ببلال وهو يُعذب.
 فاشتراه من أمية بعبد له أسود.
 فأعتقه وأراحه من العذاب.
 وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه.
 إذا حميت الظهيرة يعذبونهم بصحراء مكة.
 فيمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول:
 صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة.
 وكانت أول شهيد في الإسلام سمية أم عمار.
 طعنها أبو جهل بحربة في قلبها.
 وهذا خباب بن الأرت قال:
 كنت رجلاً صانعاً.
 وكان لي على العاص بن وائل دَيْن.

فأتيته أتقاضاه فقال لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد.
فقلت لا والله لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تُبعث.
وقال خباب: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم.
وهو متوسد ببردة وهو في ظل الكعبة.
وقد لقينا من المشركين شدةً فقلت يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟
فقال: قد كان من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد.
ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه.
ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين.
ما يصرفه ذلك عن دينه.
والله ليتمّن الله هذا الأمر.
حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت.
ما يخاف إلا الله والذئب على غنمه.
ولكنكم تستعجلون.

وجاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله فقرأ عليه القرآن.
فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل.
فأنكر عليه وقال له قل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له.
قال وماذا أقول؟
والله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة.
وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وإنه ليعلو ولا يُعلى.
فقال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.
قال قف عني حتى أفكر فيه فلما فكر قال:
إن هذا إلا سحر يؤثر بأثره عن غيره.
ثم اتفقت قريش على أن يقولوا هو ساحر.
يفرق بين المرء ودينه وبين المرء وأبيه.
وبين المرء وزوجته وبين المرء وأخيه.
وبين المرء وعشيرته.
وراحوا يجلسون للناس في الحج.
لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه.
وذكروا لهم أمره وأنزل الله في الوليد:
(ذُرِّي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَيِّنَ شُهُودًا).

ولما ازداد أذى المشركين للمستضعفين من المؤمنين.
أذن الله لهم في الهجرة إلى الحبشة.
فخرجوا إليها في رجب سنة خمس من البعثة.
وكانوا ثلاثة وثمانين رجلاً سوى نساءهم وأولادهم.
فيهم عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فجاءوا ساحل البحر فاستأجروا سفينة إلى الحبشة.
وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:
لو خرجتم إلى أرض الحبشة؟
فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد.
فكانت أول هجرة في الإسلام.
وعندما خرج عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية.
أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم خبرهما.
فقدمت امرأة من قريش فقالت:
يا محمد قد رأيتُ صهرك ومعه امرأته.
قال: على أي حال رأيتهما؟
قالت رأيتُه قد حمل امرأته على حمار.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
صحبهما الله إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام.
وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة في هجرة ثانية.
وكان جعفر بن أبي طالب فيمن خرج ثانياً.

اجتمع المهاجرون عند ملك الحبشة النجاشي.
فأكرم وفادتهم.
ولما علمت قريش بذلك أخذتهم الغيرة.
فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي بهدية.
فلما دخلا عليه سجدا له.
ثم قالوا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا.
قال فأين هم؟ قالوا: في أرضك فابعث إليهم.
فبعث إليهم ولما حضر المهاجرون قال لهم جعفر:
أنا خطيبكم اليوم فأطاعوه.
فدخل جعفر فسلم ولم يسجد.
فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟
قال إنا لا نسجد إلا لله عز وجل.
قال الملك وما ذاك؟
قال جعفر إن الله بعث إلينا رسولاً.
ثم أمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل وأمرنا بالصلاة والزكاة.
قال عمرو للملك: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم.
قال النجاشي فما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟
قال نقول كما قال الله: هو كلمته وروحه ألقاها إلى العذراء البتول.
التي لم يمسهما بشر.
فرفع النجاشي عوداً من الأرض ثم قال:
يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان.
والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا.
مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده.
أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وأنه الذي نجد في الإنجيل.
وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم.

انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته.
حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه.
وأمر بهديّة الآخرين فزُدت إليهما.
وقال اخرجوا من بلادي فخرجوا مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به.
وأقام المهاجرون مع خير جار في خير دار.

ثم اشتد أذى المشركين على المسلمين .
 حتى بلغ المسلمين الجهدُ واشتد عليهم البلاء .
 وأعلنت قريش أنها تنوي قتل رسول الله .
 فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبدالمطلب .
 وأمرهم أن يُدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شِعْبهم .
 وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله .
 فاجتمع على ذلك مسلمُهم وكافرُهم .
 فمنهم من فعله حميةً ومنهم من فعله إيماناً و يقيناً .
 فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .
 اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم على :
 ألا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم .
 حتى يسلموا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم للقتل .
 وكتبوا صحيفةً بالألا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً .
 ولا يأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل .
 فلبث بنو هاشم في شِعْبهم ثلاث سنين .
 واشتد عليهم البلاء والجهد .
 وقطعوا عنهم الأسواق فلا يتركون لهم طعاماً يقدم مكة .
 ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه .
 يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم .
 أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضطجع على فراشه .
 حتى يرى ذلك من أراد به مكرراً واغتيالاً له .
 فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوته أو بني عمه .
 فاضطجعوا على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بعض فرشهم فينام عليه .
 فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبدمناف .

ومن قصي ورجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بني هاشم.
ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق.
واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر والبراءة منه.
وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد وميثاق.
وكانت معلقة في سقف الكعبة فلم تترك اسماً لله فيه إلا لحسته.
وبقي ما كان فيها من شرك وظلم وقطيعة رحم.
وأطلع الله عز وجل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم.
فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب.
فانطلق أبو طالب يمشي بقومه من بني عبدالمطلب.
حتى أتى المسجد وهو ممتلىء من قريش.
فلما رأوهم قاصدين جماعتهم أنكروا ذلك.
وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء فأتوهم ليعطوهم رسول الله.
فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم.
فأثتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها.
فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح.
وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها.
فأثتوا بصحيفتهم معجبين بها.
لا يشكون أن رسول الله مدفوع إليهم فوضعوها بينهم.
وقالوا: قد آن لكم أن تقبلوا وترجعوا إلى أمر يجمع قومكم.
فإنما قطع بيننا وبينكم رجل واحد.
جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.
فقال أبو طالب: إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه إنصاف.
إن ابن أخي أخبرني أن الله برئ من هذه الصحيفة التي في أيديكم.
ومحا كل اسم هو له فيها.
وترك فيها غدركم وقطيعتكم إيانا وتظاهركم علينا بالظلم.
فإن كان كما قال فأفيقوا.
فوالله لا نُسلمه أبداً حتى يموت من عندنا آخرنا.
وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه أو استحيتتم.
قالوا: قد رضينا بالذي تقول.

ففتحو الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق قد أخبر خبرها.
فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا:
والله إن هذا إلا سحر من صاحبكم.
فارتكسوا وعادوا بشرّ ما كانوا عليه من كفرهم.
والشدة على رسول الله وعلى المسلمين.
وبينما بنو هاشم وبنو المطلب في الشّعب الذي حبستهم فيه قريش.
سعى في نقض الصحيفة نفر من قريش.
فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم.
فقالوا: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب.
وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون ولا يبتاع منهم.
والله لا نقعد حتى تُشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.
فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد والله لا تُشق.
إن هذا أمر قد قضي بليل.
وأبو طالب جالس في ناحية المسجد.
وقام المطعم بن عديّ إلى الصحيفة فشقها ومزقها.

وقالت السيدة عائشة رضي الله عنها:
 لم أعقل أبواي قط إلا وهما يدينان الدين.
 ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله بكرة وعشية.
 فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة.
 حتى إذا بلغ ساحل البحر لقيه ابنُ الدَّعْنَةَ وهو سيد قبيلة القارة.
 فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي.
 فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي.
 فقال ابن الدَّعْنَةَ: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج.
 وأنا لك جار فارجع فأعبد ربك ببلدك.
 فرجع وارتحل معه ابن الدَّعْنَةَ.
 وطاف ابن الدَّعْنَةَ عشيةً في أشراف قريش فقال لهم:
 إن أبا بكر لا يُخرج مثله ولا يُخرج.
 فلم تكذب قريش بجوار ابن الدَّعْنَةَ.
 وقالوا لابن الدَّعْنَةَ مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به.
 فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.
 فقال ابن الدَّعْنَةَ ذلك لأبي بكر.
 فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره.
 ولا يستعلن بصلاته ولا يقرأ في غير داره.
 ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره.
 وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن فيتدافع إليه نساء المشركين وأبناؤهم.
 يعجبون منه وينظرون إليه.
 وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.
 فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين.
 فأرسلوا إلى ابن الدَّعْنَةَ فقدم عليهم.
 فقالوا: إنا كنا أجزنا أبا بكر بجوارك.
 على أن يعبد ربّه في داره.

فقد جاوز ذلك فابتنى مسجداً بفناء داره.
فأعلن الصلاة والقراءة فيه.
وأنا قد خشينا أن يفتتن أبناؤنا ونساءؤنا.
فأتمه على أن يعبد ربه في داره.
وإن أبي فاسأله أن يردّ عليك ذمتك.
فإننا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان.
قالت عائشة: فأتى ابنُ الدَّغْنَةِ إلى أبي بكر.
فقال: قد علمت الذي قد عاقدت عليه قريش.
فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن ترد إليّ ذمتي.
فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له.
فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله.

وكان سبب إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي .
 وكان سيداً مطاعاً شريفاً في قومه دوس .
 أنه قدم مكة فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله .
 ونهوه أن يجتمع به أو يسمع كلامه .
 قال فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه .
 حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد بالقطن .
 فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة .
 فقمتم منه قريباً فأبى الله إلا أن يُسمعني بعض قوله .
 فسمعت كلاماً حسناً .
 فقلت في نفسي وأتكلل أُمي .
 والله إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح .
 فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول !
 فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته .
 فمكثت حتى انصرف رسول الله إلى بيته فاتبعته .
 حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت : يا محمد .
 إن قومك ما برحوا بي يخوفوني أمرك .
 ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك .
 فسمعت قولاً حسناً فاعرض عليّ أمرك .
 فعرض عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام .
 وتلا عليّ القرآن .
 فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه .
 فأسلمت وشهدت شهادة الحق .
 وقلت : يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي .
 وإني راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام .
 فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه .
 فقال : اللهم اجعل له آية .

فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت قريباً منهم.
وقع بين عيني نور مثل المصباح.
فقلت: اللهم في غير وجهي.
فإني أخشى أن يظنوا أنها عقوبة وقعت في وجهي لفراقي دينهم.
فتحول فوقع في رأس سوطي.
فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في رأس سوطي.
كالقنديل المعلق وأنا أهبط عليهم من الثنية.
حتى جئتهم فأصبحت فيهم.
فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً فقلت:
إليك عني يا أبي فلستُ منك ولستَ مني.
قال ولم يا بني؟ قلت: أسلمت وتابعت دين محمد.
قال: أي بني فدينك ديني.
فقلت: فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم اتني حتى أعلمك ما علمت.
فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء فعرضت عليه الإسلام فأسلم.
ثم أتني زوجتي فقلت: إليك عني فلستُ منك ولستَ مني.
قالت: ولم؟ بأبي أنت وأمي.
قلت قد فرق بيني وبينك الإسلام وتابعت دين محمد.
قالت فديني دينك.
فقلت فاذهبي فتطهري فذهبتُ فاغتسلتُ ثم جاءت.
فعرضت عليها الإسلام فأسلمت.
ثم دعوت دوساً إلى الإسلام فأبطأوا عليّ.
ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة.
فقلت يا رسول الله إنه قد غلبني على دوس الزنا فادع الله عليهم.
قال: اللهم اهد دوساً واث بهم.
وقال ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم.
فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الإسلام.
حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن أسلم معي من قومي.

ولما اشتد أذى المشركين برسول الله صلى الله عليه وسلم.
 شاء الله أن يخفف عن حبيبه ويثبت فؤاده.
 فأسرى به في رحلة ربانية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
 ليريه من آياته ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم.
 وقدرته التي يصنع بها ما يريد.
 قال عبدالله بن مسعود:
 أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق.
 وهي الدابة التي كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله.
 توضع حافرها في موضع منتهى طرفها.
 فحُمل عليها ثم خرج به صاحبه يرى الآيات فيما بين السماء والأرض.
 حتى انتهى إلى بيت المقدس.
 فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء قد جُمعوا له.
 فصلى بهم ثم أتى بثلاثة آنية: من لبن وخمر وماء.
 فشرب إناء اللبن فقال له جبريل هديت وهديت أمتك.
 ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة.
 فأصبح يخبر قريشاً بذلك.
 فكذبه أكثر الناس وارتدت طائفة بعد إسلامها.
 وبادر الصديق إلى التصديق وقال إني لأصدقك في خبر السماء بكرة وعشية.
 أفلا أصدقك في بيت المقدس.
 وذكر أن الصديق سأله عن صفة بيت المقدس.
 فذكرها له رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 قال فيومئذ سمي أبوبكر الصديق.
 قال الحسن وأنزل الله في ذلك: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ)
 وقالت أم هانئ: ما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من بيتي.
 نام عندي تلك الليلة بعدما صلى العشاء الآخرة.
 فلما كان قبيل الفجر أيقظنا فلما صلى الصبح وصلينا معه.

قال: يا أم هاني لقد صليتُ معكم العشاء الآخرة في هذا الوادي.
ثم جئتُ بيتَ المقدس فصليتُ فيه.
ثم قد صليتُ الغداة معكم الآن كما ترين.
ثم قام ليخرج فأخذتُ بطرف رداءه فقلت يا نبي الله:
لا تحدّث بهذا الحديث الناس فيكذبوك ويؤذوك.
قال: والله لأحدثنهموه فأخبرهم فكذبوه.
فقال: وآية ذلك أني مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا.
فأنفرهم حس الدابة فند لهم بعيرٌ فدللتهم عليه وأنا متوجه إلى الشام.
ثم أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان.
فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء قد غطوا عليه بشيء.
فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثم غطيت عليه كما كان.
وآية ذلك أن عيرهم تصوب الآن من ثنية التنعيم البيضاء.
يقدمها جمل أورق عليه غرارتان إحداهما سوداء والأخرى بقاء.
قال: فابتدر القوم الثنية فلم يلقيهم أول من الحمل الذي وصف لهم.
وسألوهم عن الإناء وعن البعير فأخبروهم كما ذكر صلوات الله وسلامه عليه.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
لما فرغت مما كان في بيت المقدس أتيت بالمعراج.
ولم أر شيئاً قط أحسن منه.
فأصعدني فيه صاحبي.
فصعد من سماء إلى سماء في المعراج.
حتى جاوز السابعة.
وكلما جاء سماء تلقته منها مقربوها ومن فيها من أكابر الملائكة والأنبياء.
آدم في سماء الدنيا.
ويحيى وعيسى في الثانية.
وإدريس في الرابعة.
وموسى في السادسة.
وإبراهيم في السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور.
الذي يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة.
يتعبدون فيه صلاة وطوافاً ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة.

ثم جاوز مراتبهم كلهم حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام.
ورفعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سدرة المنتهى.
وإذا ورقها كآذان الفيلة.
ونبقها كقلال هجر.
وغشيها عند ذلك أمور عظيمة ألوان متعددة باهرة.
ورأى هناك جبريل عليه السلام له ستمائة جناح.
ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض.
وهو الذي يقول الله تعالى:
(وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ
إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَعَىٰ).
وفرض الله سبحانه وتعالى على عبده محمد صلى الله عليه وسلم.
وعلى أمته الصلوات ليلتذ خمسين صلاة في كل يوم وليلة.
ثم لم يزل يختلف بين موسى وبين ربه عز وجل.
حتى وضعها الرب جل جلاله وله الحمد والمنة إلى خمس.
وقال هي خمس وهي خمسون الحسنة بعشر أمثالها.
فحصل له التكليم من الرب عز وجل ليلتذ.
وقد عاين في تلك الليلة من الآيات والأمور التي لو رآها غيره.
لأصبح مندهشاً أو طائش العقل.
ولكنه صلى الله عليه وسلم أصبح ساكناً.
يخشى إن بدأ فأخبر قومه بما رأى أن يبادروا إلى تكذيبه.
فتلطف بإخبارهم أولاً بأنه جاء بيت المقدس في تلك الليلة.
وذلك أن أبا جهل رأى رسول الله في المسجد الحرام وهو جالس واجم.
فقال له: هل من خبر؟ فقال نعم! فقال: وما هو؟
فقال إني أسري بي الليلة إلى بيت المقدس.
قال إلى بيت المقدس؟ قال نعم!
قال رأيت إن دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرني به؟
قال نعم فأراد أبو جهل جمع قريش ليسمعوا منه ذلك.
وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم ليخبرهم ذلك ويبلغهم.
فقال أبو جهل: هيا معشر قريش وقد اجتمعوا من أنديتهم.

فقال: أخبر قومك بما أخبرتني به.
فقص عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى.
وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة وصلى فيه.
فمن بين مصفق وبين مصفر تكذيباً له واستبعاداً لخبره.
وطار الخبر بمكة وجاء الناس إلى أبي بكر رضي الله عنه فأخبروه.
فقال: إنكم تكذبون عليه فقالوا والله إنه ليقوله.
فقال: إن كان قاله فلقد صدق.
ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وحوله مشركو قريش فسأله عن ذلك فأخبره.
فاستعلمه عن صفات بيت المقدس لیسمع المشركون.
ويعلموا صدقه فيما أخبرهم به.
قال صلى الله عليه وسلم: فجعلت أخبرهم عن آياته.
فالتبس عليّ بعض الشيء.
فجلى الله لي بيت المقدس حتى جعلت أنظر إليه وأنعته لهم.
فأقام الله عليهم الحجّة واستنارت لهم الحجّة.
(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

وقد انشق القمر في زمان النبي صلى الله عليه وسلم.
وجعل الله ذلك آية على صدق رسوله
فيما جاء به من الهدى ودين الحق.

(اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أُمَّرٍ مُّسْتَقَرٌّ).

وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام.
وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة.
قال أنس بن مالك: سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم آية.
فانشق القمر بمكة شقين حتى رأوا جبل حراء بينهما.
فقال قريش: سحرنا محمد.

فرد عليهم أصحاب العقول: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم.
فقالوا: انظروا ما يأتيكم به المسافرون؟
فجاء المسافرون من كل وجهة فقالوا: رأينا ذلك.

وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 في مَنَعَة وَعِزَّة في حياة عمه أبي طالب.
 فلما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله.
 حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.
 فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه.
 فقامت إليه إحدى بناته تغسله وتبكي.
 ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
 لا تبكي يا بنية فإن الله مانعُ أبائك.
 وقال: ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب.
 وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين.
 ولما اشتكى أبو طالب في مرض الموت.
 وبلغ قريشاً ثقله قالت قريش بعضها لبعض:
 إن حمزة وعمر قد أسلما.
 وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها.
 فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا.
 فإننا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا.
 فمشوا إلى أبي طالب وكلموه فقالوا:
 يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت.
 وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك.
 وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك.
 فادّعه فخذ لنا منه وخذ له منا.
 ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه.
 فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال:
 يا ابن أخي هؤلاء أشرف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 نعم .. كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم.

فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات.
قال: تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه.
فصفقوا بأيديهم واعترضوا.
فقال أبو طالب: والله يا بن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً.
فطمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه.
فجعل يقول له: أي عم فأنت قلها أستحلّ لك بها الشفاعة يوم القيامة.
فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
يا بن أخي والله لولا مخافة السُّبّة عليك وعلى بني أبيك من بعدي.
وأن تظن قريش أنني إنما قتلتها جزعاً من الموت لقلتها.
لا أقولها إلا لأسرّك بها.
ثم مات أبو طالب.
يقول عليّ: لما توفي أبي.
أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت إن عمك قد توفي.
فدفنه النبي ومعه عليّ.
ولما عاد من جنازة أبي طالب قال: وصلتَ رحمك وجزيت خيراً يا عم.

ثم ماتت خديجة بمكة.
 ماتت هي وأبو طالب في عام واحد.
 سمّاه المسلمون عامَ الحزن.
 يقول حكيم بن حزام: توفيت خديجة في شهر رمضان.
 سنة عشر من النبوة وهي يومئذ بنت خمس وستين.
 ودفنّاها بالحجون ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرتها.
 وذلك قبل الهجرة بسنوات ثلاث.
 إنّها خديجة رضي الله عنها.
 التي جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه طعام.
 فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومني.
 وبشّرها بيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.
 إنّها خديجة التي قالت عنها عائشة رضي الله عنها:
 ما غرّتُ على امرأة للنبي صلى الله عليه وسلم ما غرّتُ على خديجة.
 لما كنت أسمعها يذكرها وأمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب.
 وإن كان ليزبح الشاة فيهدّي في صديقاتها منها ما يسعهن.
 هذه هي خديجة التي كانت رضي الله عنها.
 أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وأولاده كلهم منها غير إبراهيم بن مارية.
 وكانت وزيرة صدق للنبي صلى الله عليه وسلم.
 وكانت تُدعى في الجاهلية الطاهرة.
 وكانت تُكنى أم هند بولدها من زوجها أبي هالة.
 إنّها خديجة التي كان يقول عنها:
 إنّها كانت وكانت وكان لي منها الولد.
 إنّها خديجة التي قالت عائشة: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة.
 على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف استئذان خديجة.

فارتاع فقال: اللهم هالة .
قالت فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش.
حمراء الشدقين هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها.
فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تغيراً لم أره تغير عند شيء قط.
وقال: ما أبدلني الله خيراً منها.
وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس.
وصدقتني إذ كذبني الناس.
وآستني بما لها إذ حرمني الناس.
ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء.
إنها خديجة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم:
خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد.
وقال: كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث.
مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد.
رضي الله عنها وأرضاها.
ورضي عنا بحبنا إياها.

وبعد موت خديجة رضي الله عنها.
أمر الله رسوله بالزواج من عائشة.
ولما تزوجها قال لها: أريتك في المنام مرتين.
أرى أنك في سرقة من حرير ويقول هذه امرأتك.
فأكشف عنها فإذا هي أنت فأقول إن كان هذا من عند الله يمضه الله.
ولم ينكح النبي صلى الله عليه وسلم بكرة غيرها.
ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة إلى أبي بكر.
فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوك.
فقال: أنت أخي في دين الله وكتابه وهي لي حلال.
وخطب رسول الله عائشة وهي بنت ست سنين.
ودخل بها وهي بنت تسع.
ومات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة بنت ثمانية عشرة سنة.
خطبها في مكة ودخل بها بعد الهجرة بستين.
وكانت أحب نساءه إليه.

فلما مات أبو طالب ونالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 من الأذى ما لم تكن نالته منه في حياة عمه أبي طالب.
 خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف.
 يلتمس من ثقيف النصرة والمنعة بهم من قومه.
 ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تعالى فخرج إليهم وحده.
 ولما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف.
 عمد إلى نفر من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرفهم.
 وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل ومسعود وحبيب بن عمرو بن عمير.
 فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم لما جاءهم له.
 من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه.
 فقال أحدهم: أما وجد الله أحداً أرسله غيرك؟
 وأسمعوه كلاماً غليظاً.
 فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم.
 وقد يؤس من خير ثقيف.
 وقال لهم إن فعلتم ما فعلتم فاكموا عليّ.
 وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيجرئهم ذلك عليه.
 فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويضحون به.
 حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعنتة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة.
 ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه.
 فعمد إلى ظل شجرة عنب فجلس فيه.
 وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقي من سفهاء أهل الطائف.
 ولما اطمان قال: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي.
 وهواني على الناس يا أرحم الراحمين.
 أنت رب المستضعفين وأنت ربي.
 إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري.
 إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي.

ولكن عافيتك هي أوسع لي.
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات.
وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك.
أو تُنزل عليّ سخطك لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك.
فلما رآه ابنا ربيعة عتبه وشيبة وما لقي تحركت له قرابتهما.
فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس.
وقالا له خذ قطعاً من هذا العنب فضعه في هذا الطبق.
ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه.
ففعّل عداس ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله.
ثم قال له: كل فلما وضع رسول الله يده فيه قال:
بسم الله ثم أكل ثم نظر عداس في وجهه ثم قال:
والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن أهل أي بلاد أنت؟
قال أنا نصراني من أهل نينوى.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرية الرجل الصالح يونس بن متى.
فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي.
فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه.
فقال أبناء ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك.
فلما جاء عداس قال له: ويلك يا عداس!
مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟
قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا.
لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي.
قالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنك عن دينك فإن دينك خير من دينه.
وقالت عائشة رضي الله عنها إنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم:
هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟
قال: ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة.
إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل فلم يجبني إلى ما أردت.
فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب.

فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني.
فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فناداني فقال:
إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك.
وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.
ثم ناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد!
إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال.
قد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت.
إن شئت تطبق عليهم الأخشبين؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أرجو أن يخرج الله من أصلاهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً.
ولما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الطائف
وقد ازداد قومه عليه حنقاً وغيظاً وجرأة وتكديباً وعناداً.
فدخل في جوار المطعم بن عديّ.
وذهب فبات عنده تلك الليلة.
فلما أصبح خرج معه هو وبنوه متقلدي السيوف جميعاً.
فدخلوا المسجد وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: طف.
وقال لبنيه احتبوا بحمائل سيوفكم في المطاف.
وظلوا معه حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم طوافه.
فلما انصرف انصرفوا معه.

ثم بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه الكريمة.
 على أحياء العرب في مواسم الحج.
 يدعوهم إلى الله عز وجل ويخبرهم أنه نبي مرسل.
 ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به.
 فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 يقف على منازل القبائل من العرب في منى.
 فيقول: يا بني فلان إني رسول الله إليكم.
 أمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً.
 وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد.
 وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به.
 ويمشي خلفه عمّه أبو لهب فيقول:
 لا تطيعوه ولا تسمعوا منه إنه صابئ كاذب.
 ويتبعه حيث ذهب فيقول ذلك.
 فلم يقبله أحد منهم وقالوا أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه ولفظوه؟
 وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم إلى قبيلة كندة.
 فأتاهم فقال ممن القوم؟ قالوا من أهل اليمن.
 قال من أي اليمن؟ قالوا من كندة.
 قال من أي كندة؟ قالوا من بني عمرو بن معاوية.
 قال فهل لكم إلى خير؟ قالوا وما هو؟
 قال: تشهدون أن لا إله إلا الله وتقيمون الصلاة وتؤمنون بما جاء من عند الله.
 فقالوا له: إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك؟
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 إن الملك لله يجعله حيث يشاء.
 فقالوا لا حاجة لنا فيما جئتنا به.
 فانصرف من عندهم فأتى بكر بن وائل فقال ممن القوم؟
 قالوا من بكر بن وائل.

فقال من أي بكر بن وائل؟ قالوا من بني قيس بن ثعلبة.
قال كيف العدد؟ قالوا كثير مثل الشرى.
قال فكيف المنعة؟ قالوا لا منعة.
جاورنا فارسَ فنحن لا نمتنع منهم ولا نجير عليهم.
قال: فتجعلون لله عليكم إن هو أبقاكم.
حتى تنزلوا منازلهم وتستنكحوا نساءهم وتستعبدوا أبناءهم.
أن تعبدوا الله.
قالوا ومن أنت؟ قال أنا رسول الله.
ثم انطلق فلما ولى عنهم وكان عمه أبو لهب يتبعه.
فيقول للناس لا تقبلوا قوله.
ثم مر أبو لهب فقالوا هل تعرف هذا الرجل؟
قال نعم هذا في الذروة منا فعن أي شأنه تسألون؟
فأخبروه بما دعاهم إليه وقالوا زعم أنه رسول الله.
فقال: إنه مجنون يهذي من أم رأسه.
فقالوا قد رأينا ذلك حين ذكر من أمر فارس ما ذكر.
ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سوق عكاظ قوماً.
فقال ممن القوم؟ قالوا من بني عامر بن صعصعة.
قال من أي بني عامر بن صعصعة؟ قالوا بنو كعب بن ربيعة.
قال كيف المنعة فيكم؟ قالوا لا يرام ما قبلنا ولا يُسطلى بنا رناً.
فقال لهم: إني رسول الله وآتيكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي.
قالوا ومن أي قريش أنت؟ قال من بني عبدالمطلب.
قالوا فأين أنت من عبدمناف؟ قال هم أول من كذبني وطردي.
قالوا ولكننا لا نظردك ولا نؤمن بك.
وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك.
قال فنزل إليهم والقوم يتسوقون.
إذ أتى أحدهم فقال من هذا الرجل أراه عندهم؟
قالوا محمد بن عبدالله القرشي.
قال فما لكم وله؟ قالوا زعم لنا أنه رسول الله.
وطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه.

قال وماذا رددم عليه؟ قالوا بالترحيب والسعة.
نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع به أنفسنا.
فقال: ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد مما ترجعون به.
تريدون أن تنابذوا الناس وترميكم العرب عن قوس واحدة.
قومه أعلم به لو أنسوا منه خيراً لكانوا أسعد الناس به.
أتعمدون إلى زهيق قد طرده قومهم وكذبوه فتؤوونهم وتنصرونهم؟
ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
قم فالحق بقومك فوالله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك.
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها.
فغمز الخبيث شاكرتها فقمصت برسول الله صلى الله عليه وسلم فألقته.

وحكى عليُّ بنُ أبي طالب فقال:
لما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب.
خرج وأنا معه وأبوبكر إلى منى.
حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب.
فتقدم أبوبكر رضي الله عنه فسلم.
وكان أبوبكر مقدماً في كل خير.
وكان رجلاً نساباً فقال: ممن القوم؟ قالوا من بني شيبان بن ثعلبة.
فالتفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
بأبي أنت وأمي ليس بعد هؤلاء من عز في قومهم.
هؤلاء غرر في قومهم وهؤلاء غرر الناس.
وكان في القوم مفروق بن عمرو وقد غلب عليهم بياناً ولساناً.
وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر.
فقال له أبوبكر: كيف العدد فيكم؟
فقال له إنا لنزيد على ألف ولن تغلب ألف من قلة.
فقال له: فكيف المنعة فيكم؟ فقال: علينا الجهد ولكل قوم جد.
فقال أبوبكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟
فقال مفروق إنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب.
وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح.
والنصر من عند الله يدلنا مرة ويديل علينا أخرى.
لعلك أخو قريش؟
فقال أبوبكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله فهذا هو هذا.
فقال مفروق قد بلغنا أنه يذكر ذلك فيلام تدعو يا أبا قريش؟
ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فجلس وقام أبوبكر يظلمه بثوبه فقال صلى الله عليه وسلم:
أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
وأني رسول الله وأن تؤووني وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به.

فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله وكذبت رسوله.
 واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد.
 قال له وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟
 فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)
 إلى قوله تعالى: (ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).
 فقال له مفروق: وإلى ما تدعو أيضاً يا أخا قريش؟
 فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ولو كان من كلامهم لعرفناه.
 فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
 وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ
 يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).
 فقال له مفروق: دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق.
 ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك.
 وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة فقال:
 وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.
 فقال له هانئ: قد سمعتُ مقالتك يا أخا قريش وصدقْتُ قولك.
 وإني أرى أن تزكنا ديننا واتباعنا إياك على دينك.
 لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر.
 لم نتفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه زلة في الرأي.
 وطيشة في العقل وقلة نظر في العاقبة وإنما تكون الزلة مع العجلة.
 وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً.
 ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر.
 وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثني بن حارثة فقال:
 وهذا المثني شيخنا وصاحب حرينا.
 فقال المثني: قد سمعتُ مقالتك واستحسنْتُ قولك يا أخا قريش.
 وأعجبني ما تكلمت به.
 والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق.
إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه .

وقال ميسرة بن مسروق العبسي: جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 في منازلنا بمجى ونحن نازلون بإزاء الجمرة الأولى التي تلي مسجد الخيف.
 وهو على راحلته مردفاً خلفه زيد بن حارثة.
 فدعانا فوالله ما استجبنا له.
 وقد كنا سمعنا به وبدعائه في المواسم.
 فوقف علينا يدعونا فلم نستجب له.
 وكان معنا ميسرة بن مسروق العبسي.
 فقلت: أحلف بالله لو قد صدقنا هذا الرجل وحملناه لكان نعم الرأي.
 وأحلف بالله ليظهرن أمره حتى يبلغ كل مبلغ.
 فقال القوم دعنا منك لا تعرضنا لما لا قبل لنا به.
 وطمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ميسرة فكلمه.
 فقال ميسرة: ما أحسن كلامك وأنوره.
 ولكن قومي يخالفونني وإنما الرجل بقومه.
 فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وخرج القوم صادرين إلى أهليهم.
 فقال لهم ميسرة: ميلوا نأتي فذك فإن بها يهوداً نسائلهم عن هذا الرجل.
 فمالوا إلى يهود فأخرجوا سفراً لهم فوضعوه.
 ثم ذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 النبي الأمي العربي يركب الحمار ويجترئ بالكسرة.
 ليس بالطويل ولا بالقصير ولا بالجعد ولا بالسبط.
 وفي عينيه حمرة مشرق اللون.
 فإن كان هو الذي دعاكم فأجيبوه وادخلوا في دينه.
 فإننا نحسده ولا نتبعه وإنما منه في موطن بلاء عظيم.
 ولا يبقى أحد من العرب إلا اتبعه وإلا قاتله فكونوا ممن يتبعه.
 فقال ميسرة: يا قوم ألا إن هذا الأمر بيّن.
 فقال القوم نرجع إلى الموسم ونلقاه.

فرجعوا إلى بلادهم حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً.
وحج حجّة الوداع فلقية ميسرة فعرفه.
فقال: يا رسول الله والله ما زلت حريصاً على اتباعك من يوم أنخت بنا.
حتى كان ما كان وأبى الله إلا ما ترى من تأخر إسلامي.
وقد مات عامة النفر الذين كانوا معي.
فأين مدخلهم يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
كل من مات على غير دين الإسلام فهو في النار.
فقال: الحمد لله الذي أنقذني.
فأسلم وحسن إسلامه وكان له عند أبي بكر مكان.

ولما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز وعده له.
 خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم.
 الذي لقيه فيه النفر من الأنصار.
 فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم.
 فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.
 ولما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم من أنتم؟
 قالوا نفر من الخزرج.
 قال: أمن موالي يهود؟ قالوا نعم!
 قال أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى.
 فجلسوا معه فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.
 وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كان معهم في بلادهم.
 وكانوا أهل كتاب وعلم.
 وكانوا هم أهل شرك أصحاب أوثان.
 وكانوا قد غزوههم ببلادهم.
 فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا إن نبياً مبعوث الآن.
 قد أظل زمانه نتبعه نقتلكم معه قتل عاد وإرم.
 فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ودعاهم إلى الله.
 قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبي الذي توعدكم به يهود.
 فلا يسبغنكم إليه.
 فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.
 وقالوا له: إنا تركنا قومنا وبيئتهم من العداوة والشر ما بينهم.
 وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك.
 ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين.
 فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك.
 ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا.

وكانوا ستة نفر كلهم من الخزرج.
فأسلموا وواعدوه إلى العام المقبل.
فرجعوا إلى قومهم فدعوهم إلى الإسلام.
وأرسلوا إلى رسول الله معاذ بن عفراء ورافع بن مالك.
أن ابعث إلينا رجلاً يفقهنا.
فبعث إليهم مصعب بن عمير.
فنزل على أسعد بن زرارة حتى فشا فيهم الإسلام.
ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

حتى إذا كان العام المقبل جاء الموسم من الأنصار.
 اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج.
 اجتمعوا برسول الله في العقبة الأولى فبايعوه عندها.
 قالوا: فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا نشرك بالله شيئاً.
 ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا.
 ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف.
 ثم جاءوا في العقبة الثانية وكانوا أكثر من المرة الأولى.
 قال كعب بن مالك: فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا.
 حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا.
 لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 نتسلل تسلل القطا مستخفين.
 حتى اجتمعنا في الشَّعب عند العقبة.
 ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا.
 قال كعب بن مالك:
 فلما اجتمعنا في الشعب نتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 حتى جاءنا ومعه العباس بن عبدالمطلب.
 وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له.
 فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبدالمطلب فقال:
 يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث قد علمتم.
 وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه.
 فهو في عزة من قومه ومنعة في بلده.
 وإنه قد أبا إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم.
 فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه ممن خالفه.
 فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه.
 بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.
 فقلنا له: قد سمعنا ما قلت: فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن.
ودعا إلى الله ورغب في الإسلام.
قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.
فأخذ البراء بن معرور بيده وقال نعم!
فوالذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أبناءنا.
فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل السلاح ورثناه كابراً عن كابر.
قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله أبو الهيثم بن التيهان.
فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبلاً وإنا قاطعوها.
وكان يقصد اليهود.
فهل عسيت إن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟
قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال:
بل الدمّ الدمّ والهدمّ الهدمّ أنا منكم وأنتم مني.
أحارب من حاربتكم وأسالم من سالمتم.
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونوا على قومهم بما فيهم.
فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً.
فقال للنقباء: أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحوارين لعيسى ابن مريم وأنا كفيل
على المسلمين.
وبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في النشاط والكسل.
والنفقة في العسر واليسر.
وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
وعلى أن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم.
وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قدم علينا يثرب.
مما تمنع به أنفسنا وأرواحنا وأبناءنا ولنا الجنة.
فهذه بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي بايعناه عليها.
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارجعوا إلى رجالكم.
فقال العباس بن عباد بن نضلة: يا رسول الله والذي بعثك بالحق.
إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فانا؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رجالكم.

قال فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا فيها حتى أصبحنا.
فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا في منازلنا.
فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا.
تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا.
وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم.
فانبعث من هناك من مشركي قومنا يملفون ما كان من هذا شيء وما علمناه.
وصدقوا فلم يعلموا وكان بعضنا ينظر إلى بعض.

آمن الأنصار برسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وعاهدوه على حمايته مما يحمون منه أولادهم.
 عند ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه.
 من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من المسلمين.
 بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار.
 وقال: إن الله قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها.
 فخرجوا إليها أرسالاً.
 وأقام رسول الله بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الهجرة إلى المدينة.
 فكان أول من هاجر إلى المدينة أبو سلمة.
 وبعد أبي سلمة عمّار بن ربيعة حليف بني عدي.
 ثم عبدالله بن جحش.
 وذلك بعد مصعب بن عمير وابن أمّ مكتوم وكانا يُقرئان الناس القرآن.
 ثم قدم عمّار وبلال وسعد.
 ثم قدم عمر بن الخطاب في عشرين نفرًا من أصحاب النبي.
 ثم تتابع المهاجرون رضي الله عنهم.
 ولما أراد صُهيب الهجرة اعترضه المشركون.
 وقالوا له: أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثير ما لك عندنا وبلغت الذي بلغت.
 ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك.
 فقال لهم صُهيب: رأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلّون سبيلي؟
 قالوا: نعم! قال فإني قد جعلت لكم مالي.
 فبلغ ذلك رسول الله فقال: ربح صُهيب ربح صُهيب.

وأقام رسول الله بمكة بعد أصحابه من المهاجرين.
 ينتظر أن يؤذن له في المحجرة.
 ولم يتخلف معه بمكة إلا من حُبس أو فُتن.
 إلا عليّ بن أبي طالب وأبو بكر بن أبي قحافة رضي الله عنهما.
 وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في المحجرة.
 فيقول له: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً فيطمع أبو بكر أن يكونه.
 فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم.
 ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم.
 عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة.
 فحذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم.
 وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم.
 فاجتمعوا له في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمره.
 وغدوا في اليوم الذي تواعدوا له وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة.
 فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل عليه كساء غليظ.
 فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا من الشيخ؟
 قال شيخ من أهل نجد سمع بالذي تواعدتم له.
 فحضر معكم لسمع ما تقولون وعسى ألا يعدمكم منه رأيي ونُصح.
 قالوا أجل فادخل فدخل معهم.
 وقد اجتمع فيها أشرف قريش.
 فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم.
 وإننا والله ما نأمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا.
 فأجمعوا فيه رأياً فتشاوروا ثم قال قائل منهم:
 احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً.
 ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء.
 فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي.

والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب.
 إلى أصحابه فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعه من أيديكم.
 ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم وما هذا لكم برأي.
 فتشاوروا ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا.
 فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع.
 قال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي.
 ألم تروا حُسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على القلوب؟
 والله لو فعلتم ذلك ما أمتتم أن يحل على حي من العرب.
 فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه.
 ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فيأخذ أمركم من أيديكم.
 ثم يفعل بكم ما أراد.. أديروا فيه رأياً غير هذا.
 فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد.
 قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟
 قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جلدًا نسيباً وسيطاً فينا.
 ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً.
 ثم يعمدون إليه فيضربونه بها ضربة رجل واحد فيقتلونه فنستريح منه.
 فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعها.
 فلم يقدر بنو عبدمناف على حرب قومهم جميعاً.
 فرضوا منا بالدية فدفعناها لهم.
 فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل.
 هذا الرأي ولا رأي غيره.
 فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.
 فأتى جبريلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم.
 فقال له: لا تبتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.
 فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه.
 فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكائهم.
 قال لعلي بن أبي طالب: نم على فراشي وتغطي ببردي هذا.
 فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم.
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام.

ولما اجتمعوا له وهم على بابه.
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده.
وأخذ الله على أبصارهم عنه فلا يرونه.
فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو:
(وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)
ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً.
ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.
فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال: ما تنتظرون ههنا؟
قالوا محمداً فقال خبيكم الله.
قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً.
فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب.
ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش مسحى ببرد رسول الله.
فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه برده.
فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام عليٌّ عن الفراش.
فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي كان حدثنا.
وكان مما أنزل الله في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له قوله تعالى:
(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ
وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ)
عند ذلك أذن الله لنبيه صلى الله عليه وسلم بالهجرة.
ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

وكان أبوبكر حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة. فقال له: لا تعجل لعل الله أن يجعل لك صاحباً. قد طمع بأن يكون رسول الله إنما يعني نفسه فابتاع راحلتين. فاحتبسهما في دار يعلفهما إعداداً لذلك. قالت عائشة أم المؤمنين: وكان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم. أن يأتي بيت أبي بكر أحد طريقي النهار إما بكرة وإما عشية. حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله في الهجرة. والخروج من مكة من بين ظهري قومه. أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. فلما رآه أبوبكر قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الساعة إلا لأمر حدث! فلما دخل تأخر له أبوبكر عن سريره فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم. وليس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد إلا أنا وأختي أسماء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرج عني من عندك قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي. وما ذاك فذاك أبي وأمي؟ قال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة. فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة. قالت فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم. أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي. ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتين كنت أعددتكما لهذا. فاستأجرا عبد الله بن أريقط وكان مشركاً يدلهما على الطريق. ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما. ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج. إلا علي بن أبي طالب وأبوبكر الصديق وآل أبي بكر. أما عليٌّ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلف.

حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس.
 ولم يكن بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده.
 لما يعلم من صدقه وأمانته.
 فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج.
 أتى أبا بكر فخرجا من باب لأبي بكر في ظهر بيته.
 ثم عمدا إلى غار ثور فدخلاه.
 وأمر أبو بكر ابنه عبد الله.
 أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره.
 ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر.
 وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره.
 ثم يريها عليهما إذا أمسى في الغار فاحتلبا وذبحا.
 فإذا غدا عبد الله بن أبي بكر من عندهما إلى مكة.
 أتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم يعقب عليه.
 وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها تأتيهما بالطعام إذا أمست.
 قالت عائشة: فصنعنا لهما سفرة في جراب.
 فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب.
 فلذلك سميت ذات النطاقين.
 قالت أسماء: ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر.
 أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل.
 فوقفوا على باب أبي بكر.
 فخرجت إليهم فقالوا أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟
 قلت: لا أدري والله أين أبي.
 فرفع أبو جهل يده فلطم خدي لكمة طرح منها قرطي ثم انصرفوا.
 قالت أسماء: ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه.
 احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم فانطلق بها معه.
 فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره.
 فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه؟
 قلت كلا يا أبي إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً.
 وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها.

ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت يا أبي ضع يدك على هذا المال.
فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن.
ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك.
ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلاً.
فدخل أبو بكر قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فلمس الغار لينظر أفيه سُبُع أو حية.
فلما اطمأن قال: انزل يا رسول الله فنزل.
وجاءت قريش يطلبون النبي صلى الله عليه وسلم.
فقال أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم:
هؤلاء قومك يطلبونك أما والله ما على نفسي أحشى.
ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره.
فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر لا تخف إن الله معنا.
وقد قال الله تعالى:

(إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ
إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى
وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

وقد أقاما في الغار ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما.
 وذلك لأن المشركين حين فقدوهما ذهبوا في طلبهما كل مذهب.
 وجعلوا لمن ردهما مائة من الإبل.
 واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم.
 وكان الذي يقتص الأثر لقريش سُراقَة بن مالك.
 يقول سُراقَة: جاءنا رسل كفار قريش.
 يجعلون في رسول الله وأبي بكر دية لمن قتله أو أسره.
 فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج.
 إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس.
 فقال: يا سُراقَة إني رأيت أنفاً سواداً بالساحل أراه محمداً وأصحابه.
 فعرفت أنهم هم فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً.
 ثم لبثت في المجلس ساعة ثم قمت فدخلت بيتي.
 فأمرت جاريتي أن تُخرج بفرسي وهي من وراء أكمة فتحبسها عليّ.
 وأخذت رمحي فخرجت من ظهر البيت حتى أتيت فرسي فركبتها.
 فدفعتها ففرت بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي.
 فخررت عنها فقممت فأهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجت منها الأزام.
 فاستقسمت بما أضرهم أم لا فخرج الذي أكره.
 فركبت فرسي وعصيت الأزام.
 فجعل فرسي يقرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله.
 وهو لا يلتفت وأبوبكر يُكثر الالتفات.
 ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتا الركبتين.
 فخررت عنها فأهويت ثم زجرتها فنهضت.
 فلم تكد تخرج يديها فلما استوت قائمة.
 إذا لأثر يديها غبار ساطع في السماء مثل الدخان.
 فناديتهم الأمان فوقفوا فركبت فرسي حتى جئتهم.
 ووقع في نفسي أن رسول الله سينتصر على قريش.

فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية.
وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم.
وعرضت عليهم الزاد والمتاع.
فلم يقبلوا مني شيئاً إلا أن قالوا: أخف عنا.
فسألته أن يكتب لي كتاب أمن.
فأمر عامر بن فهيرة فكتب لي رقعة من آدم.
ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ولما رجع سراقة جعل لا يلقي أحداً من الطلب إلا رده.
وقال: كفيتم هذا الوجه.
وسمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة.
فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة.
فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم.
فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من اليهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه.
فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه.
فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته:
يا معشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون.
فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول بظهر الحرة.
فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف.
وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول.
فقام أبوبكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً.
فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله يحيي أبا بكر.
حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فأقبل أبوبكر حتى ظلل عليه بردائه.
فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك.
فلبث رسول الله في بني عمرو بن عوف بضعة عشرة ليلة.
وأسس المسجد الذي أسس على التقوى.
وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ثم ركب راحلته وسار يمشي معه الناس.
حتى بركت عند مكان مسجد رسول الله بالمدينة.

وكان مريداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته:
هذا إن شاء الله المنزل.
ثم عاد رسول الله إلى الغلامين فساومهما بالمريد ليتخذ مسجداً.
فقالا بل نهبه لك يا رسول الله.
فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما حتى ابتاعه منهما.
ثم بناه مسجداً.
فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم اللبن في بنيانه.
وهو يقول حين ينقل اللبن:
هذا الحمال لا حمال خبير
هذا أبر رينا وأطهر
ويقول: اللهم إن الأجر أجر الآخرة
فارحم الأنصار والمهاجرة

وفي طريق الهجرة مر رسول الله على خيمة أم معبد الخزاعية.
 فنزل رسول الله بها وطلب القرى.
 فقالت والله ما عندنا طعام ولا لنا شاة إلا صغيرة.
 فدعا رسول الله ببعض غنمها فمسح ضرعها بيده ودعا الله.
 وحلب في إناء حتى أرغى وقال: اشربي يا أم معبد.
 فقالت: اشرب فأنت أحق به فرده عليها فشربت.
 ثم دعا بشاة أخرى ففعل بها مثل ذلك فسقى أبا بكر.
 ثم سقى ابن أريقط ثم سقى ابن فهيرة.
 ثم شرب هو صلى الله عليه وسلم.
 وطلبت قريش رسول الله حتى بلغوا أم معبد فسألوا عنه فقالوا:
 أرايت محمدًا من صفته كذا وكذا؟ فوصفوه لها.
 فقالت: ما أدري ما تقولون جاءنا فتى حالب الحائل.
 قالت قريش: فذاك الذي نريد.
 وكانت تسميه المبارك.
 وكثرت غنمها حتى ساقتها إلى سوق المدينة.
 فمر أبو بكر فرأى ابنها فعرفه.
 فقال: يا أمي هذا الرجل الذي كان مع المبارك.
 فقامت إليه فقالت: يا عبدالله من الرجل الذي كان معك؟
 قال أوما تدرين من هو؟ قالت: لا قال هو نبي الله.
 قالت: فأدخلني عليه.
 قال: فأدخلها فأطعمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهم وكساها.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج من قُباء.
 ودخل المدينة يتلقاه أهل كل حي فيها.
 فيأخذون بخطام ناقته لينزل فيهم وينالوا بركته وتعظيماً له.
 فتلقاه رجال من بني سالم فقالوا: يا رسول الله.
 أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة.
 قال: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة.
 فانطلقت حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقوه.
 فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة؟
 قال: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة.
 فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عبادة.
 فقال: يا رسول الله هلم إلينا في العدد والمنعة.
 قال خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة.
 فانطلقت حتى إذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج.
 اعترضه سعد بن وعبدالله بن رواحة.
 في رجال من بني الحارث بن الخزرج.
 فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة.
 قال: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة.
 فانطلقت حتى إذا مرت بدار عدي بن النجار وهم أحواله.
 اعترضه رجال من بني عدي بن النجار فقالوا يا رسول الله.
 هلم إلى أحوالك إلى العدد والعدة والمنعة؟
 قال: خلُّوا سبيلها فإنها مأمورة.
 فانطلقت حتى إذا أتت إلى دار أبي أيوب فبركت به على الباب.
 فنزل فدخل بيت أبي أيوب حتى ابتنى مسجده ومسكته.
 ومرو رسول الله في طريقه بعبدالله بن أبي بن سلول وهو في بيت.
 فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يدعوه إلى المنزل.
 وهو يومئذ سيد الخزرج.

فقال عبدالله: انظر الذين دعوك فانزل عليهم.
فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من الأنصار.
فقال سعد بن عبادة يعتذر عنه: لقد منَّ الله علينا بك يا رسول الله.
وإننا نريد أن نعقد على رأسه التاج ونملكه علينا.
يعني أكلته العيرة.

وقال أبو أيوب: لما نزل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي.
 نزل في السُّفْل وأنا وأم أيوب في العُلُوّ.
 فقلت له بأبي أنت وأمي يا رسول الله.
 إني أكره أن أكون فوقك وتكون تحتي.
 فاصعد أنت فكن في العلو ونزل نحن فنكون في السفّل.
 فقال: يا أبا أيوب إنّ أرفق بنا وبمن يأتينا أن أكون في سفّل البيت.
 فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفله وكنا فوقه في المسكن.
 فلقد انكسر زير لنا فيه ماء.
 فقامت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا مالنا لحاف غيرها.
 ننشف بها الماء خوفاً أن يقطر على رسول الله منه شيء فيؤذيه.
 قال وكنا نصنع له العشاء ثم نبعث إليه.
 فإذا رد علينا فضلة تيممت أنا وأم أيوب موضع يده فأكلنا منه.
 نبتغي بذلك البركة.
 حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثوماً.
 فرده رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أر ليده فيه أثراً.
 فجئته فزحاً فقلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي.
 رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك؟
 فقال: إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة وأنا رجل أناجي.
 فأما أنتم فكلوه فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد ذلك.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل في دار أبي أيوب.
بعث مولاه زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما بعيران وخمسمائة درهم.
ليحيثا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وسودة بنت زمعة زوجته.
وأسامة بن زيد.
وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان.
وزينب عند زوجها بمكة أبي العاص بن الربيع.
وجاءت معهم أم أيمن زوجة زيد بن حارثة.
وخرج معهم عبدالله بن أبي بكر بعيال أبي بكر.
وفيهم عائشة أم المؤمنين ولم يدخل بها رسول الله بعد.

وكان سبب إسلام عبدالله بن سلام أنه قال:
 لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة.
 أسرع إليه الناس فكنت فيمن أسرع.
 فلما تبينت وجهه عرفت أنه ليس بوجه كذاب.
 فكان أول شيء سمعته يقول: يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام.
 وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام.
 وجاء عبدالله بن سلام فقال أشهد أنك رسول الله وأنك جئت بحق.
 وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم.
 فادعهم فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت.
 فإنهم إن يعلموا اني قد أسلمت قالوا في ما ليس في.
 فأرسل نبي الله صلى الله عليه وسلم إلى اليهود فدخلوا عليه.
 فقال لهم: يا معشر اليهود ويلكم اتقوا الله.
 فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً.
 وأنني جئتكم بحق فأسلموا.
 فقالوا ما نعلمه.

فقال: فأني رجل فيكم عبدالله بن سلام؟
 قالوا ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا.
 قال: أفأرأيتم إن أسلم؟ قالوا حاش لله ما كان ليسلم.
 قال: يا بن سلام اخرج عليهم فخرج.
 فقال: يا معشر يهود اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو.
 إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بالحق.
 فقالوا: كذبت.

فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 ولما خرج عليهم ابن سلام وشهد شهادة الحق.
 قالوا: هذا شرنا وابن شرنا وتنقصوه.
 فقال: يا رسول الله هذا الذي كنت أخاف.

وحان بناء المسجد.
فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببنائه.
وكانت الأرض حين اشتراها رسول الله.
فيها قبور المشركين وكان فيه نخل.
فأمر رسول الله بقبور المشركين فنبشت وبالنخل فقطع.
وصفوا النخل وشدوه بالحجارة.
وكانوا ينقلون ذلك الصخر وهم ينشدون.
ورسول الله صلى الله عليه وسلم معهم يقول:
اللهم لا خير إلا خير الآخرة
فانصر الأنصار والمهاجرة
وكان يحمل التراب معهم ويقول:
هذا الحمال لا جمال خبير
هذا أبر رينا وأطهر
ثم جعل سقف المسجد من جريد النخل.
وقد اشترك في العمل فيه المهاجرون والأنصار واجتهدوا فيه.
وكانوا ينشدون: لئن قعدنا والنبي يعمل
فذاك منا العمل المضلل
وكان كل منهم يحمل حجراً للبناء.
ودخل عمار بن ياسر وقد حملوا عليه حجرين.
فقال: يا رسول قتلوني يحملون عليّ ما لا يحملون؟
فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفذ شعره بيده.
وهو يقول: ويح ابن سمية ليسوا بالذين يقتلونك إنما تقتلك الفئة الباغية.

وبعد بناء المسجد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار.
وكان ذلك في دار أنس بن مالك.

وكتب النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً فيه بنود هذا الحلف بينهم.
وما يصلح شأنهم كما قال تعالى:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجْزَوْنَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا

وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِكُمْ خِصَاصَةٌ

وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الحشر).

ولما شرع رسول الله في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.
قال: تأخوا في الله أخوين أخوين.

ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال هذا أخي.

وكان حمزة بن عبدالمطلب وزيد بن حارثة أخوين.

وكان أبو بكر وخارجة بن زيد الخزرجي أخوين.

وعمر بن الخطاب وعتبان بن مالك أخوين.

وأبو عبيدة وسعد بن معاذ أخوين.

وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين.

والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين.

وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت أخوين.

وظلحة بن عبيدالله وكعب بن مالك أخوين.

وسعيد بن زيد وأبي بن كعب أخوين.

ومصعب بن عمير وأبو أيوب أخوين.

وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين.

وعمار وحذيفة بن اليمان أخوين.

وهكذا.. رضي الله عنهم أجمعين.

ولما جاء عبدالرحمن بن عوف المدينة.

آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري.

فقال له سعد: أيُّ أخي.
أنا أكثر أهل المدينة مالاً فانظر شطر مالي فخذه.
وتحتي امرأتان فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها فتتزوجها.
فقال عبدالرحمن: بارك الله لك في أهلك ومالك ولكن دلني على السوق.
فذهب فاشترى وباع فربح وصار من أغنياء المدينة.

وفي شهر شوال من هذه السنة.
 دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة.
 وكانت رضي الله عنها أحب نساءه إليه.
 وفي هذه السنة الأولى من الهجرة.
 زيد في صلاة الحضر ركعتان.
 وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين.
 فأقرت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.
 ولما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة.
 واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين والأنصار.
 استحکم أمر الإسلام فقامت الصلاة.
 وفُرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود وفُرض الحلال والحرام.
 وتبوا الإسلام بين أظهرهم في المدينة.
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها.
 يجتمع الناس إليه للصلاة لحين موقيتها بغير دعوة.
 فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل بوقاً كبوق يهود.
 الذي يدعون به لصلاتهم ثم كرهه.
 ثم أمر بالناقوس فنحت ليضرب به للمسلمين للصلاة.
 فبينما هم على ذلك رأى عبدالله بن زيد بن ثعلبة في منامه الأذان.
 فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
 يا رسول الله طاف بي هذه الليلة طائف.
 مر بي رجل عليه ثوبان أحضران يحمل ناقوساً في يده.
 فقلت يا عبدالله أتبيع هذا الناقوس؟
 فقال: وما تصنع به؟
 قال قلت ندعو به إلى الصلاة.
 قال ألا أدلك على خير من ذلك؟
 قلت وما هو؟ قال تقول:

الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر.
أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله.
أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله.
حي على الصلاة حي على الصلاة.
حي على الفلاح حي على الفلاح.
الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله.
فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
إنها لرؤيا حق إن شاء الله فقم مع بلال فألقها عليه.
فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك.
فلما أذن بها بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته.
فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه.
وهو يقول: يا نبي الله والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى.
فقال رسول الله فله الحمد على ذلك.

ثم بدأت المناوشات بين قريش وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأمره الله بجهاد عدوه وقتال من يليه من المشركين. (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (التوبة). فبدأت غزوات النبي وسراياه. وكانت أول غزوة غزاها هي غزوة الأبواء. فخرج يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. فوادعته فيها بنو ضمرة. ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. ولم يلق كيداً من المشركين. وكان لواؤه مع عمه حمزة. ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب. في سرية من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد. فسار حتى بلغ ماء بالحجاز فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش. فلم يقع بينهم في ذلك اليوم قتال. إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم. فكان أول سهم رمي به في سبيل الله في الاسلام. وانصرف القوم عن القوم وقد قويت شوكة المسلمين. ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة بن عبدالمطلب. في سرية إلى سيف البحر. في ثلاثين من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد. فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة. فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني. فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال. ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة بواط. وكان يريد قريشاً.

وكان في مائتي راكب.
وكان لواءه مع سعد بن أبي وقاص.
وكان مقصده أن يعترض عيراً لقريش فيه أمية بن خلف.
ومائة رجل وألفان وخمسمائة بعير.
حتى بلغ بواط ولم يلق كيداً فرجع إلى المدينة.
ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة العشيرة.
يريد قافلة لقريش ذاهبة إلى الشام.
وكان لواءه مع عمه حمزة بن عبدالمطلب.
ولم يلق كيداً فرجع إلى المدينة.
وفي هذه الغزوة قال عمار بن ياسر:
كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة.
فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهراً.
فصالح بها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة فوادعهم.
فقال لي علي بن أبي طالب: هل لك يا أبا اليقظان أن تأتي هؤلاء النفر.
من بني مدلج يعملون في عين لهم ننظر كيف يعملون؟
فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة فغشينا النوم.
فعمدنا إلى موضع من النخل في تراب من الأرض فنمنا فيه.
فوالله ما أهبنا إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم.
يحركنا بقدمه فجلسنا وقد تتربنا من تلك الأرض.
فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي: يا أبا تراب.
ولما رجع من العشيرة أقام بالمدينة ليالي.
حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة.
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه.
حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر.
وهي غزوة بدر الأولى وفاته كرز فلم يدركه.
وكان لواءه مع علي بن أبي طالب.
فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فأقام حتى شهر رمضان وكانت غزوة بدر الكبرى.

وعندما استقر الرسول بالمدينة.
 وكان فيها أحياء من اليهود.
 أخذتهم العيرة من المسلمين.
 وبدأوا يتكلمون فيهم بألسنتهم.
 وفي هذا الوقت بدأ النفاق يطل برأسه.
 بزعامة عبدالله بن أبي بن سلول.
 وكان رسول الله يصلي إلى بيت المقدس.
 وتنازعه نفسه رغبة في الصلاة إلى البيت الحرام.
 حتى أذن الله له بذلك.

ونزل قوله تعالى:

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا

فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ

وَمَا اللَّهُ بِعَافٍ لِمَا يَعْمَلُونَ).

وبرغم أن اليهود يعلمون أن هذا التحول حق.

اعترض سفهاء اليهود والمنافقين على ذلك.

قال البخاري:

صلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس.

سنة عشر شهراً وكان يعجبه أن تكون قبلته إلى البيت.

وأنه صلى أول صلاة صلاها إلى الكعبة العصر.

وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان معه.

فمر على أهل مسجد وهم راكعون فقال

أشهد بالله لقد صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم قبيل مكة.

فداروا كما هم قبل البيت.

وقال السفهاء من الناس وهم اليهود:

مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمَّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟

فأنزل الله:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمَّ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا

قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ).

ثم قال تعالى مبيناً حكمته في حلول نعمته بمن شك وارتاب بهذه الواقعة.

وحلول نعمته على من صدق وتابع.

فقال: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا

إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَاقِبَتِهِ

وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِعَ إِيمَانَكُمْ

إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ).

وفي هذه السنة فرض صيام شهر رمضان.

وأنزل الله تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

جاء شهر رمضان وقد هيا الله المؤمنين تهيئة إيمانية كبيرة.

بالصلاة والصيام والقرآن.

وأصبحوا مهيين لأول لقاء من الشرك والمشركين.

اللقاء الذي سيفرق الله فيه بين الكفر والإسلام.

يوم الفرقان يوم التقى الجمعان.

يوم انتهى عصر الذل والهوان.

وبدأ عصر العزة والإيمان.

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ).

(كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ

لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ).

إنها غزوة بدر الكبرى.

غزوة العزة والنصر والتمكين.

فقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أن أبا سفيان صخر بن حرب مقبل من الشام.

في قافلة لقريش عظيمة فيها أموال وتجارة.

فندب المسلمين إليهم وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم.

فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها.

فانتدب الناس فحف بعضهم وثقل بعض.

وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتجسس.

ويسأل من لقي من الركبان تخوفاً على أموال الناس.

حتى أصاب خيراً من بعض الركبان.

أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولقافتك.
فحذر عند ذلك واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة.
وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم.
ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه.
فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة.
فلما أتاهم استنفر أبو جهل الناس.
فقال أدركوا عيركم.
فخرجت قريش على الصعب والذلول.
في تسعمائة وخمسين مقاتلاً.
معهم مائتا فرس يقودونها.
ومعهم القيان يضرين بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين.
وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم
فخرج في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه.
واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس.
ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير في ثلاثمائة من أصحابه.
ومعهم سبعون بعيراً يتبادلونها.
كل ثلاثة على بعير.
فلما وصل رسول الله بدرأً جاء قريباً من ماء بدر فنزل به.
فقال الحباب بن المنذر: يا رسول الله.
أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر.
أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟
فقال بل هو الرأي والحرب والمكيدة.
قال يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل.
فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ثم ندفنه.
فيكون البئر وراءنا ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء.
ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أشرت بالرأي .
فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس.
فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه.

ثم أمر بالآبار الصغيرة فغوّرت.
وبنى حوضاً على بئر بدر فاستقوا منه ومالأوا الحياض.
حتى أصبحت ملاء وليس للمشركين ماء.

ولما اقتربت المعركة قال سعد بن معاذ:
يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعدّ عندك ركائبك.
ثم تلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا عليهم كان ذلك ما أحببنا.
وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا.
فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشدّ حباً لك منهم.
ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك.
يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك.
فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ودعا له بخير.
ثم بُني لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش كان فيه.
وأقبلت قريش في الصباح.
فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تعاديك وتكذب رسولك.
اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أهلكهم الغداة.
وفي هذه الليلة نام صلى الله عليه وسلم في العريش.
فرأى المشركين في منامه قليلاً:
﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا
وَأَلْوَ أَرَآكُهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾.
وعندما تقابل الفريقان قلل الله كلاً منهما في أعين الآخرين.
ليجتري هؤلاء على هؤلاء وهؤلاء على هؤلاء.
لما له في ذلك من الحكمة البالغة.
استدرجاً أولاً للمشركين.
بأن أراهم إياهم عند المواجهة قليلاً.
ثم أيد المؤمنين بنصره فجعلهم في أعين الكافرين على الضّعف منهم.
وقد صفّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه.
وعبأهم أحسن تعبئة فروى عبدالرحمن بن عوف:
قال: صفنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ليلاً.
وبعدما عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف.

رجع إلى العريش فدخله ومعه أبوبكر ليس معه فيه غيره.
وكان سعد بن معاذ رضي الله عنه واقفاً على باب العريش.
متقلداً بالسيف ومعه رجال من الأنصار.
يخرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكثر الابتهاج والتضرع والدعاء.
ويقول فيما يدعو به:
اللهم إن تملك هذه العصاة لا تعبد بعدها في الأرض.
اللهم أبجز لي ما وعدتني اللهم نصرك.
ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه.
فجعل أبوبكر رضي الله عنه يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه.
ويقول مشفقاً عليه من كثرة الابتهاج:
يا رسول الله إن الله سينجز لك ما وعدك.

ثم تواجعت الفتتان وتقابل الفريقان وحضر الخصمان بين يدي الرحمن.
 واستغاث بربه سيد الأنبياء وضح الصحابة بصنوف الدعاء.
 إلى رب الأرض والسماء سامع الدعاء وكاشف البلاء.
 فكان أول من قُتل من المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي.
 وكان رجلاً سيئ الخلق فقال:
 أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه.
 فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب.
 فلما التقيا ضربه حمزة فقطع قدمه بنصف ساقه قبل الحوض.
 ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن تبر بيمينه.
 واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.
 فحمي عند ذلك عتبة بن ربيعة وأراد أن يظهر شجاعته.
 فبرز بين أخيه شيبه وابنه الوليد.
 فلما توسطوا بين الصفيين دعوا إلى المبارزة.
 فخرج إليهم فتية من الأنصار ثلاثة.
 فقالوا من أنتم؟ قالوا نحن من الأنصار.
 فقالوا ما لنا بكم من حاجة.
 ونادى مناديتهم: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا.
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قم يا عبدة بن الحارث.
 وقم يا حمزة وقم يا علي.
 فلما اقتربوا منهم قالوا من أنتم؟
 فقالوا عبدة وحمزة وعلي.
 قالوا نعم! أكفاء كرام.
 فبارز عبدة وكان أسنَّ القوم عتبة.
 وبارز حمزة شيبه.
 وبارز عليّ الوليد بن عتبة.
 فأما حمزة فلم يمهل شيبه أن قتله.
 وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله.

واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما ضرب صاحبه.
وهجم حمزة وعلي على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما.
وكان شعار الصحابة يوم بدر أحد أحد.
وأمد الله نبيه والمؤمنين بألف من الملائكة.
وكان جبريل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة.
(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ
وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).
ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم.
وقال: والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل.
فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة.
قال عمير بن الحمام وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ.
أما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء؟
ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل.
(إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ
فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ).
فبينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه.
إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدام حيزوم.
إذ نظر إلى المشرك أمامه قد خر مستلقياً.
فنظر إليه فإذا هو تحطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط.
فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقال: صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة.
فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

وكان أول من لقي أبا جهل معاذ بن عمرو بن الجموح.
 قال: سمعت القوم وأبو جهل في حراسة شديدة.
 وهم يقولون: أبو الحكم لا يُخلص إليه.
 فلما سمعتها جعلته من شأني وتوجهت نحوه.
 فلما أمكنني حملت عليه فضربته ضربة قطعت قدمه بنصف ساقه.
 قال: وضربني ابنه عكرمة على كتفي فقطع يدي.
 فتعلقت بجلدة من جنبي ولم أستطع مواصلة القتال.
 فلقد قاتلت عامة يومي وإني لأسحبها خلفي.
 فلما آذنتي وضعت عليها قدمي ثم تمطيت بها عليها حتى خلعتها.
 ثم مر بأبي جهل وهو صريع معوذ بن عفراء فضربه وتركه وبه رمق.
 وقاتل معوذ حتى قُتل.
 فمر عبدالله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله أن يُلتمس في القتلى.
 وقد قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته.
 فإني ازدحمت أنا وهو يوماً على مأدبة لعبدالله بن جدعان ونحن غلامان.
 فدفعته فوق على ركبتيه فخدش في إحداهما.
 قال ابن مسعود: فوجدته بأخر رمق فعرفته.
 فوضعت رجلي على عنقه.
 قال وقد كان ظفر بي مرة بمكة فأذاني ولكزني.
 ثم قلت له: هل أخزأك الله يا عدو الله؟
 قال وبماذا أخزاني؟
 هل أنا إلا رجل قتلتموه.
 أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قلت لله ولرسوله.
 وقال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم.
 ثم احتزرت رأسه ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فقلت: يا رسول الله هذا رأس عدو الله.

فقال: الله الذي لا إله غيره؟
فقلت نعم! والله الذي لا إله غيره.
ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله فحمد الله وسجد له.

انتهت المعركة بهزيمة المشركين.
 ونصر المؤمنين.
 وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتلى أن يُطرحوا في البئر.
 فطرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف.
 فإنه انتفخ في درعه فمالها فذهبوا ليخرجوه فتمزق لحمه.
 فألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة.
 ولما ألقاهم في القليب وقف عليهم فقال:
 يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟
 فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً.
 فقال له أصحابه: يا رسول الله أتكلم قوماً موتى؟
 فقال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.
 لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق.
 قال ابن عباس (لَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا) هم والله كفار قريش.
 ونعمة الله هي الرسول محمد.
 (وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ): يعني النار.
 ولما شرع الله للمؤمنين الدفاع عن أنفسهم وقاتل المعتدين:
 (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا
 وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).
 فقال تعالى: (فَاتْلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ
 وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ).
 فكان قتل أبي جهل على يدي شباب من الأنصار شفاء لقلوب المؤمنين
 وكان هذا أبلغ من أن تأتيه صاعقة أو أن يسقط عليه سقف منزله.
 أو يموت حتف أنفه.
 وكان أسرى يومئذ سبعين أسيراً.
 منهم من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 عمه العباس وابن عمه عقيل بن أبي طالب.

ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب.
وكان فيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت النبي.
وقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأسرى.
فقال عمر يا رسول الله اضرب أعناقهم.
فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم.
وقال أبو بكر الصديق يا رسول الله:
أرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء.
فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فنزل عتاب من الله في ذلك:
(مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ
ثُرَيْدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).
وأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى:
(لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).
فلما كان من الغد قال عمر:
فغدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما يبكيان.
فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك.
فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء.
قد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة.

واختلف الصحابة في تقسيم الغنائم كيف يكون.
وتنازع في ذلك الشباب والشيخوخ.
فأنزل الله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ).
وبين أن الأنفال مرجعها إلى حكم الله ورسوله.
يحكمان فيها بما فيه المصلحة للعباد في المعاش والمعاد.
ثم رجع عليه السلام من بدر إلى المدينة مؤيداً منصوراً.
فسار عليه السلام ومعه الأسارى والغنائم الكثيرة.
وقد بعث عليه السلام بين يديه بشيرين إلى المدينة.
ليخبرا بالفتح والنصر والظفر بالمشركين.
أحدهما عبدالله بن رواحة إلى أعالي المدينة.
والثاني زيد بن حارثة إلى السافلة.
وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم العصر في الطريق.
فلما صلى ركعة تبسم فسئل عن تبسمه فقال:
مر بي ميكائيل وعلى جناحه الغبار فتبسم إليّ وقال: إني كنت في طلب القوم.
وأناه جبريل على فرس فقال:
يا محمد إن ربي بعثني إليك وأمرني ألا أفارقك حتى ترضى.
فهل رضيت؟ قال: نعم.
ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً إلى المدينة.
ولقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين.
ولما وصل الخبر إلى النجاشي فرح بوقعة بدر.
وأرسل إلى المهاجرين عنده جعفر بن أبي طالب وأصحابه.
فقال: إني أبشركم بما يسركم.
جاءني من أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه.
وأهلك عدوه وأسر فلاناً وقتل فلاناً.
ولما وصل الخبر إلى أهل مكة وتحققوه.
قطعت النساء شعورهن وعقرت خيول كثيرة ورواحل.
وأقبل أبو لهب يجر رجليه وسأل ابن أخ له رجع من بدر.

فقال: يا بن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟
قال والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمحنناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا.
ويأسروننا كيف شاءوا.
وايم الله لقد لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض.
والله ما تبقي شيئاً ولا يقوم لها شيء وهو يقصد الملائكة.
فقال رجل من الحاضرين: تلك والله الملائكة.
فرفع أبو لهب يده فضرب وجه هذا الرجل ضربة شديدة.
فما عاش بعدها أبو لهب إلا سبع ليال.
حتى رماه الله بالطاعون فقتله.
فتركه ابنه بعد موته ثلاثاً ما دفناه حتى أنتن.
حتى قال لهم رجل من قريش:
ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته لا تدفناه؟
فقالا إنا نخشى العدو من هذا الطاعون.
فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه.
فاحتملوه إلى أعلى مكة ثم ألقوه ودموا عليه بالحجارة.
وناحت قريش على قتلاهم.
ثم قالوا: لا تفعلوا حتى لا يشمت فيكم محمد وأصحابه.
وكان هذا من تمام ما عذب الله به أحياءهم.
وهو تركهم النوح على قتلاهم.
فإن البكاء على الميت مما يريح فؤاد الحزين.

مرت الأيام وقريش في حزنها لا تنسى.
 وذات يوم جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية في حجر الكعبة.
 وكان ابن عمير بن وهب في أسرى بدر.
 فتذاكرا أصحاب بدر ومصابهم.
 فقال صفوان: والله ما في العيش خير بعدهم.
 فقال له عمير صدقت.. أما والله لولا دَيْن عليّ وعيال أخشى عليهم.
 لركبت إلى محمد حتى أقتله فإن ابني أسير في أيديهم.
 فاغتمها صفوان بن أمية فقال: عليّ دَيْنك وعيالك مع عيالي.
 فقال له عمير: فاكنتم عليّ شأني وشأنك.
 ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسهم.
 ثم انطلق حتى قدم المدينة.
 فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين فرأى عمير بن وهب.
 وقد أناخ على باب المسجد متوشحاً بالسيف.
 فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر.
 ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
 يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه.
 قال: فأدخله عليّ.
 فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فريطه بها.
 فلما رآه رسول الله وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال:
 اتركه يا عمر.. ادن يا عمير.. فدنا ثم قال: أنعم صباحاً.
 فقال رسول الله: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير.
 بالسلام تحية أهل الجنة.
 قال: أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.
 قال: فما جاء بك يا عمير؟
 قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.
 قال: فما بال السيف في عنقك.
 قال: قبحتها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً؟

قال: اصدقني ما الذي جئت له؟
قال ما جئت إلا لذلك.
قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر.
فذكرتما أصحاب القليب من قريش.
ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً.
فتحمّل لك صفوان بن أمية بدّينك وعيالك على أن تقتلني له.
والله حائل بينك وبين ذلك.
فقال عمير: أشهد أنك رسول الله.
قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء.
وما ينزل عليك من الوحي.
وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان.
فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله.
فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق.
ثم شهد شهادة الحق.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
فَقَّهُوا أَحْكَامَ فِي دِينِهِ وَعَلِمُوهُ الْقُرْآنَ وَأَطْلَقُوا أَسِيرَهُ ففعلوا.
ثم قال: يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله.
شديد الأذى لمن كان على دين الله.
وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.
لعل الله يهديهم وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم.
فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحق بمكة.
وكان صفوان حين خرج عمير بن وهب يقول أبشروا بوقعة تأتيكم.
تنسيكم وقعة بدر.
وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه.
فحلف ألا يكلمه أبداً ولا ينفعه بنفع أبداً.
فلما قدم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام.
ويؤذي من خالفه أذى شديداً فأسلم على يديه ناس كثير.

ازدادت غيرة اليهود من رسول الله وأصحابه.
 وبعدما كانوا يُسرون ذلك في أنفسهم صاروا يصرّحون به.
 وكان من شأنهم أن الرسول جمعهم في سوقهم.
 ثم قال: يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة.
 وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل.
 تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم.
 فقالوا: يا محمد لا يغرّتك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب.
 فأصبت منهم فرصة أما والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس.
 فنزل فيهم (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) يعني اليهود.
 (سَتُعْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ
 قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ النَّعْتَانِ فَتَّةٍ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) يعني الرسول وأصحابه.
 (وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ) يعني قريش.
 (وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ).
 وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا العهد وحاربوا فيما بين بدر وأحد.
 وذلك امرأة من العرب قدمت ببضاعة لها فباعتها بسوق بني قينقاع.
 وجلست إلى صائغ هناك منهم فجعلوا يراودونها على كشف وجهها فأبت.
 فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها.
 فلما قامت انكشفت سواها فضحكوا بها.
 فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله.
 وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه.
 فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود وغضب المسلمون.
 فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع.
 فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 واستعمل في محاصرته إياهم أبا لبابة بشير بن عبد المنذر.
 وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة حتى استسلموا.
 فقام إليه عبدالله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم.

فقال: يا محمد أحسن في مواليِّ وكانوا حلفاء الخزرج.
فأعرض عنه رسول الله فأمسك به.
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اتركني.
وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظهر ذلك في وجهه.
ثم قال ويحك اتركني.
قال: لا والله لا أتركك حتى تحسن في مواليِّ:
أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود.
تحصدهم في غداة واحدة إني والله امرؤ أخشى الدوائر.
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم هم لك.
ولما تشبث بأمرهم عبدالله بن أبي وقام دونهم.
مشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وكان من بني عوف له من حلفهم مثل الذي لهم من عبدالله بن أبي.
فخلعهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم.
وقال يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين.
وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم.
وفيه وفي عبدالله بن أبي نزلت الآيات من المائدة:
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ).
حتى قوله (فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ
يَقُولُونَ خَشِيَ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ)
يعني عبدالله بن أبي.
(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِبُونَ)
يعني عبادة بن الصامت.

وكان رجل من يهود بني النضير اسمه كعب بن الأشرف.
 وكان قد آذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء.
 وركب إلى قريش فحرضهم على رسول الله.
 وقال له أبو سفيان وهو بمكة: أناشدك أديننا أحب إلى الله أم دين محمد؟
 فقال له كعب بن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلاً.
 فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم:
 (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنِّ وَالطَّاغُوتِ
 وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا).
 ثم عاد إلى المدينة يعلن بالعداوة ويحرض الناس على الحرب.
 ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله.
 وجعل يشبب بأبى الفضل بن الحارث وبغيرها من نساء المسلمين.
 فقال رسول الله: مَنْ لابن الأشرف؟
 فقال له محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله أنا أقتله.
 قال: فافعل إن قدرت على ذلك.
 فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب.
 فذكر ذلك لرسول الله فدعاه فقال له: لم تركت الطعام والشراب؟
 فقال يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أم لا.
 قال: إنما عليك الجهد.
 قال: يا رسول الله إنه لا بد لنا أن نقول (يعني نحتال عليه بكلام نستدرجه به).
 قال: قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك.
 فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة.
 وسلطان بن سلامة بن وقش وكان أحماً لابن الأشرف من الرضاعة.
 وعباد بن بشر.
 والحارث بن أوس بن معاذ.
 فقدّموا إلى عدو الله سلطان بن سلامة.
 فتحدث معه ساعة فتناشدا شعراً.

ثم قال: ويحك يا بن الأشرف إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها لك.
فاكتم عني قال أفعل.
قال كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء.
عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة.
وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال.
وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا.
فقال كعب: أنا ابن الأشرف أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة.
أن الأمر يصير إلى ما أقول.
فقال له سلكان: إني قد أردت أن تبيعنا طعاماً ونرهنك.
قال ترهنوني أبناءكم؟
قال لقد أردت أن تفضحنا.
إن معي أصحاباً لي على مثل رأيي.
وقد أردت أن آتيك بهم فتبيعهم ونرهنك من أسلحتنا ما فيه وفاء.
وأراد سلكان ألا ينكر السلاح إذا جاؤوا به.
فقال: إن في أسلحتنا لوفاء.
فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره.
وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا فيجتمعوا إليه.
فاجتمعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ومشى معهم رسول الله إلى بقيع الغرقد ثم وجههم.
وقال: انطلقوا على اسم الله اللهم أعنهم.
ثم رجع رسول الله إلى بيته وهو في ليلة مقمرة.
فانطلقوا حتى انتهوا إلى حصن ابن الأشرف.
وكان حديث عهد بعرس.
فناداه سلكان فوثب في ملحفته.
فأخذت امرأته بناحيته وقالت:
أنت امرؤ محارب وأن أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة.
قال: إنه أبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني.
فقالت: والله إني لأعرف في صوته الشر.
فقال لها كعب لو دُعي الفتى لطعنة أجاب.

فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه.
ثم قالوا: هل لك يا بن الأشراف أن تتماشى إلى شعب العجوز.
فتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال إن شئتم.
فخرجوا فمشوا ساعة.
فلما استمكنوا منه قال سلكان: اضربوا عدوا الله.
فاختلفت عليه أسيافهم.
فجاءوا رسول الله آخر الليل وهو قائم يصلي.
ولما خرج إليهم أخبروه بقتل عدو الله.
ورجعوا إلى أهلهم فأصبحوا وقد خافت يهود.
فليس بها يهودي إلا وهو خائف على نفسه.

وبعدما أصيب يوم بدر كفار قريش أصحاب القليب.
 ورجع الناجون منهم إلى مكة.
 ورجع أبو سفيان بقافلته وأموال تجارته التي أفلتت من المسلمين.
 مشى عبدالله بن أبي ربيعة.
 وعكرمة بن أبي جهل.
 وصفوان بن أمية.
 إلى رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وإخوانهم يوم بدر.
 فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك القافلة من قريش تجارة.
 فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد أصابكم وقتل خياركم.
 فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثأرنا ففعلوا.
 ففيهم أنزل الله تعالى:
 (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ).
 فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فاجتمع أبو سفيان وأصحاب القافلة ومن اجتمع إليهم من العرب.
 ومن انضم إليهم من غيرهم ومن أطاعهم من قبائل كنانة وقحافة.
 فخرجت قريش بجدها وحديدها وقضها وقضيضها.
 وخرجوا معهم نساؤهم التماس الحفيظة وألا يفروا.
 وخرج أبو سفيان صخر بن حرب وهو قائد الناس.
 ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة.
 وكان وحشيّ كلما مر بهند بنت عتبة أو مرت به تقول:
 وبها أبا دسمة اشف واشتف.
 تحرّضه على قتل حمزة بن عبدالمطلب.
 فأقبلوا حتى نزلوا مقابل المدينة.
 فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون.
 قال لهم قد رأيت والله خيراً.

رأيت بقرأ تُذبح ورأيت في سيفي ثلماً.
ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة.
وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءه المشركون يوم أحد.
كان رأيه أن يقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها.
فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرأ:
نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم في أحد.
ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر.
فما زالوا برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لبس عدة الحرب.
ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله أقم بالمدينة فالرأي رأيك.
فقال لهم ما ينبغي لني أن يضع أذاته بعد ما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.
وألا يرجع حتى يقاتل.
وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتهم إلا الخروج.
فعلیکم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو.
وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا.
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون.
وهم ألف رجل والمشركون ثلاثة آلاف.
فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بأحد.
ورجع عنه عبدالله بن أبي بن سلول في ثلاثمائة.
فبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة.
وكان على خيل المشركين خالد بن الوليد.
وكان معهم مائة فرس وكان لواؤه مع عثمان بن طلحة.
ولم يكن مع المسلمين فرس واحدة.
ولما انخرل عبدالله بن أبي بثلاث الجيش وكان من رأيه البقاء في المدينة.
قال أطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس.
فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب.
فلحقهم عبدالله بن عمرو بن حرام فقال:
يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبیکم.
قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكننا لا نرى أن يكون قتال.
وفيهم نزل قوله تعالى:

(وَلْيَعْلَمِ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَّبِعُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا
قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ
يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ).

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:
 من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟
 فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله.
 فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم.
 ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل أحد في عدوة الوادي.
 وجعل ظهره وعسكره إلى أحد.
 وقال لا يقاتلن أحد حتى أمره .
 وتعباً رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وأمر على الرماة يومئذ عبدالله بن جبير .
 والرماة خمسون رجلاً فقال: انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا.
 إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نُؤتَيْن من قبلك.
 ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم درعين درعاً فوق درع.
 ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير.
 وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرس.
 جعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد.
 وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل.
 وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يأخذ هذا السيف بحقه؟
 فقام إليه رجال فأمسكه عنهم.
 حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة فقال وما حقه يا رسول الله؟
 قال: أن تضرب به في العدو حتى ينحني.
 قال أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه.
 وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب.
 وكان له عصابة حمراء يُعلم بها عند الحرب يعتصب بها فيعلم أنه سيقاتل.
 فلما أخذ السيف من يد رسول الله أخرج عصابته تلك فاعتصب بها.
 ثم جعل يتبختر بين الصفين.
 فقال رسول الله حين رأى أبا دجانة يتبختر:

إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن.
ووقف أبو سفيان يجرض أصحاب اللواء من بني عبدالدار.
فقال: يا بني عبدالدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم.
وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم إذا زالت زالوا.
فإما أن تكفونا لواءنا وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.
قالوا: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع.
فلما التقى الجيشان ودنا بعضهم من بعض.
قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها.
وأخذن الدفوف يضرن بما خلف الرجال ويجرضن على القتال.
فأقبل الناس حتى حميت الحرب وقاتل أبو دجاجة حتى أمعن في الناس.
فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله.
وقاتل حمزة بن عبدالمطلب حتى قتل أرطاة بن عبد شريحيل بن هاشم.
وكذلك قتل عثمان بن أبي طلحة وهو حامل اللواء.
ثم مر به سباع بن عبدالعزيز فلما التقيا ضربه حمزة فقتله.
فقال وحشيّ والله إني لأنظر لحمزة يفرّق الناس بسيفه.
ما يقف في طريقه أحد مثل الحمل الأورق.
إذ قد تقدمني إليه سباع بن عبدالعزيز.
فقال له حمزة هلم وضربه ضربة.
فهزرت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه.
فوقعت أسفل بطنه حتى خرجت من بين رجله فأقبل نحوي.
فغلب فوقع وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي.
ثم تنحيت إلى العسكر ولم يكن لي حاجة بشيء غيره.
وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل.
فلما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله اللواء لعلي بن أبي طالب.
وقاتل علي بن أبي طالب ورجال من المسلمين.
والتقى حنظلة مع ابن أبي عامر فلما علاه حنظلة رآه شداد بن الأوس.
فضربه شداد فقتله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
إن حنظلة لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه.
فما سئلت زوجته وكانت عروساً عليه تلك الليلة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك غسلته الملائكة.
فقلت: خرج وهو جُنُب حين سمع هاتف الحرب.

وكما ألقى الله النعاس على المؤمنين يوم بدر.
 كذلك ألقى النعاس عليهم يوم أحد عند التحام الجيشين.
 طمأننة للقلوب بنصر الله وتأييده.
 وقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثاً.
 وأنزل الله قوله تعالى:
 (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ).
 ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده.
 فقتلوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها.
 وقال الزبير بن العوام: والله لقد رأيتني أنظر إلى أقدام هند بنت عتبة وصواحبها.
 مشمراتٍ هوارب.
 إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه.
 وخلقوا ظهورنا للخيل فأتيننا من خلفنا.
 وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل.
 فانكفأنا وانكفأ القوم علينا بعدما سقط لواء قريش.
 ولم يزل اللواء صريعاً حتى أخذته امرأة فرغته لقريش فلاذوا به.
 فانكشف المسلمون وأصاب منهم العدو.
 وكان يوم بلاء وتمحيص أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة.
 حتى خلص العدو إلى رسول الله فذب بالحجارة حتى وقع لشقه.
 فأصيبت رباعيته وشجَّ في وجهه وجرحت شفته.
 فجعل يمسح الدم ويقول:
 كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله.
 وهو يعني قريشاً فأنزل الله:
 (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ).
 وتفرق عنه أصحابه ودخل بعضهم المدينة.
 وانطلقت طائفة فوق الجبل إلى الصخرة.
 وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس:
 إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ.

وفشا في الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قُتل.

فقال بعض الفارين يا قوم إن محمداً قد قتل.

فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

وفيهم نزل قوله تعالى:

(وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

يُثْوِلُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ

يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ

يُثْوِلُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِدَاتِ الصُّدُورِ).

فقال أنس بن النضر يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل.

فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد.

اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء.

ثم شد بسيفه فقاتل حتى قتل.

وانطلق رسول الله يدعو الناس حتى التفوا حوله.

فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ذهب عنهم الحزن.

فأقبلوا يذكرون الفتح وما فاتهم منه ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا.

فقال الله عز وجل في الذين قالوا إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى قومكم:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ).

وكان أول النهار للمسلمين على الكفار.

فلما أباحوا عسكر المشركين نزل الرماة فدخلوا في العسكر يجمعون الغنائم.

وعندما خالف الرماة وتركوا أماكنهم التفت خيل المشركين.

وهجموا على أصحاب النبي من خلفهم.

وقتلوا من المسلمين كثيرين.

وجعل أبو سفيان يصيح في أسفل الجبل: اعلُ هُبلُ اعلُ هُبلُ اعلُ هُبلُ.

أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟

فقال عمر بن الخطاب ألا أجيئه يا رسول الله؟ قال: بلى.

فقال عمر: الله أعلى وأجل.

فقال أبو سفيان يوم بدر والأيام دول.
فقال عمر: لا سواء.. قتلنا في الجنة وقتلناكم في النار.

انجلت المعركة وترحلت قريش في فرحة بالنتيجة.
 والتف الصحابة حول النبي يتفقدون جرحه.
 وكانت فاطمة بنت رسول الله تغسله وعليّ يسكب الماء.
 فلما رأَت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير.
 فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقتها بالجرح.
 فاستمسك الدم وكُسرت رباعيته يومئذ وجرح وجهه وكُسرت الخوذة على رأسه.
 وكان أبو بكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذاك يوم كله لطلحة بن عبيدالله.
 وقال: كنت أول من رجع يوم أحد يعني بعد أن انكشف المسلمون.
 فرأيت رجالاً يقاتل في سبيل الله دون النبي.
 فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح.
 فانتهينا إلى الرسول وقد كُسرت رباعيته وشُج في وجهه.
 وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر.
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عليكما صاحبكما يريد طلحة.
 وقد نزع فلم ننتبه إلى قوله وذهبت لأنزع ذاك من وجهه.
 فقال لي أبو عبيدة أقسم عليك بحقي لما تركتني فتركته.
 فكره تناولها بيده فيؤذي رسول الله فشدها بفمه.
 فاستخرج إحدى الحلقتين ووقعت ثنيتة مع الحلقة.
 وذهبت لأصنع ما صنع فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني.
 ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى فوقعت ثنيتة الأخرى مع الحلقة.
 فكان أبو عبيدة رضي الله عنه من أحسن الناس هتماً.
 فأصلحنا من شأن رسول الله ثم أتينا طلحة.
 فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة ورمية وضربة.
 وإذا قد قطعت إصبعه فأصلحنا من شأنه.
 وكان من بين الشهداء والد جابر بن عبدالله.
 يقوا ابنه: لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشفت الثوب عن وجهه.
 فجعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ينهونني.

والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينه.
وقال النبي لا تبكه فمازالت الملائكة تظلمه بأجنحتها حتى رُفِع.
وقُتِل مصعب بن عمير وكُفِن في بردة.
إن غُطِي رأسه بدت رجلاه وإن غُطِي رجلاه بدا رأسه.
وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان حتى سقطت على وجنته.
فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فكانت أحسن عينيه.
وقاتلت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية يوم أُحُد.
قالت نسيبة: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس ومعِي سقاء فيه ماء.
فانتهيت إلى رسول الله وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين.
فلما انهزم المسلمون انخزت إلى رسول الله.
فقتت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف حتى خلصت الجراح إليّ.
وكان على عاتقها جرح أجوف له غور.
ولما سئلت من أصابك بهذا؟ قالت ابن قمئة أقمأه الله.
لما ولى الناس عن رسول الله أقبل يقول دلوني على محمد.
لا نجوت إن نجا.
تقول نسيبة: فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير.
فضربني هذه الضربة.
ولقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كانت عليه درعان.
وترس أبو دجانة دون رسول الله بنفسه.
يقع النبل في ظهره وهو منحني عليه حتى كثر فيه النبل.
ولما انكشف المسلمون انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك.
إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله في رجال من المهاجرين والأنصار.
وقد ألقوا بأيديهم فقال: فما يجلسكم؟
قالوا: قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟
قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتِل.
فوجدوا به يومئذ سبعين ضربة فما عرفه إلا أخته عرفته بينانه.
وصلى رسول الله الظهر يوم أحد قاعداً من الجراح التي أصابته.

ولما انصرف أبو سفيان نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل.
 فقال رسول الله لرجل من أصحابه: قل: نعم هو بيننا وبينك موعد.
 ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب.
 فقال: اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون.
 فإن كانوا قد جنبوا الخيلَ وامتطوا الإبلَ فإنهم يريدون مكة.
 وإن ركبوا الخيلَ وساقوا الإبلَ فهم يريدون المدينة.
 والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم.
 قال علي: فخرجت في أثرهم أنظر ماذا يصنعون.
 فجنبوا الخيلَ وامتطوا الإبلَ ووجهوا إلى مكة.
 ولما انصرف المشركون قال رسول الله استووا حتى آتني على ربي.
 فصاروا خلفه صفوفاً فقال:

اللهم لك الحمد كله.

اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت.

ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت.

ولا معطي لما منعت ولا مانع لما أعطيت.

ولا مقرب لما باعدت ولا مبعد لما قربت.

اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول.

اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة والأمن يوم الخوف.

اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا.

اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا.

وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين.

تفرغ المسلمون لقتالهم.
ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟
فقال رجل من الأنصار: أنا.
فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق.
فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات.
فقال: أنا في الأموات فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم سلامي.
وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته.
وأبلغ قومك الأنصار عني السلام.
وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم:
إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.
ثم لم أبرح حتى مات وجمت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره.
وكان سعد بن الربيع من النقباء ليلة العقبة رضي الله عنه.
وهو الذي آخى رسول الله بينه وبين عبدالرحمن بن عوف.
وخرج رسول الله يلتمس حمزة بن عبدالمطلب.
فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ومثّل به فجدع أنفه وأذناه.
فقال حين رأى ما رأى: لولا أن تحزن صافية وتكون سئة من بعدي.
لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير.
ولما وقف النبي صلى الله عليه وسلم على حمزة قال:
لن أصاب بمثلك أبداً وما وقفت قط موقفاً أغيظ إليّ من هذا.
ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوب في أهل السموات السبع:
حمزة بن عبدالمطلب أسد الله وأسد رسوله.
ثم دفن رسول الله الشهداء.
فكان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد.
ثم يقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟
فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد.
وقال أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة.

وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصلّ عليهم ولم يغسلوا.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم فيهم:
إن الله جعل أرواحهم في أجواف طير خضر تردّ أنهار الجنة.
وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش.
فلما وجدوا طيب مآكلهم ومشربهم ومقيلهم.
قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق.
لئلا ينكلوا عن الحرب ولا يزهّدوا في الجهاد.
فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله في الكتاب قوله تعالى:
(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ).

انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.
 فلقيته حمزة بنت جحش فلما لقيت الناس نُعي إليها أخوها عبدالله بن جحش.
 فاسترجعت واستغفرت له.
 ثم نعي لها خالها حمزة بن عبدالمطلب فاسترجعت واستغفرت له.
 ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن زوج المرأة منها ليمكن.
 ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أزقة المدينة إذا النوح والبكاء في الدور.
 قال: ما هذا؟ قالوا: هذه نساء الأنصار يبكين قتلاهم.
 وأخذ المنافقون عند بكاء المسلمين في المكر.
 وتحزين المسلمين والتفريق عن رسول الله.
 وظهر غش اليهود وفارت المدينة بالنفاق فور المرجل.
 وقالت اليهود: لو كان نبياً ما انتصروا عليه ولكنه طالب مُلك.
 وقال المنافقون مثل قولهم.
 وقالوا للمسلمين: لو كنتم أطعمونا ما أصابكم الذي أصابوا منكم.
 فأنزل الله في طاعة من أطاع ونفاق من نفاق وتعزية المسلمين فقال:
 (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّمْيِ الْجُمُعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا
 قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ
 يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ
 الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا
 قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ
 فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ
 أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
 يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ).

وقدم رجل من أهل مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فسأله عن أبي سفيان وأصحابه فقال:
سمعتهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئاً.
أصبتهم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم.
فقد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم.
فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج في طلب العدو.
ليسمعوا بذلك وقال: لا ينطلقن معي إلا من شهد القتال.
فاستجابوا لله ولرسوله على الذي بهم من البلاء فانطلقوا.
فقال الله في كتابه:
(الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ
الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ
فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّ لَهُمْ سُوءٌ
وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ
إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ
فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).

وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرهَباً للعدو.
ليبلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة.
وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.
فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى حمراء الأسد.
وهي من المدينة على ثمانية أميال.
فأقام بها الإثنين والثلاثاء والأربعاء ثم رجع إلى المدينة.
وكانت قبيلة خزاعة مسلمهم وكافرهم موضع سر رسول الله في تهامة.
لا يُخفون عنه شيئاً كان بها.
ومعبد بن أبي معبد الخزاعي يومئذ مشرك.
فمر برسول الله وهو في حمراء الأسد فقال:
يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك في أصحابك.
ولوددنا أن الله عافاك فيهم.

ثم خرج من عند رسول الله حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه.
وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه.
فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟
قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط.
يتحرقون عليكم تحرقاً.
قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم.
فيهم من الحق عليكم شيء لم أر مثله قط.
قال ويلك ما تقول؟ قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل.
قال فوالله لقد أجمعنا الكثرة عليهم لنستأصل شأفتهم.
قال فإني أنهاك عن ذلك.
فثنى ذلك أبو سفيان ومن معه.
ومر به ركب من عبدالقيس فقال: أين تريدون؟ قالوا المدينة.
قال: ولم؟ قالوا نريد الميرة؟
قال: فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه.
وأحمل لكم إبلكم هذه غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا: نعم.
قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.
فمر الركب برسول الله وهو بحمراء الأسد.
فأخبروه بالذي قال أبو سفيان فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وكان من شأن غزوة الرجيع وكانت سنة أربع.
 أن رهطاً من قبيلة عضل والقارة قدموا على رسول الله بعد أحد.
 فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاماً.
 فابعث معنا نفرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين.
 ويقرئوننا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام.
 فبعث رسول الله معهم نفرأ ستة من أصحابه.
 وهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي.
 وخالد بن البكير الليثي.
 وعاصم بن ثابت.
 وخبيب بن عدي.
 وزيد بن الدثنة.
 فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع وهو ماء لذيذ غدروا بهم.
 فاستصرخوا عليهم هذياً.
 فلم يُرِع القوم وهم في رحالمهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم.
 فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم.
 فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً.
 فأما مرثد وخالد وعاصم فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً.
 فقاتلوا حتى قتلوا.
 وأما خبيب وزيد وعبدالله فلانوا ورقوا وصدقوهم فأسروهم.
 ثم خرجوا بهم إلى مكة لبيعوهم بها.
 وفي الطريق انتزع عبدالله بن طارق يده من القيد ثم أخذ سيفه.
 فاستأخر عنه القوم ورموه بالحجارة حتى قتلوه.
 وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة.
 فباعوهما إلى قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.
 فاشتري خبيباً بنو الحارث بن عامر.
 وكان خبيب هو الذي قتل الحارث يوم بدر.
 فمكث عندهم أسيراً حتى أجمعوا قتله.

فاستعار موسى من بعض بنات الحارث يستحد بها فأعارته.
 قالت: فغفلت عن صبي لي فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه.
 فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني وفي يده الموسى.
 فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله.
 وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من حُبيب.
 لقد رأيته يأكل من قُطف عنب وما بمكة يومئذ من ثمرة.
 وإنه لموثق في الحديد وما كان إلا رزقاً رزقه الله.
 فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أصلي ركعتين.
 ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت.
 فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو.
 ثم قال: اللهم احصهم عدداً واقتلهم بدداً.
 ثم قال:
 ولست أبالي حين أُقتل مسلماً
 على أي شق كان في الله مصرعي
 وذلك في ذات الإله وإن يشأ
 يبارك على أوصال شلُو ممزَع
 ثم قام إليه عقبة بن الحارث فقتله.
 وأما زيد بن الدثينة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه.
 فبعثه مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم.
 وأخرجه من الحرم ليقتله.
 واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب.
 فقال له أبو سفيان حين ليقتل: أنشدك بالله يا زيد.
 أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه وأنت في أهلك؟
 قال: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه تصيبه شوكة تؤذيه.
 فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.
 ثم قتله نسطاس.
 وبعثت قريش إلى جثة عاصم ليؤثروا بشيء من جسده يعرفونه.
 وكان عاصم قتل عظيماً من عظمائهم يوم بدر.
 فبعث الله عليه مثل الظلة من النحل فحمتهم منهم فلم يقدرُوا منه على شيء.

وأما سرية بئر معونة فكان من شأنها.
أن أبا براء عامر مُلاعب الأستة قدم على رسول الله بالمدينة.
فعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يرفض.
وقال: يا محمد لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد.
فدعوهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك.
فقال صلى الله عليه وسلم إني أخشى عليهم أهل نجد.
فقال أبو براء أنا لهم جار.
فأمده بسبعين من الأنصار كانوا يسمونهم القراء.
لأنهم كانوا يحتطبون بالنهار ويصلون بالليل.
حتى إذا كانوا ببئر معونة خرجت عليهم قبائل من بني سليم:
عصية ورعل وذكوان والقارة. فقتلوهم وغدروا بهم.
فبلغ النبي ذلك فقتل شهراً في صلاة الفجر على رعل وذكوان وعصية وبني لحيان.

وفي بئر معونة قتل صحابيّين رجلين من بني عامر.
 ولم يكن يعلم أن لهم عهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 ولهذا قال له رسول الله لقد قتلت رجلين لأدفعنّ إلى قومهما الدية.
 ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير.
 يستعينهم في دية هذين القتيلين من بني عامر.
 وكان بين بني النضير وبين بني عامر عهد وحلف.
 فلما أتاهم صلى الله عليه وسلم قالوا:
 نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت.
 ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا:
 إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه.
 ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد.
 فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيلقي عليه صخرة ويريجنا منه؟
 فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب.
 فقال: أنا لذلك فصعد ليلقي عليه صخرة كما قال.
 ورسول الله في نفر من أصحابه فيهم أبوبكر وعمر وعلي.
 فأتى رسول الله الخبر من السماء بما أراد القوم.
 فقام وخرج راجعاً إلى المدينة.
 فلما تأخر النبي على أصحابه قاموا في طلبه.
 فلحقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال رأيتُه داخلًا المدينة.
 فأقبل أصحاب رسول الله حتى انتهوا إليه فأخبرهم الخبر.
 بما كانت يهود أرادت من الغدر به.
 فبعث رسول الله محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده.
 فبعث إليهم أهل النفاق يشبهونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر.
 فقويت عند ذلك نفوسهم وحمى حُيي بن أخطب.
 وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم لا يخرجون.
 وناذبوه بنقض العهود فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.

فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليال.
 وتحصنوا في الحصون فأمر رسول الله بقطع النخيل والتحريق فيها.
 فناده: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه.
 فما بال قطع النخيل وتحريقها؟
 وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي.
 قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا.
 فإننا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم.
 فترصبوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف الله في قلوبهم الرعب.
 فسألوا رسول الله أن يجليهم ويكف عن دمائهم.
 على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح.
 فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل.
 وكان الرجل منهم يهدم بيته عن عتبة بابه.
 فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به.
 فخرجوا إلى خيبر.
 فكان من أشرف من ذهب منهم إلى خيبر:
 سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب.
 فلما نزلوها دان لهم أهلها.
 واستقبلوهم بالنساء والأبناء.
 معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم بزهاء وفخر.
 ما رؤي مثله لحي من الناس في زمانهم.
 وخلوا الأموال لرسول الله فقسمها على المسلمين.
 فأنزل الله فيهم سورة الحشر بكمالها.
 يذكر فيها ما أصابهم به من نعمته وما سلط عليهم به رسوله.
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
 هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ
 مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرِجُوا وَظَنُّوا أَنَّهْمَ مَانِعْتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ
 فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ
 يُجْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
 مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ
 وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْحَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
 مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
 وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ
 وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ
 لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ
 يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ
 وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ
 وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا
 وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ
 وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ
 وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ
 وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ
 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ
 لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا
 وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
 لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ
 وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ
 لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ
 لَا يُفَاعِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ
 بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ
 كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

وبعد غزوة أحد كان أبو سفيان توعد المسلمين بالخروج إليهم في بدر.
 بعد عام من هذا الوقت.
 وقبّل الرسول هذا الوعد فكانت غزوة بدر الآخرة وهي بدر الموعد التي تواعدوا إليها.
 فخرج رسول الله في شعبان إلى بدر لميعاد أبي سفيان.
 فنزل بدرًا وأقام عليه ثمانياً ينتظر أبا سفيان.
 وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل مجنّة من ناحية الظهران.
 ثم بدا في الرجوع فقال: يا معشر قريش.
 إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن.
 فإن عامكم هذا عام جذب وإني راجع فارجعوا.
 فرجع الناس فسمّاهم أهل مكة جيش السويق.
 يقولون: إنما خرجتم تشربون السويق.
 وأتى مخشي بن عمرو الضمري وقد كان وادع النبيّ في غزوة ودان على بني ضمرة.
 فقال: يا محمد أجيئت للقاء قريش على هذا الماء؟
 قال: نعم يا أخا بني ضمرة وإن شئت رددنا إليك ما كان بيننا وبينك.
 وجالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك.
 قال: لا والله يا محمد ما لنا بذلك من حاجة.
 ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولم يلق كيداً.

ثم أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدنو إلى أداني الشام.
 وقيل له إن ذلك مما يُفزع قيصر.
 وذكر له أن بدومة الجندل جمعاً كبيراً وأنهم يظلمون من مر بهم.
 وكان لها سوق عظيم وهم يريدون أن يدنوا من المدينة.
 فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس فخرج في ألف من المسلمين.
 فكان يسير الليل ويكمن النهار.
 ومعه دليل له من بني عذرة يقال له مذکور هادٍ خبير بالطريق.
 فلما دنا من دومة الجندل أخبره دليله بإبل بني تميم السائمة.
 فسار حتى هجم على ماشيتهم ورعائهم.
 فأصاب من أصاب وهرب من هرب في كل وجه.
 وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتنفروا.
 فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بساحتهم فلم يجد فيها أحداً.
 فأقام بها أياماً وبث السرايا ثم رجعوا.
 وأخذ محمد بن سلمة رجلاً منهم فأتى به رسول الله.
 فسأله عن أصحابه فقال: هربوا أمس.
 فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام فأسلم.
 ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس.
وهي التي تسمى أيضاً غزوة الأحزاب.
وكان من شأنها أن نفرأ من اليهود.
منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري وحُيي بن أخطب النضري.
وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل.
وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوههم إلى حرب رسول الله.
وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.
فقلت لهم قريش: يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول.
والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد.
أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه.
فهم الذين أنزل الله فيهم:
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ
وَيُقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا).
فلما قالوا ذلك لقريش سرّهم ونشطوا لما دعوههم إليه من حرب رسول الله.
فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاؤوا غطفان.
فدعوههم إلى حرب النبي وأخبروهم أنهم يكونون معهم عليه.
وأن قريشاً قد تابعوههم على ذلك واجتمعوا معهم فيه.
فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان.
وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن في بني فزارة.
والحارث بن عوف في بني مرة.
ومسعر بن ربيعة فيمن تابعه من قومه من أشجع.
فلما سمع بهم رسول الله وما أجمعوا له ضرب الخندق على المدينة.
وكان الذي أشار به سلمان الفارسي.
فعمل فيه رسول الله ترغيباً للمسلمين في الأجر.
وعمل معه المسلمون وتخلف طائفة من المنافقين يعتذرون بالضعف.
ومنهم من ينسلّ خفية بغير إذنه ولا علمه عليه الصلاة والسلام.

وفيهم نزل قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ
إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَعُضَ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ
وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا
قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْلُونَ مِنْكُمْ لَوْأَدَا
فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ
أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

وخرج رسول الله إلى الخندق.

فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة.

ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم.

فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة

فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له: نحن الذين بايعوا محمدا

على الجهاد ما بقينا أبدا

وقال جابر بن عبد الله:

إنا يوم الخندق نحفر فعرضت صخرة شديدة.

فجاءوا النبي فقالوا هذه صخرة عرضت في الخندق.

فقال: أنا نازل.

ثم قام وبطنه معصوب بحجر ولبشنا ثلاثة أيام لا ندوق طعاماً.

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم المعول فضرب فصارت تراباً.

فقلت: يا رسول الله ائذن لي إلى البيت.

فقلت لامرأتي رأيت بالنبي جوعاً فهل عندك شيء؟

قالت عندي شعير وماعز صغيرة فذبحتها وطحنت الشعير.

حتى جعلنا اللحم في البرمة.

ثم جئت النبي والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي قد كادت تنضج.

فقلت طُعيم لي فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان.
قال كم هو؟ فذكرت له فقال كثير طيب.
قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتي.
ثم قال قوموا إلى جابر فقاموا.
فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله.
فقام المهاجرون والأنصار جميعاً.
فلما دخل على امرأته قال: ويحك جاء النبي بالمهاجرين والأنصار.
قالت هل سألك؟ قلت: نعم.
فقالت الله ورسوله أعلم. فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا.
فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم ويغطي البرمة والتنور إذا أخذ منه.
ويقرب إلى أصحابه ولم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا.
وبقي بقية قال: كلي هذا وأهدي فإن الناس أصابتهم مجاعة.
فلم تزل تأكل وتهدى يومها هذا.

وفي يوم آخر من أيام الخندق.

قالت ابنة لبشير بن سعد أخت النعمان بن بشير.

قالت: دعني أمتي عمرة بنت رواحة فأعطيني حفنة من تمر في ثوبي.

ثم قالت: أي بنية اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما.

قالت: فأخذته وانطلقت بها فمررت برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأنا ألتمس أبي وخالي.

فقال: تعالي يا بنية ما هذا معك؟

قلت هذا تمر بعثتني به أمتي إلى أبي بشير وخالي عبد الله بن رواحة يتغديانه.

فقال: هاتيه قالت: فصبته في كفي رسول الله فما ملأتهما.

ثم أمر بثوب فبسط له ثم ألقى بالتمر عليه فتبدد فوق الثوب.

ثم قال لرجل عنده: اصرخ في أهل الخندق أن هلم إلى الغداء.

فاجتمع أهل الخندق عليه فجعلوا يأكلون منه.

حتى شبع أهل الخندق وإنه ليستقط من أطراف الثوب.

وكان من شأن سلمان الفارسي أنه قال:

ضربت في ناحية من الخندق فغلظت عليّ صخرة.

ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني.

فلما رأني أضرب نزل فأخذ المعول من يدي.

فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة.

ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى.

ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى.

فقلت بأبي أنت وأمتي يا رسول الله

ما هذا الذي لمع تحت المعول وأنت تضرب؟

قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قلت: نعم.

قال: أما الأولى فإن الله فتح عليّ باب اليمن.

وأما الثانية فإن الله فتح عليّ باب الشام والمغرب.

وأما الثالثة فإن الله فتح عليّ بما المشرق.

ويومها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلمان منا أهل البيت.

وكان رسول الله في ثلاثة آلاف من المسلمين.
فضرب عسكره والخندق بينه وبين المشركين.
وأمر بالصبيان والنساء فجعلوا فوق الآطام.
وفي هذا نزل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا
هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا
وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا

وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ
إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا
وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ
لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا
وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا
قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ
وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا
قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً
وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا
وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا
أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ
تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُعْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ

أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَخْبَطَ اللَّهُ أَعْمَاهُمْ
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا
 يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ
 يَوَدُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ
 وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا
 لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ
 لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا
 وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
 وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
 فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا
 لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ
 أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا
 وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا
 وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا
 وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ
 وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا
 وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّعُوهَا
 وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا).

وخرج حُيَيِّ بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد القرظي.
صاحب عقدهم وعهدهم فلما سمع صوته كعب أغلق باب حصنه دونه.
فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناده: ويحك يا كعب افتح لي.
قال ويحك يا حبيي إنك امرؤ مشئوم.
وإني عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه.
ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً.
قال: ويحك افتح لي أكلمك.
قال: ما أنا بفاعل.
قال والله ما أغلقت دوبي إلا خوفاً على طعامك أن آكل معك منه.
فاستغزاه ففتح له فقال: ويحك يا كعب جئتك بعز الدهر قال وما ذاك؟
قال: جئتك بقريش على قادتها وسادتها.
وبغطفان على قادتها وسادتها.
وقد عاهدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه.
فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر وسحاب قد أريق ماؤه.
يرعد ويبرق وليس فيه شيء.
ويحك يا حبيي دعني فأبى لم أر من محمد إلا وفاء وصدقاً.
فلم يزل حبيي بكعب حتى سمع له في نقض عهد رسول الله.
وفي محاربتة مع الأحزاب.
على أن أعطاه حبيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان.
ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك في حصنك حتى يصيبني ما أصابك.
فنقض كعب بن أسد العهد.
وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فلما انتهى الخبر إلى رسول الله وإلى المسلمين.
بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس.
وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج.
ومعهما عبد الله بن رواحة.

قال: انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم فتتنظروا أحق ما بلغنا عنهم.
فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه ولا تفتّوا في أعضاد المسلمين.
وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

قال: فخرجوا حتى أتوهم.

فدخلوا معهم حصنهم فدعوهم إلى المودعة وتجديد الحلف.

فقالوا: الآن وقد كسر جناحنا وأخرج بني النضير؟

ونالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فناداهم سعد بن معاذ فقال:

إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة.

وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير أو أمرّ منه.

فشتموه بكلمة مستقبحة.

فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن.

ثم رجع السعدان ومن معهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فسلموا عليه ثم قالوا: عُضل والقارة.

أي غدز مثل الغدر بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله أكبر أبشروا يا معشر المسلمين.

ثم تقنع رسول الله صلى الله عليه وسلم بثوبه حين جاءه الخبر عن بني قريظة.

فاضطجع ومكث طويلاً فاشتد على الناس البلاء والخوف.

حين رأوه اضطجع وعرفوا أنه لم يأتهم عن بني قريظة خيراً.

ثم إنه رفع رأسه وقال أبشروا بفتح الله ونصره.

فلما أصبحوا دنا القوم بعضهم من بعض وكان بينهم رمي بالنبل والحجارة.

وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف.

وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

حتى ظن المؤمنون كلّ ظن ونجم النفاق.

حتى قال أحد المنافقين: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر.

والآن أهدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط.

وقال آخر: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو.

فأئذ لنا أن نرجع إلى دارنا فإنها خارج من المدينة.

وهؤلاء المرادون بقوله تعالى:

(وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا
وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ
إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا).

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مرابطاً.
وأقام المشركون يحاصرونه بضعاً وعشرين ليلة.
ولم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل.
فلما اشتد على المسلمين الحصار.
بعث رسول الله إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المري.
وهما قائدا غطفان وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما.
فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا بذلك كتاباً.
ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المروضة.
فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُمضي ذلك.
بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه.
فقالا: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه؟
أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟
أم شيئاً تصنعه لنا؟
فقال: بل شيء أصنعه لكم.
والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة.
وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم.
فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله.
وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرئ أو بيعاً.
أفحين أكرمنا الله بالإسلام وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا؟
ما لنا بهذا من حاجة.
والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنت وذاك.
فتناول سعد بن معاذ الصحيفة.
فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا.
فأقام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه محاصرين.
ولم يكن بينهم وبين عدوهم قتال.

إلا أن فوارس من قريش تلبسوا للقتال.
ثم خرجوا على خيلهم ثم تيمموا مكاناً من الخندق ضيقاً.
فضربوا خيلهم فاقتحمت منه.
وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين.
حتى سدوا عليهم الثغرة التي أقحموا منها خيلهم.
وقال عمرو بن عبد ود: من يبارز؟
فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
فقال له: يا ابن أخي والله ما أحب أن أقتلك.
قال له علي: لكني والله أحب أن أقتلك.
فحمى عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه.
ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتجاولا فقتله علي رضي الله عنه.
وخرجت خيلهم منهزمة حتى خرجت من الخندق هاربة.
ثم أقبل عليّ نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه يتهلل.
فقال له عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه فإنه ليس للعرب درع خير منها؟
فقال: ضربته فاتقاني بسوءته فاستحييت أن أسلبه.
ولما طعنه عليّ وقعت في ترقوته حتى أخرجها من لحمه فمات في الخندق.
وبعث المشركون إلى رسول الله يشترون جيفته بعشرة آلاف.
فقال هو لكم لا نأكل ثمن الموتى.

ثم إن نعيم بن مسعود أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت.

وإن قومي لم يعلموا بإسلامي.

فمرني بما شئت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية.

فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم.

قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم.

فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم.

فالبلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم.

لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره.

وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه.

وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغير مكان.

فإن رأوا فرصة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم.

وخللوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم.

فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرفهم.

يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تهزموه.

قالوا: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش:

قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً.

وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليّ حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكنتموا عني.

قالوا: نفعل قال: تعلمون أن يهوداً قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد.

وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا.

فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان.

رجالاً من أشرفهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم.

ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم.

فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم.

فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.
ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان.
إنكم أصلي وعشيرتي وأحبُّ الناس إليَّ ولا أراكم تتهموني.
قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم.
قال: فاكتموا عني قالوا: نفعل.
ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.
فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس.
وكان من صنيع الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم.
أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورعوس غطفان إلى بني قريظة:
عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان.
فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام هلك الخف والحافر (يعني الإبل والخيل).
فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه.
فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً.
ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم.
يكونوا بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً فإننا نخشى إن ضرستكم الحرب.
واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا.
والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه.
فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة: قالت قريش وغطفان:
والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحقّ.
فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا.
فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.
فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا:
إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحقّ.
ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها.
وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.
فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً.
فأبوا عليهم وخذل الله بينهم.

ثم بعث الله الريح في ليلة شاتية شديدة البرد على المشركين.
 فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم.
 ولما مضى جزء من الليل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟
 فشرط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة.
 وقال: أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة.
 فما قام رجل من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد.
 يقول حذيفة: فلما لم يقم أحد دعاني.
 فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني.
 فقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم.
 فانظر ماذا يفعلون ولا تُحدثن شيئاً حتى تأتينا.
 قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل.
 لا تُقر لهم قِدرًا ولا ناراً ولا بناء.
 فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر كل امرئ من جلسه؟
 قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلت: من أنت؟
 قال فلان ابن فلان ثم قال أبو سفيان:
 يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام.
 لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره.
 ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر.
 ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء.
 فارتحلوا فإني مرتحل ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه.
 ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم.
 ولولا عهد رسول الله إليّ بالألا تحدث شيئاً حتى تأتيني لقتلته بسهم.
 قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي وعليه شملة.
 وأصابني البرد وجعلت أفرقف فلما رأني أدخلني معه وطرح عليّ طرف ثيابه.
 ثم ركع وسجد وإني لفيه فلما سلم أخبرته الخبر.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.
وأنزل الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا
إلى قوله: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا
وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا
وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ
وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا
وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّئُوهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا).

فلما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
لن تغزوكم قريش بعد عامكم ولكنكم تغزونهم.
فلم تغز قريش بعد ذلك وكان يغزوهم بعد ذلك.
حتى فتح الله عليه مكة.

ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق.
 راجعا إلى المدينة والمسلمون ووضعا السلاح.
 فلما كانت الظهر أتى جبريلُ رسول الله معتجراً بعمامة من إستبرق.
 على بغلة عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج.
 فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم.
 فقال جبريل: ما وضعتِ الملائكة السلاح بعد.
 وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم.
 إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة.
 فيأني عامد إليهم فمززل بهم.
 فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً فأذّن في الناس:
 من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.
 فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بني قريظة حتى غربت الشمس.
 وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بمجالس بينه وبين بني قريظة.
 فقال: هل مر بكم أحد؟ فقالوا مر علينا دحية الكلبي على بغلة شهباء.
 فقال: ذلك جبريل أرسل إلى بني قريظة ليزلزلهم ويقذف في قلوبهم الرعب.
 فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم.
 ونادى بأعلى صوته نقرأ من أشرافهم حتى أسمعهم.
 فقال: أجيئوا يا معشر يهود قد نزل بكم خزي الله عز وجل.
 فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتائب المسلمين بضع عشرة ليلة.
 ورد الله حبي بن أخطب حتى دخل حصن بني قريظة.
 وقذف الله في قلوبهم الرعب واشتد عليهم الحصار.
 ولما أيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى يناجزهم.
 قال كعب بن أسد: يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون.
 وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا بما شئتم منها.
 قالوا وما هن؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لني مرسل.
 وأنه للذي تجدون في كتابكم فتأمنون به على دماءكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

قالوا: لا نفارق حُكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره.
 قال: فإذا أبيتُم هذه فهلُم فلنقتل أبناءنا ونساءنا.
 ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصلتين بالسيوف.
 لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.
 فإن هلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه.
 وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.
 قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير العيش بعدهم؟
 قال: فإن أبيتُم هذه فالليلة ليلة السبت.
 وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها.
 فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة.
 قالوا أنفسد سبتنا ونُحدث فيه؟
 فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازماً.
 ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ابعث إلينا أبا لبابة.
 (وكانوا حلفاء الأوس) نستشيره في أمرنا.
 فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فلما رأوه قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه.
 فرق لهم وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال نعم.
 فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله: إنهم كانوا موالينا دون الخزرج.
 وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت.
 يعنون عفوه عن بني قينقاع حين سأله فيهم عبدالله بن أبي.
 فلما كلمته الأوس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى.
 قال فذلك إلى سعد بن معاذ.
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم.
 يقال لها ربيعة الأسلمية في مسجده وكانت تداوي الجرحى.
 فلما حكمه في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حماره.
 قد وطئوا له بوسادة من آدم.

وكان رجلاً جسيماً جميلاً ثم أقبلوا معه إلى رسول الله.
وهم يقولون يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول إنما ولاءك لتحسن فيهم.
فلما أكثروا عليه قال: قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم.
فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قوموا إلى سيدكم فقاموا إليه.
فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاءك أمر مواليك لتحكم فيهم.
فقال سعد عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟
قالوا نعم.

قال: فإني أحكم فيهم أن يُقتل الرجال وتُقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد:
لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات.
فنزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ.
وصدق فيهم قول الله تعالى:

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ.
وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا
وَأَوْزَيْتُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّئُوهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا).

ثم غزا رسول الله بني المصطلق من خزاعة في شعبان سنة ست .
 فقد بلغ رسول الله أن بني المصطلق يجمعون له .
 وقائدهم الحارث بن أبي ضرار أبو جويرية بنت الحارث .
 التي تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك .
 فلما سمع بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء من مياههم يقال له المريسيع .
 فتزاحم الناس واقتتلوا فهزم الله بني المصطلق وقتل من قتل منهم .
 ونقل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفأهم عليه .
 ولما انتهى رسول الله إليهم دفع راية المهاجرين إلى أبي بكر الصديق .
 وراية الأنصار إلى سعد بن عباد .
 ثم أمر عمر بن الخطاب: فنادى في الناس: أن قولوا لا إله إلا الله .
 تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم فأبوا فتراموا بالنبل .
 ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين فحملوا حملة رجل واحد .
 فما أفلت منهم رجل واحد وقتل منهم عشرة وأسر سائرهم .
 ولم يُقتل من المسلمين إلا رجل واحد .
 وبينما المسلمون على ذلك الماء وردت واردة الناس .
 ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له: جهجاه بن مسعود .
 فازدحم جهجاه وسان بن وبر الجهني على الماء .
 فتنازعا فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين .
 فغضب عبدالله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه .
 فيهم: زيد بن أرقم غلام حدث فقال: أوقد فعلوها؟
 قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله كما قال الأول سمن كلبك يأكلك .
 أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .
 ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم:
 أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم .
 أما والله لو أمسكنم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .
 فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله فأخبره الخبر .

وعنده عمر بن الخطاب فقال: مُر به عبّاد بن بشر فليقتله.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
 فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.
 لا ولكن أذن بالرحيل.
 وذلك في ساعة لم يكن رسول الله يرتحل فيها فارتحل الناس.
 وقد مشى عبدالله بن أبيّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه.
 فحلف بالله: ما قلت ما قال ولا تكلمت به.
 وكان في قومه شريفاً عظيماً.
 فقال من حضر رسول الله من الأنصار من أصحابه:
 يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل.
 فلما استقل رسول الله وسار لقيه أسيد بن حضير.
 فحياه بتحية النبوة وسلم عليه وقال: يا رسول الله.
 والله لقد رحمت في ساعة منكراً ما كنت تروح في مثلها.
 فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟
 قال: أي صاحب يا رسول الله؟ قال عبدالله بن أبيّ.
 قال: وما قال؟ قال: زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعرز منها الأذل.
 قال: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت.
 هو والله الذليل وأنت العزيز.
 ثم قال: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك.
 وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه.
 ثم مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس يومهم ذلك حتى أمسى.
 وليلتهم حتى أصبح وصدّر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس.
 ثم نزل الناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض فوقوا نياماً.
 وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس.
 ثم راح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس.
 وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز يقال له بقعاء.
 فلما راح رسول الله هبت على الناس ريح شديدة فأذتهم.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لا تخافوها وإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار.
فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع.
وكان عظيماً من عظماء اليهود وكهفياً للمنافقين مات ذلك اليوم.
ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أبي ومن كان على مثل أمره:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ
اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ
وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسَنَّدٌ
يَحْسَبُونَ كُلَّ صِحْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَاتَّكَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا
وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ
وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ).
فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذن زيد بن أرقم.
وقال هذا الذي أوفى الله بأذنه.

وأتى عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول إلى رسول الله .

فقال يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله بن أبي فيما بلغك عنه.
فإن كنت فاعلاً فمر لي به فأنا أحمل إليك رأسه.

فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني.
وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله.

فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل عبدالله بن أبي يمشي في الناس.
فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه.

فقال رسول الله لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم:

كيف ترى يا عمر:

أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته.

فقال عمر: قد والله علمتُ لأمر رسول الله أعظم بركة من أمري.

ثم إن عبد الله رضي الله عنه وقف لأبيه عند مضيق المدينة.

فقال: قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله في ذلك.

فلما جاء رسول الله استأذنه في ذلك فأذن له فتركه حتى دخل المدينة.

وكانت حادثة الإفك.
وتناول المنافقون عرض رسول الله بألستهم.
قطع الله ألستهم في كل زمان ومكان.
تقول عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنها:
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً.
أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.
فلما كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع.
فخرج سهمي عليهن معه فخرج بي رسول الله صلى الله عليه وسلم.
قالت: وكان النساء إذ ذاك يأكلن القليل خفيفات اللحم لم يثقلن.
وكنت إذا رُحِّل لي بعيري جلست في هودجي.
ثم يأتي القوم الذين كانوا يرحلون لي فيحملوني.
ويأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير.
فيشدونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.
قالت: فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ذلك.
وجه قافلاً حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل.
ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي.
وفي عنقي عِقْد لي من صنع اليمن.
فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري.
فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده.
وقد أخذ الناس في الرحيل فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته فوجدته.
وجاء القوم الذين كانوا يرحلون لي البعير وقد كانوا فرغوا من رحلته.
فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه كما كنت أصنع.
فاحتملوه فشده على البعير ولم يشكوا أني فيه.
ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به.
فرجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب قد انطلق الناس.
فتلففت بجلبائي ثم اضطجعت في مكاني.

وعرفت أن لو افتقدت لرجع الناس إليّ.
 فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطلّ السلمي.
 وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته فلم ييت مع الناس.
 فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليّ وقد كان يراني قبل أن يُضرب علينا الحجاب.
 فلما رأني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
 وأنا متلففة في ثيابي.

قال ما خلفك يرحمك الله؟ قالت فما كلمته.
 ثم قرّب إلي البعير فقال: اركبي واستأخر عني.
 فركبتُ وأخذ برأس البعير فانطلق سريعاً يطلب الناس.
 فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت.
 ونزل الناس فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي.
 فقال أهل الإفك ما قالوا وارثج العسكر.
 ووالله ما أعلم بشيء من ذلك.
 ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة.
 وقد انتهى الحديث إلى رسول الله وإلى أبيي.
 لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً.
 إلا أني قد أنكرت من رسول الله بعض لطفه بي.
 كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك.
 فأنكرت ذلك منه وكان إذا دخل عليّ وعندني أُمي تمرضني قال كيف تيكم؟
 لا يزيد على ذلك.

حتى حزنتُ حين رأيت ما رأيت من جفائه لي.
 فقلت: يا رسول الله: لو أذنت لي فانتقلت إلى أُمي فمرضتني؟
 قال: لا عليك.
 قالت: فانقلبت إلى أُمي ولا علم لي بشيء مما كان.
 حتى شفيتُ من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.
 وكنا قوما عرباً لا نتخذ في بيوتنا هذه الكُنف التي تتخذها الأعاجم نعافها ونكرهاها.
 إنما كنا نخرج في فسخ المدينة.
 وإنما كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن.
 فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعني أم مسطح .

قالت: فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مِرْطِها فقالت تعس مسطح.
 فقلت بنس لعمرِو الله ما قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدرًا.
 قالت: أوما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت وما الخبر؟
 فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك.
 قلت: أوقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان.
 قالت: فوالله ما قدرْتُ على أن أقضي حاجتي ورجعت.
 فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي.
 وقلت لأمي: يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا به.
 ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً؟
 قالت: أي بنية خففي عليك الشأن.
 فوالله لقلَّ ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها.
 لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.
 وقد قام رسول الله في الناس فخطبهم ولا أعلم بذلك.
 فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي.
 ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت عليهم إلا خيراً.
 ويقولون ذلك في رجل والله ما علمت منه إلا خيراً.
 ولا يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي.
 قالت: وكان كِبْرُ ذلك عند عبدالله بن أبي في رجال من الخزرج.
 مع الذي قال مسطح وحمئة بنت جحش.
 وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني في المنزلة عنده غيرها.
 فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً.
 وأما حمئة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني لأختها فشقيتُ بذلك.
 فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة.
 فقال أسيد بن حضير: يا رسول إن يكونوا من الأوس نكفيكهم.
 وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك.
 فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم.
 فقام سعد بن عبادة فقال: كذبت.
 لعمر الله ما تضرب أعناقهم.

أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت إنهم من الخزرج. ولو كانوا من قومك ما قلت هذا.

فقال أسيد بن حضير: كذبت لعمر الله ولكنك منافق تجادل عن المنافقين. وتنازع الناس حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر.

ونزل رسول الله فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما. فأما أسامة فأثنى خيراً ثم قال: يا رسول الله أهلك وما نعلم منهم إلا خيراً. وأما علي فإنه قال: يا رسول الله إن النساء لكثير.

وإنك لقادر على أن تستخلف وسل خادمتها فإنها ستصدقك. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة يسألها. قالت: فقام إليها علي فضرها ضرباً شديداً.

ويقول: اصدقني رسول الله صلى الله عليه وسلم. فتقول والله ما أعلم إلا خيراً وما كنت أعيب على عائشة شيئاً. إلا أني كنت أعجن عجيني فأمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتي الشاة فتأكله.

ثم دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعندي أبوي. وعندي امرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي.

فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس فاتقي الله. وإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس فتوبي إلى الله. فإن الله يقبل التوبة من عباده.

قالت: فوالله إن هو إلا أن قال لي ذلك فقلص دمعي حتى ما أحس منه شيئاً. وانتظرت أبوي أن يجيبا عني رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلما.

قالت: وليم الله لأنا كنت أحقر في نفسي وأصغر شأناً. من أن يُنزل الله في قرآناً يُقرأ به ويُصلى به.

ولكني كنت أرجو أن يرى النبي في نومه شيئاً يكذب الله به عني. لما يعلم من براءتي .

وأما قرآناً ينزل في فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك.

قالت: فلما لم أر أبوي يتكلمان قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

فقالا: والله ما ندري بما نجيبه.

قالت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام.
فلما سكتا استعبرث فيكيت.

ثم قلت: والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً.

والله لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أي منه بريئة لأقولن ما لم يكن.
ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقوني.

قالت: ثم التمسست اسم يعقوب فما أذكره.

فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ).

فوالله ما برح رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه.

حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه.

فسجى بشوبه ووضعت وسادة من آدم تحت رأسه.

فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فرغت وما باليت قد عرفت أي بريئة.

وأن الله غير ظالمي.

وأما أبوي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله.

حتى ظننت لتخرجن أنفسهما.

فرفقا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس.

ثم سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس.

وأنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شاتٍ.

فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول:

أبشري يا عائشة قد أنزل الله عز وجل براءتك.

فقلت الحمد لله.

ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك.

ثم أمر بمسطح بن أثانة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش.

وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
 الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ
 وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَلَيْشَهِدَ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
 الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ
 وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً
 وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ
 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَمَنْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ
 فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ
 وَالْحَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ
 وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ
 وَالْحَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ
 إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ
 بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ
 وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ
 لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا
 وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ
 لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ
 فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ
 وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
 لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
 إِذْ تَقُولُ لِلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ خَيْرٌ بِالَّذِينَ هُمْ بِهِ عَالِمٌ

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ
وَأُولَآئِذٍ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا
سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ
يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
وَأُولَآئِذٍ فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَأُولَآئِذٍ فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا
وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
وَلَا يَأْتِلِ أَوْلُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى
وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا
أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ
إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ
لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ
يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ
الْحَيِّثَاتُ لِلْحَيِّثِينَ وَالْحَيِّثُونَ لِلْحَيِّثَاتِ
وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ
أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

وأما غزوة الحديبية أو عُمره الحديبية أو صلح الحديبية.
 فقد كان في ذي القعدة سنة ست.
 وقد خرج رسول الله معتمراً لا يريد حرباً.
 واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه.
 وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت.
 فأبطأ عليه كثير من الأعراب.
 وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار.
 ومن لحق به من العرب وساق معه الهدى وأحرم بالعمرة.
 ليأمن الناس من حربه وليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظماً له.
 حتى إذا كان في عسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال:
 يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل.
 يعني الإبل ومعها صغارها كنايةً عن بذل النفيس في قتاله.
 قد لبسوا جلود النمر وقد نزلوا بذي طوى.
 يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبداً.
 وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموا إلى كراع الغميم.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ويح قريش!
 قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب.
 فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا.
 وإن أظهري الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين.
 وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة.
 فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذي بعثني الله به.
 حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة.
 ثم قال: من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟
 فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله.
 فسلك بهم طريقاً وعرّاً أجرل بين شعاب.
 فلما خرجوا منه وقد شق ذلك على المسلمين.

فأفضوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي.
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه فقالوا ذلك.
فقال: والله إنها للحطة التي عُرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها.
فأمر رسول الله الناس فقال: اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمض.
في طريق يخرج على ثنية المزار مهبط الحديدية من أسفل مكة.
فسلك الجيش ذلك الطريق.
فلما رأت خيل قريش الجيش قد خالفوا عن طريقهم ركضوا راجعين إلى قريش.
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا سلك في ثنية المزار بركت ناقته.
فقال الناس: حزنث فقال: ما حزنث وما هو لها بخلق.
ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة.
لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها.
ثم قال للناس: انزلوا.
قيل له يا رسول الله ما بالوادي ماء يُنزل عليه.
فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه.
فنزل به في قلب من تلك القلوب فغرز في جوفه.
فجاش بالروء حتى ضرب الناس عنه بعطن.
فلما اطمأن رسول الله أتاه بديل بن ورقاء في رجال من خزاعة.
فكلموه وسألوه ما الذي جاء به؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً.
وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمة.
فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد.
وإن محمداً لم يأت لقتال إنما جاء زائراً لهذا البيت.
فأتموهم وجبهوهم وقالوا: وإن جاء ولا يريد قتالاً.
فوالله لا يدخلها علينا عنوة ولا نتحدث بذلك عنا العرب.
وكانت خزاعة موضع نصح رسول الله مسلمها ومشركها.
لا يُخفون عنه شيئاً كان بمكة.
ثم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن مسعود الثقفي.
فخرج حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه.
ثم قال: يا محمد جمعت أوشاب الناس.
ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم.

إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمرور.
يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً.
وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً.
فكلمه رسول الله بنحو مما كلم به أصحابه وأخبره انه لم يأت يريد حرباً.
فقام من عند رسول الله وقد رأى ما يصنع به أصحابه.
لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه.
فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه.
وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قومه قط.
مثل محمد في أصحابه ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه لشيء أبداً.
ثم دعا رسول الله عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشرف قريش.
يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمة.
فخرج عثمان إلى مكة فلقه أبان بن سعيد بن العاص فحمله بين يديه.
ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش.
فبلغهم عن رسول الله ما أرسله به.
فقالوا لعثمان حين بلغ رسالة رسول الله إن شئت أن تطوف بالبيت فطف.
قال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم.
واحتمسته قريش عندها فبلغ رسول الله أن عثمان قد قُتل.
فقال حين بلغه أن عثمان قد قتل: لا نبرح حتى نناجز القوم.
ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة.
وكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة.
وكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله على الموت.
فبايعوه ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها.
ثم علم رسول الله أن الذي ذُكر من أمر عثمان باطل.
ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو إلى رسول الله.
وقالوا: أئت محمداً وصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا.
فوالله لا نتحدث العرب أنه دخلها عنوة أبداً.
فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله مقبلاً.
قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلما انتهى سهيل إلى رسول الله تكلم فأطال الكلام ثم جرى بينهما الصلح.
فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب.
دعا رسول الله عليّ بن أبي طالب.
فقال اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.
فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتب باسمك اللهم فكتبها.
ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو.
فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك.
ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.
فقال رسول الله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو:
اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين.
يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.
على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم.
ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.
وإن بيننا عيبة مكفوفة.
وإنه لا إسلال ولا إغلال.
وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.
ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.
وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا مكة.
وإنه إذا كان عام قايلاً خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك.
فأقمت بما ثلاثاً معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها.
فلما فرغ رسول الله من الكتاب.
أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين.
فلما فرغ من الصلح قام إلى هديه فنحره ثم جلس فحلق رأسه.
فلما رأى الناس أن رسول الله قد نحر وحلق توثبوا ينحرون ويحلقون.

وسمى الله ذلك فتحاً وأنزل فيه سورة الفتح:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا
 لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ
 وَيُؤَيِّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا
 وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا
 هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ
 لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا
 لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا
 وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ
 الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ
 وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا
 وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا
 إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا
 لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا
 إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
 فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ
 وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا).
 فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه.
 إنما كان القتال حيث التقى الناس.
 فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس.
 كلّم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة.
 فلم يكلم أحد في الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه.
 ولقد دخل في هاتين السنتين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

وعطش الناس يوم الحديبية ورسول الله بين يديه ركوة فتوضأ منها.
ثم أقبل الناس نحوه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما لكم؟
قالوا: يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا ما نشرب إلا ما في ركوتك.
فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده في الركوة.
فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.
فشربوا وتوضأوا.

وكان يهود خيبر هم العقل المدبّر الذي حرّض الأحزاب على غزو المدينة. وتحالفوا مع غطفان لتشارك في الحرب بجيش قوامه ستة آلاف مقاتل. مقابل أن يعطوها تمر خيبر لمدة عام. وشجعوا بني قريظة على خيانة العهد مع رسول الله. واتصلوا بالمنافقين وأعراب البادية. وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال ووضعوا خطة لاغتيال النبي صلى الله عليه وسلم. فلما اطمأن رسول الله بتحييد أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة وهو قريش. بعد صلح الحديبية أراد أن يقلّم أظفار الجناحين الباقين: اليهود وأعراب البادية من المنافقين. حتى يتحقق الأمن ويتفرغ المسلمون للدعوة. فلما رجع رسول الله من الحديبية مكث أياماً ثم خرج إلى خيبر. وهي التي وعده الله إياها. ولما سار إلى خيبر فنزل بالرجيع وهو واد بين خيبر وغطفان. فتخوف أن تمدهم غطفان فبات به حتى أصبح فغدا عليهم. وكانت غطفان لما سمعوا بذلك خرجوا ليظاهروا اليهود عليه. حتى إذا ساروا سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حساً. فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أموالهم وأهليهم. وخالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين خيبر. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر ليلاً. وكان إذا أتى قوماً بليل لم يُغَرِّبهم حتى يصبح. فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم. فلما رأوه قالوا محمد والخميس. فقال رسول الله: خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين. فنكصوا ورجعوا إلى حصنهم وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان عليّ بن أبي طالب تخلف عن رسول الله في خيبر. وكان رمداً فقال: كيف أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم؟ فلحق به.

فلما كانت الليلة التي فتحت فيها خير قال:
لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.
فلما أصبح الناس غدوا على النبي صلى الله عليه وسلم.
كلهم يرجو أن يُعطاهها.
فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقالوا: هو ذا يا رسول الله يشتكي عينيه.
فأرسل إليه فأتى فبصق رسول الله صلى الله عليه وسلم في عينيه.
ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية.
فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟
فقال صلى الله عليه وسلم انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم.
ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه.
فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْر النَّعَم.
ففتح الله على عليٍّ ومن معه.
وراح رسول الله يفتح خيبر حصناً حصناً.
وكان أول حصونهم حصن ناعم.
ثم القموص حصن بني أبي الحقيق.
ثم حصن الصعب بن معاذ وما بخيبر حصن كان أكثر طعاماً وودكاً منه.
ولما افتتح رسول الله من حصونهم ما افتتح.
انتهوا إلى حصنهم الوطيح والسلام وكان آخر حصون خيبر افتتاحاً.
فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشر ليلة.
حتى إذا أيقنوا بالهلكة سألوه أن ينفيتهم وأن يحقن دماءهم ففعل.
ولما سمع أهل فدك بما صنعوا بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
يسألونه أن ينفيتهم ويحقن دماءهم ويخلُّوا له الأموال ففعل.
ولما سمع المهاجرون إلى الحبشة بفتح الرسول خيبر.
قدم بهم جعفر بن أبي طالب إلى النبي في خيبر.
فاستقبلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وقبل جعفر بين عينيه والتزمه وقال:
ما أدري بأيهما أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر.

ولم تنته مكائد اليهود بفتح خيبر .
 فإن امرأة يهودية من خيبر أتت رسول الله بشاة مسمومة فأكل منها .
 وكان يجب الذراع فأكل منها وأكل معه جماعة من أصحابه .
 ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارفعوا أيديكم .
 وأرسل إلى المرأة فدعاها فقال لها أسممت هذه الشاة؟
 قالت اليهودية من أخبرك؟ قال أخبرتني هذه التي في يدي وهي الذراع .
 قالت نعم قال فما أردت بذلك؟ قالت : إن كنت نبياً فلن تضرك .
 وإن لم تكن نبياً استرحنا منك .
 فعفا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعاقبها .
 وتوفي بعض أصحابه الذين أكلوا من الشاة .
 واحتجم النبي على كاهله من أجل الذي أكل من الشاة .
 وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده ثلاث سنين .
 حتى كان وجعه الذي توفي فيه فقال :
 ما زلت أجد من الأكلة التي أكلتُ من الشاة يوم خيبر .
 حتى كان هذا أوان انقطاع أبجري .
 فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيداً .

ثم كانت عمرة القضاء أو القصاص أو القضية.
 فإن النبي لما جاء مكة معتمراً وردوه عنها في العام السابق.
 كان قاضاهم على أن يرجع عنهم عامه هذا.
 ثم يأتي في العام القابل ولا يدخل مكة إلا بالسيوف في جرابها.
 وألا يقيم أكثر من ثلاثة أيام.
 وهذه العمرة هي المذكورة في سورة الفتح:
 (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ
 لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ
 مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ).
 وهي الموعود بها في قوله عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب.
 حين قال له: ألم تكن تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟
 قال: بلى أفأخبرت أنك تأتيه عامك هذا؟
 قال: لا قال: فإنك آتية ومطوّف به.
 فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر.
 أقام بالمدينة حتى بدأ ذو القعدة.
 فنادى في الناس أن تجهزوا للعمرة فتجهزوا وخرجوا إلى مكة.
 وخرج معه المسلمون ممن كان صُد معه في عمرته تلك.
 فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه.
 وتحدثت قريش بينها أن محمداً في غسرة وجهه وقد وهنتهم حمى يشرب.
 وصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه.
 فلما دخل رسول الله المسجد اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمنى.
 ثم قال: رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة.
 ثم استلم الركن ثم خرج يهرول ويهرول أصحابه معه.
 حتى إذا وراه البيت منهم واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود.
 ثم هروا كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرهما.
 وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ثلاث ليال.

فلما أتى الصبحُ من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزيز.
ورسول الله في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عبادَةَ.
فصاح حويطب ابن عبدالعزيز:
نناشدك الله والعقد لما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث.
فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا رافع فأذن بالرحيل.

اعتمر رسول الله وأصحابه.
وسمعت العرب بذلك.
ودخل كثير منهم في دين الله.
وهذا عمرو بن العاص يقول:
كنت للإسلام مجاناً معانداً.
حضرت بداراً مع المشركين فنجوت ثم حضرت أحداً فنجوت.
ثم حضرت الخندق فنجوت.
فقلت في نفسي إلى متى أستمر في هذا؟
والله ليُظهرن محمداً على قريش.
فلحقت بمالي وأقللت من لقاء الناس.
فلما حضر الحديبية وانصرف رسول الله في الصلح.
ورجعت قريش إلى مكة جعلت أقول:
يدخل محمد قابلاً مكة بأصحابه.
ما مكة بمنزل ولا الطائف ولا شيء خير من الخروج.
وأنا بعد نائي عن الإسلام وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم.
فقدمت مكة وجمعت رجالاً من قومي.
وكانوا يرون رأبي ويسمعون مني ويقدمونني فيما أصابهم.
فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا وسيدنا.
قلت: تعلمون أني والله لأرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً.
وإني قد رأيت رأياً قالوا: وما هو؟
قلت: نلحق بالنجاشي فنكون معه فإن يظهر محمد كنا عند النجاشي.
نكون تحت يد النجاشي أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد.
وإن تظهر قريش فنحن من قد عرفوا فقالوا: هذا الرأي.
قلت: فاجمعوا ما تهديه له وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الجلود المصبوغة.
فحملنا منها كثيراً حتى قدمنا على النجاشي.
فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري.
وكان رسول الله قد بعثه بكتاب كتبه ليزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان.

فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية.
ولو قد دخلتُ على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربتُ عنقه.
فإذا فعلت ذلك سُررتُ فريش.
فدخلت على النجاشي فسجدت له كما كنت أصنع.
فقال: مرحباً بصديقي أهديت لي من بلادك شيئاً؟
قلت: نعم أيها الملك أهديت لك أدماً كثيراً.
ثم قدمته فأعجبه وفرق منه شيئاً بين بطارقتيه.
وأمر بسائره فأدخل في موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به.
فلما رأيت طيب نفسه قلت: أيها الملك.
إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول عدو لنا.
قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا فأعطنيه فأقتله.
فغضب من ذلك ورفع يده فضرب بها أنفي ضربة ظننت أنه كسره.
فجعلت أتلقى الدم بشيبي فأصابني من الذل ما لو انشقت بي الأرض.
ثم قلت أيها الملك لو ظننتُ أنك تكره ما قلتُ ما سألتك.
قال: يا عمرو تسألني أن أعطيك رسولَ رسولِ الله.
من يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى.
والذي كان يأتي عيسى لتقتله؟
قال عمرو: فعبرَ الله قلبي عما كنت عليه.
وقلت في نفسي: عرف هذا الحقَّ والعربُ والعجمُ وتخالف أنت؟
ثم قلت: أتشهد أيها الملك بهذا؟
قال: نعم أشهد به عند الله يا عمرو فأطعني واتبعه.
فوالله إنه لعلَى الحق وليظهرن على من خالفه.
كما ظهر موسى على فرعون وجنوده.
قلت أتبايعني له على الإسلام؟
قال: نعم فبسط يده فبايعني على الإسلام.
ثم دعا بطست فغسل عني الدم وكساني ثياباً.
ثم خرجت على أصحابي فلما رأوا كسوة النجاشي سُروا بذلك.
وقالوا: هل أدركت من صاحبك ما أردت؟
فقلت لهم: كرهت أن أكلمه في أول مرة وقلت أعود إليه.

فقالوا: الرأي ما رأيت.
قال: ففارتهم وكأني أعمد إلى حاجة.
فعمدت إلى موضع السفن فركبت سفينة.
ولما خرجت منها ومعني نفقة فابتعت بعيراً.
وخرجت أريد المدينة فإذا رجالان قد سبقاني.
فنظرت فإذا خالد بن الوليد قلت أين تريد؟
قال محمداً دخل الناس في الإسلام.
والله لو أقمت لأخذ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها.
قلت وأنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام.
فخرج عثمان بن طلحة فرحب بي.
فترافقنا حتى أتينا المدينة فما أنسى قول رجل لقيناه ببئر أبي عتبة يصيح:
يا رياح يا رياح يا رياح فتفاءلنا بقوله وسرنا ثم نظر إلينا فأسمعه يقول:
قد أعطت مكة المقادة بعد هذين وظننتُ أنه يعينني ويعني خالد بن الوليد.
وولى مدبراً إلى المسجد سريعاً فظننت أنه بشر رسول بقدمنا.
فكان كما ظننت وأنخنا بالحرّة فلبسنا من صالح ثيابنا.
ثم نودي بالعصر فانطلقنا إليه.
وإن لوجهه تهللاً والمسلمون حوله قد سُروا بإسلامنا.
فتقدم خالد بن الوليد فبايع ثم تقدم عثمان بن طلحة فبايع.
ثم تقدمت فوالله ما هو إلا أن جلستُ بين يديه فما استطعت أن أرفع طرفي حياءً منه.
فبايعته على أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي ولم يحضري ما تأخر.
فقال إن الإسلام يجبُ ما كان قبله والهجرة تجبُ ما كان قبلها.
قال: فوالله ما عدل بي رسول الله وبخالد بن الوليد أحداً.
من أصحابه في أمر حزيه منذ أسلمنا.
ولقد كنا عند أبي بكر بتلك المنزلة.
ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة وكان عمر على خالد كالعاتب.

316

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه إلى مؤتة.
 في جمادى الأولى من سنة ثمان.
 واستعمل عليهم زيد بن حارثة.
 وقال إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس.
 فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة على الناس.
 فإن قتل عبدالله بن رواحة فليترض المسلمون رجلاً فليجعلوه عليهم.
 فتجهز الناس ثم تهيئوا للخروج وهم ثلاثة آلاف.
 فلما حضر خروجهم ودّع الناس أمراء رسول الله وسلموا عليهم.
 ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام.
 فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء.
 في مائة ألف من الروم وانضم إليه مائة ألف من المستعربة.
 فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين ينظرون في أمرهم.
 وقالوا: نكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نخبره بعدد عدونا.
 فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.
 فشجّع الناس عبدالله بن رواحة.
 وقال: يا قوم والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة.
 وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة.
 ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به.
 فانطلقوا وإنما هي إحدى الحسينيين إما نصر وإما شهادة.
 فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس.
 ثم التقى الناس فاقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله حتى قُتل.
 ثم أخذها جعفر فقاتل القوم حتى قتل.
 وكان جعفر أول المسلمين عقر في الإسلام.
 وذلك أنه حين اقتحم عن فرس له شقراء عقرها ثم قاتل حتى قُتل.
 وكان جعفر أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله فقطعت.
 فاحتضنه بعضديه حتى قُتل وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.
 فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء.

فلما قُتل جعفر أخذ عبدالله بن رواحة الراية ثم تقدم فقاتل حتى قُتل.
ثم أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان.
فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم.
قالوا: أنت قال: ما أنا بفاعل فاصطلح الناس على خالد بن الوليد.
فلما أخذ خالد الراية دافع القوم ثم انحاز وانحيز عنه ورجع بالناس.
ولما أصيب القوم قال رسول الله:
أخذ الراية زيد ابن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً.
ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل شهيداً.
ثم صمت رسول حتى تغيرت وجوه الأنصار.
وظنوا أنه قد كان في عبدالله بن رواحة بعض ما يكرهون.
ثم قال: أخذها عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيداً.
حتى أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله حتى فتح الله عليهم.
ولما رجع أصحاب مؤتة تلقاهم رسول الله والمسلمون معه.
ولقيهم الصبيان يشندون فجعلوا يحثون عليهم بالتراب.
ويقولون: يا فرار فررت في سبيل الله.
فقال رسول الله: ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله.

ثم إن رسول الله كتب إلى ملوك الآفاق يدعوهم إلى الإسلام.
فكتب إلى كسرى وقيصر وإلى النجاشي.
وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله عز وجل.
وليس هذا النجاشي الذي كان صَلَّى عليه.
فقدم دحية بن خليفة على هرقل بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وفيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله.
إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى.
أما بعد فأسلمْ تسلمْ يُوْتِك اللهُ أَجْرَكَ مرتين.
فإن أبيت فإن إثم العوأم عليك.
فلما انتهى إليه كتابه وقرأه أخذه فجعله بين فخذه وخاصرته.
ثم كتب إلى رجل من أهل رومية كان يقرأ من العبرانية ما يقرأ.
يخبره عما جاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فكتب إليه: إنه النبي الذي يُنتظر لا شك فيه فاتبعه.
فأمر بعظماء الروم فجمعوا له في قصره.
فقال: يا معشر الروم إنه قد جاءني كتاب أحمد.
وإنه والله النبي الذي كنا ننتظر.
ومحمل ذكره في كتابنا نعرفه بعلاماته وزمانه.
فأسلموا واتبعوه تسلم لكم دنياكم وآخرتكم.
فنخروا نخرة رجل واحد وابتدروا الأبواب فوجدوها مغلقة دونهم.
فخافهم وقال: يا معشر الروم.
إني إنما قلت لكم هذه المقالة أختبركم بها.
لأنظر كيف صلابتكم في دينكم؟
فلقد رأيت منكم ما سرّني.
فوقعوا له سجداً ثم فتحت لهم الأبواب فخرجوا.
ثم إن أبا سفيان أخبر أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش.
وكانوا تجاراً بالشام فأتوه وهم بإيلياء.

فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم.
ثم دعا بالترجمان فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟
قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً.
قال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره.
ثم قال لترجمانه: قل لهم:
إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبتني فكذبوه.
قال أبو سفيان: فوالله لولا أن يؤثروا عني كذباً لكذبت عنه.
ثم كان أول ما سألتني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟
قلت هو فينا ذو نسب.
قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟
قلت: لا قال: فهل كان من آباءه من ملك؟
قلت: لا قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟
قلت: بل ضعفاؤهم قال: أيزيدون أم ينقصون؟
قلت: بل يزيدون قال: فهل يرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟
قلت: لا قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
قلت: لا: قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها.
قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم قال: فكيف كان قتالكم إياه؟
قلت الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وينال منه.
قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً.
واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.
فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب.
وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.
وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فذكرت أن لا.
فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله.
وسألتك هل كان من آباءه من ملك فذكرت أن لا.
فلو كان من آباءه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه.
وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فذكرت أن لا.
فقد عرفت أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.
وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه.

وهم أتباع الرسل وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيّدون.
وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.
وسألتك أيرتد أحد منهم سخطةً لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا.
وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.
وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا.
وكذلك الرسل لا تغدر.
وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً.
وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.
فإن كان كما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين.
وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم.
فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدميه.
ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به مع دحية.
فلما فرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا.
فقلت لأصحابي حين خرجنا لقد أمسى أمر ابن أبي كبشة عظيماً.
أن يخافه ملك بني الأصفر.
فمازلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام.

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب .
 إلى كسرى فأمر كسرى بإيوانه أن يزين ثم أذن لعظماء فارس .
 ثم أذن لشجاع بن وهب .
 فلما دخل عليه أمر كسرى بكتاب رسول الله أن يُقبض منه .
 فقال شجاع: لا حتى أدفعه أنا إليك كما أمرني رسول الله .
 فقال كسرى: ادن فدنا فناوله الكتاب ثم دعا كاتباً له من أهل الحيرة .
 فقرأه فإذا فيه من محمد عبدالله ورسوله إلى كسرى عظيم فارس .
 فأغضبه حين بدأ رسول الله بنفسه .
 وصاح وغضب ومزق الكتاب قبل أن يعلم ما فيه .
 وأمر بشجاع بن وهب فأخرج فقعد على راحلته ثم سار .
 ثم قال: والله ما أبالي على أي الطريقين أكون .
 فقد أدت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 فلما قدم شجاع على النبي أخبره بما كان من أمر كسرى .
 وتمزيقه لكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مزق كسرى ملكه .
 ثم كتب كسرى إلى نائبه باذام على اليمن:
 أن ابعث إلى هذا الرجل بالحجاز رجلين من عندك فليأتياي به .
 فبعث عامل كسرى على اليمن رجلين .
 وكتب معهما إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى .
 حتى قدما على رسول الله فقالا ما أتيا من أجله .
 فقال ارجعا حتى تأتياي غداً .
 وأتى رسول الله الخبر من السماء بأن الله قد سلط على كسرى ابنه فقتله .
 فدعاها فأخبرهما فقالا: هل تدري ما تقول؟
 فخرجا من عنده حتى قدما على باذام فأخبراه الخبر .
 فقال: والله ما هذا بكلام ملك وإني لأرى الرجل نبياً كما يقول .
 فلم يلبث باذام أن قدم عليه كتاب شيرويه:

أما بعد فإني قد قتلت كسرى غضباً لفارس.
لما كان استحل من قتل أشرفهم ونحرهم في ثغورهم.
فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك.
وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه.
فلا تُهجه حتى يأتيك أمري فيه.
فلما انتهى كتاب شيرويه إلى بادام قال: إن هذا الرجل لرسول.
فأسلم وأسلمت أبناء فارس الذين كانوا باليمن.

319

ثم بعث رسول الله إلى المقوقس ملك الإسكندرية حاطب بن أبي بلتعة.
قال حاطب: فجئته بكتاب رسول الله فأنزلي في منزله.
وأقمت عنده ثم بعث إليّ وقد جمع بطارقه.
وقال: إني سائلك عن كلام فأحب أن تفهم عني.
قلت: هلم قال: أخبرني عن صاحبك أليس هو نبي؟
قلت: بل هو رسول الله.
قال: فما له لم يدعُ على قومه حيث أخرجوه من بلده إلى غيرها؟
فقلت: عيسى ابن مريم أليس تشهد أنه رسول الله؟
قال: بلى قلت: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يصلبوه.
ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حيث رفعه الله إلى السماء الدنيا؟
فقال لي: أنت حكيم قد جاء من عند حكيم.
هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد.
وبعث رسول الله سليط بن عمرو إلى هوزة بن علي صاحب اليمامة.
وبعث العلاء بن الحضرمي إلى صاحب عمان.

ثم كانت غزوة الفتح الأعظم في رمضان سنة ثمان.
 وكان سببها أنه كان في صلح الحديبية.
 أن من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل.
 ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدهم.
 فتواثبت خُزاعة وقالوا نحن ندخل في عقد محمد وعهده.
 وتواثبت بنو بكر وقالوا نحن ندخل في عقد قريش وعهدهم.
 فمكثوا في تلك الهدنة شهوراً.
 ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً.
 وقالت قريش ما يعلم بنا محمد وهذا الليل وما يرانا من أحد.
 فأعانوهم عليهم بالسلاح وقتلوهم معهم.
 حقداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 وأن عمرو بن سالم ركب عندما كان من أمر خزاعة وبني بكر.
 حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره الخبر ويستنصره.
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نُصرت يا عمرو بن سالم.
 وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بالجهاز.
 وكتمهم مخرجه وسأل الله أن يُعَيِّي على قريش خبره حتى ييغتهم في بلادهم.
 وقال: اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعوا بنا إلا فجأة.
 فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يمكث.
 ثم أخذ في الجهاز وأمر عائشة أن تجهزه وتخفي ذلك.
 ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد.
 فدخل أبوبكر على عائشة فوجد عندها حنطة تُنسف وتنقى.
 فقال لها: يا بنية لم تصنعين هذا الطعام؟
 فسكتت فقال: أريد رسول الله أن يغزو؟ فصمتت.
 فقال: يريد الروم؟ فصمتت.
 قال: فلعله يريد أهل نجد؟ فصمتت.
 قال: فلعله يريد قريشاً؟ فصمتت.

قال: فدخل رسول الله فقال له: يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً؟
 قال: نعم قال: فلعلك تريد بني الأصفر؟ قال: لا.
 قال: أتريد أهل نجد؟ قال: لا قال فلعلك تريد قريشاً؟ قال: نعم.
 قال أبو بكر يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة؟
 قال: ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب.
 وأذن رسول الله في الناس بالغزو.
 ولما أجمع رسول الله المسير إلى مكة.
 كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم.
 ثم أعطاه امرأة وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً.
 فجعلته في رأسها ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به.
 وأتى رسول الله الخبر من السماء بما صنع حاطب.
 فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام.
 فقال: أدركا هذه المرأة.

فخرجتا حتى أدركاها فاستنزلاها فالتمساه في رحلها فلم يجدا فيه شيئاً.
 فقال لها علي: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ولا كذبنا.
 ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك.
 فلما رأته الجدة منه قالت: أعرض.
 فأعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها.
 فدفعته إليه فأتى به رسول الله فدعا حاطباً.
 فقال يا حاطب ما حملك على هذا؟
 قال: يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله ما غيرت ولا بدلت.
 ولكنني كنت امرأة ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة.
 وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم.
 فقال عمر: يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه فإن الرجل قد نافق؟
 فقال رسول الله: وما يدريك لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر.
 فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.
 وأنزل الله في حاطب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ).

ثم مضى رسول الله لعشر مضي من شهر رمضان.
 فصام وصام الناس معه المهاجرون والأنصار لم يتخلف عنه منهم أحد.
 حتى كان بالطريق فأفطر ودعا بإناء فشرب نهاراً ليراه الناس.
 فأفطروا حتى قدموا مكة.
 وقد كان العباس بن عبدالمطلب لقي رسول الله ببعض الطريق.
 لقيه مهاجراً بعياله وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته.
 ورسول الله صلى الله عليه وسلم عنه راض.
 وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن أبي أمية.
 قد لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً بالطريق.
 والتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما.
 فقالت: يا رسول الله إن ابن عمك وابن عمتك وصهرك.
 قال: لا حاجة لي بهما أما ابن عمي فهتك عرضي.
 وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال.
 قال له يومذاك: والله لا آمنتُ بك حتى تتخذ سلماً إلى السماء.
 فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتي بصكّ.
 وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك.
 فلما خرج إليهما الخبر بذلك ومع أبي سفيان ابن له.
 فقال: والله ليأذن لي أو لآخذن بيد بني هذا.
 ثم لنذهبن في الأرض ثم نموت عطشاً.
 فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم رق لهما.
 ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما.
 ونزل رسول الله مر الظهران وقد عميت الأخبار عن قريش.
 فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 ولا يدرون ما رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعل.
 وخرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء.
 يتجسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به.

وقال العباس حين رأى جيش النبي: واصباح قريش!
والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه.
إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.
قال فجلست على بغلة رسول الله البيضاء فخرجت عليها.
حتى جئت الأراك فقلت: لعلي أجد بعض الخطابة أو ذا حاجة.
يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فيخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.
قال: فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له.
إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول:
ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً.
فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب.
قال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.
قال العباس: فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة؟
فعرف صوتي فقال أبو الفضل؟
قلت: نعم قال مالك فدى لك أبي وأمي؟
قلت: ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس.
فقال: واصباح قريش والله فما الحيلة فذاك أبي وأمي؟
قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك.
فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فاستأمنه لك.
قال فركب خلفي فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا من هذا؟
فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله .
حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال من هذا؟ وقام إليّ.
فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله.
الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد؟
ووجأ في رقبة أبي سفيان وأراد قتله فمنعه منه العباس.
ثم خرج عمر يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وركضت البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء.
قال: فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان.

قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعني فلاضرب عنقه؟
 فقلت: يا رسول إني قد أجرته.
 ثم جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه.
 فقلت والله لا يناجيه الليلة دوني رجل.
 فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر.
 فوالله أن لو كان من رجال بني عديّ ما قلت هذا.
 ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبدمناف.
 فقال مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت.
 أحب إليّ من إسلام الخطاب.
 وأعرف أن إسلامك أحب إلى رسول الله من إسلام الخطاب.
 فقال رسول الله اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به.
 قال: فذهبت به إلى رحلي فبات عندي فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله.
 فلما رآه قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟
 فقال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.
 والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.
 قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟
 قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك.
 أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.
 فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد قبل أن تضرب عنقك؟
 فشهد شهادة الحق فأسلم.
 فقلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً؟
 فقال: نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.
 ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن.
 ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.
 فلما ذهب لينصرف قال رسول الله يا عباس:
 احبس به بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها.
 قال العباس: فخرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي.
 حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أحبسه.
 قال ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هؤلاء؟

فأقول سليم فيقول ما لي ولسليم ثم تمر به القبيلة فيقول يا عباس من هؤلاء؟
فأقول مزينة فيقول ما لي ولمزينة حتى نفذت القبائل.
ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته قال ما لي ولبني فلان.
حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبتته الخضراء.
وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد.
فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟
قلت: هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار.
قال: ما لأحد بمؤلاء من قبيل ولا طاقة.
والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً.
قلت: يا أبا سفيان إنها النبوة قال: فنعم إذن.
فقلت النجاء إلى قومك.
حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته يا معشر قريش.
هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به.
فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.
فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت:
اقتلوا الحميت الدسم الأحمس قبح من طليعة قوم.
فقال أبو سفيان: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم.
فإنه قد جاءكم ما لا قبيل لكم به من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.
قالوا: قاتلك الله وما تعني عنا دارك؟
قال ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن.
فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.
ولما مر رسول الله بأبي سفيان قال له:
إني لأرى وجوها كثيرة لا أعرفها لقد كثرت هذه الوجوه علي؟
فقال له رسول الله: أنت فعلت هذا وقومك.
إن هؤلاء صدقوني إذ كذبتموني ونصروني إذ أخرجتموني.
ثم شكوا إليه قول سعد بن عبادة حين مر عليه فقال:
يا أبا سفيان: اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمه.
فقال رسول الله: كذب سعد بل هذا يوم المرحمة.

وأمر رسول الله خالد بن الوليد أن يدخل من أعلى مكة من كداء.
 ودخل صلى الله عليه وسلم مكة وعليه عمامة سوداء من غير إحرام.
 ودخل على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يرجع.
 وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح.
 وذقنه على راحلته متخشعاً.
 وكلمه رجل فأخذته الرعدة فقال له: هؤن عليك.
 فإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد.
 ولما دخل رسول الله مكة وأتى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمُر.
 فتبسم إلى أبي بكر وقال: يا أبا بكر كيف قال حسان؟
 فأنشده أبو بكر رضي الله عنه:
 عدمنّا خيلنا إن لم تروها
 تشير النقع موعدها كداءً
 ينازعن الأسنّة مُصعِداتٍ
 يلطمهن بالخمُر النساءُ
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخلوها من حيث قال حسان.
 ولما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي طوى.
 قال أبو قحافة لإحدى حفيداته: أي بنية اصعدي بي على أبي قبيس.
 وكان قد كُف بصره قالت فأشرفتُ به عليه.
 فقال: أي بنية ماذا ترين؟ قالت أرى سواداً مجتمعاً.
 قال: تلك الخيل.
 ثم قالت: قد والله انتشر السواد.
 فقال: قد والله إذن دفعت الخيل فأسرعي بي إلى بيتي.
 فلما دخل رسول الله مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده.
 فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
 هلاً تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه؟
 قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه.

فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال: أسلم فأسلم.
 ولما دخل صلى الله عليه وسلم مكة قال:
 منزلنا إن شاء الله بخيف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر.
 وقال: إن الله حرم هذا البلد يوم خلق السموات والأرض.
 وصاغه يوم صاغ الشمس والقمر وما حياله من السماء حرام.
 وأنه لم يجل لأحد قبلي.
 وإنما حل لي ساعة من نهار ثم عاد كما كان.
 فقيل له هذا خالد بن الوليد يقتل؟
 فقال قم يا فلان فأت خالد بن الوليد فقل له فليرفع يديه من القتل.
 ولما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت.
 فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده.
 فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة.
 ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرهما بيده ثم طرحها.
 ثم وقف على باب الكعبة وقد التف حوله الناس في المسجد.
 ثم سجد سجديتين ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها ودعا بماء فشرب منها.
 وتوضأ والناس يبتدون وضوءه والمشركون يتعجبون من ذلك.
 ويقولون ما رأينا ملكاً قط ولا سمعنا بمثل هذا.
 وأخر المقام إلى مقامه اليوم وكان ملصقاً بالبيت.
 ولما قام على باب الكعبة قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
 صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده.
 ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أبي فاعل بكم؟
 قالوا خيراً أتح كريم وابن أخ كريم.
 قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء.
 ثم جلس في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده.
 فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك؟
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أين عثمان بن طلحة؟
 فدعي له فقال هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء.
 ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح.
 وحول البيت ستون وثلاثمائة صنماً.

فجعل يطعنها بعود في يده ويقول:

(جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا).

وأمر بلالاً فصعد على ظهر الكعبة فأذّن عليها بالصلاة ليغيظ به المشركين.

ثم أقام بقية شهر رمضان في مكة يقصر الصلاة ويفطر.

وقال قولته المشهورة: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية.

وأنزل الله: (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْقَذَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ

أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْقَذُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا

وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى).

ونزل قوله تعالى: (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) فقرأها رسول الله حتى ختمها.

وقال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية.

ثم كانت غزوة هوازن يوم حُنين.

التي قال الله فيها:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا

وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ

وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

فقد قال أبو بكر الصديق لن تُغلب اليوم من قلة!

فانهزموا فكان أول من انهزم بنو سليم ثم أهل مكة ثم بقية الناس.

وكانت هوازن لما سمعت برسول الله وما فتح الله عليه من مكة.

جمعها ملكها مالك بن عوف فاجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها.

واجتمعت نصر وجشم كلها.

وسعد بن بكر وناس من بني هلال.

وفي بني جشم دريد بن الصمة شيخ كبير.

ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه ومعرفته بالحرب وكان شيخاً مجرباً.

وجماعة أمر الناس إلى مالك بن عوف.

فلما أجمع السير إلى رسول الله أحضر مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم.

فلما نزل بوادي أوطاس اجتمع إليه الناس وفيهم دريد بن الصمة.

فقال: أين مالك؟ قالوا: هذا مالك ودُعي له.

قال: يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك وإن هذا يوم كائن له ما بعده.

مالي أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير ويعار الشاء؟

قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم.

قال: ولم؟ قال أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم.

فصفق بيديه ثم قال: راعي ضأن والله هل يرد المنهزم شيء؟

إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه.

وإن كانت عليك فُضحتَ في أهلِكَ ومالك.

ثم بعث مالكُ بن عوفَ عيوناً من رجاله فأتوه وقد تفرقت أوصالهم.

فقال ويلكم ما شأنكم؟ قالوا رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلق.

فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

فما رده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد.

ولما سمع بهم نبي الله بعث إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي.

وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم.

ثم يأتيه بخبرهم فانطلق ابن أبي حدرد فدخل فيهم.

حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله.

وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ثم أقبل حتى أتى رسول الله.

فأخبره الخبر فلما أجمع رسول الله السير إلى هوازن.

ذُكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً له وسلاحاً.

فأرسل إليه وهو يومئذ مشرك فقال:

يا أبا أمية أعزنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً.

فقال صفوان أغصباً يا محمد؟

قال بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك.

قال: ليس بهذا بأس فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح.

ثم خرج رسول الله معه ألفان من أهل مكة.

مع عشرة آلاف من أصحابه.

قال الحارث بن مالك: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسيرنا معه إلى حنين.

وكانت لقريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط.

يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً.

فأرأينا ونحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سدرة خضراء عظيمة.

فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

الله أكبر قلتُم والذي نفسي بيده كما قال قوم موسى لموسى:

(اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَٰتِلُونَ).

إنها السنن لتركيبن سنن من كان قبلكم.

فساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطنبوا السير .
حتى كان العشيّة فحضرت صلاة الظهر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فجاء فارس فقال: يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا .
فإذا أنا بهوازن على بكرة أبيهم بظعنهم وبنعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين .
فتبسم رسول الله وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله .
وخرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين .
فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها .
فأعدوا وتهبأوا في مضايق الوادي وأحنائه .
وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادي في عماية الصبح .
فلما انحط الناس ثارت في وجوههم الخيل فشدت عليهم .
وانكفأ المسلمون منهزمين لا يُقبل أحد على أحد .
وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين .
يقول هلموا إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله .
أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب .
وركبت الإبل بعضها بعضاً .
فلما رأى رسول الله أمر الناس ومعه رهط من أهل بيته .
منهم العباس آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو عليها .
ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء .
في رأس رمح طويل أمام هوازن وهوازن خلفه .
إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه .
فبينما هو كذلك إذ هوى له علي بن أبي طالب ورجل من الأنصار يريدانه .
قال فأتى عليّ من خلفه فضرب عرقوبي الجمل فوق علي عجزه .
ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة قطع قدمه بنصف ساقه .
وقال النبي: يا عباس نادِ يا معشر الأنصار يا أصحاب الشجرة .
فأجابوه لبيك لبيك فجعل الرجل يذهب ليعطف بعيه فلا يقدر على ذلك .
فيقذف درعه عن عنقه ويأخذ سيفه وترسه ثم يؤمّ الصوت .
حتى اجتمع إلى رسول الله منهم مائة فاستعرض الناس فاقتتلوا .
وتجالد الصحابة وما رجعوا من هزيمتهم .
حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والتفت رسول إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب.
وكان ممن صبر يومئذ وكان حسن الإسلام حين أسلم.
وهو أخذ بمؤخر بغلة رسول الله فقال من هذا؟
قال: ابن أمك يا رسول الله.
فقتل الله منهم من قتل وانهم منهم من انهم.
وأفاء الله على رسوله أموالهم ونساءهم وأبناءهم.

ولما هربت ثقيف إلى الطائف أغلقوا عليهم أبواب مدينتها.
 وصنعوا الصنائع للقتال.
 فسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من حُنين إلى الطائف.
 وفي الطريق إليها ابتنى بها مسجداً فصلى فيه.
 وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحصن مالك بن عوف فهدم.
 ثم سلك في طريق يقال لها الضيقة فسأل عن اسمها فقال: ما اسم هذه الطريق؟
 فقيل الضيقة فقال بل هي اليسرى.
 ومروا رسول الله بقبر فقال: هذا قبر أبي رغال وهو أبو ثقيف.
 وكان دليل أبرهة لهدم الكعبة.
 فأصابته النقمة التي أصابت قومه بهذا المكان فدفن فيه.
 وقال النبي: إن آية ذلك أنه دفن معه غصن من ذهب.
 إن أنتم نبشتم عنه أصبتموه فابتدره الناس فاستخرجوا معه الغصن.
 ثم مضى رسول الله حتى نزل قريباً من الطائف.
 فحاصروهم ليالي يقاتلهم ويقاتلونه من وراء حصنهم.
 وبعث منادياً ينادي من خرج إلينا فهو حر.
 فخرج إليه نفر فأعتقهم ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمله.
 وكان يعتق من جاءه من العبيد قبل مواليهم إذا أسلموا.
 ورماهم بالمنجنيق وكان أول من رمى في الإسلام بالمنجنيق أهل الطائف.
 ولما حاصر رسول الله الطائف فلم ينل منهم شيئاً.
 استشار نوفل بن معاوية الدثلي فقال: يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟
 قال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك.
 ثم أمر عمر أن يؤذّن بالرحيل.
 فلما أصبحوا ارتحل رسول الله وأصحابه.
 ودعا حين ركب عائداً: اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم.
 وقالوا: يا رسول الله أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم.
 فقال: اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم.

ولما جاء المدينة جاءه وفدهم في رمضان فأسلموا.
قال ابن كثير رحمه الله:
وكانت الحكمة الإلهية تقتضي أن يؤخَّر الفتح وقتها.
لئلا يُستأصلوا قتلاً.
وذلك أن رسول الله لما خرج إلى الطائف قديماً بعد موت عمه أبي طالب.
فدعاهم إلى الله تعالى وإلى أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه.
فردوا عليه قوله وكذبوه.
فرجع مهموماً فلم يستفق إلا عند قرن الثعالب.
فإذا هو بغمامة وإذا فيها جبريل فناده ملك الجبال.
فقال: يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام.
وقد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك.
فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟
فقال بل أستأني بهم.
لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به.
فناسب قوله بل أستأني بهم ألا يفتح حصنهم وقتها.
لئلا يُقتلوا عن آخرهم وأن يؤخَّر الفتح ليقدموا بعد ذلك مسلمين.

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف عن الطائف .
 حتى نزل الجعرانة ومعه من هوازن سبي كثير .
 فأتاه وفد هوازن بالجعرانة .
 وكان معه من سبي هوازن ستة آلاف من الذراري والنساء .
 ومن الإبل والشاء ما لا يُدرى عدده .
 فأدركه وفد هوازن بالجعرانة وقد أسلموا .
 فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة .
 وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك .
 فامنن علينا من الله عليك .
 وقام خطيبهم زهير بن صرد فقال: يا رسول الله .
 إنما في الحظائر من السبايا خالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك .
 إشارة إلى حاضنته حليلة وكانت من بني سعد بن بكر من هوازن .
 وأنت يا رسول الله خير المكفولين .
 فقال رسول الله: نساؤكم وأبناؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم؟
 فقالوا يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا؟
 بل أبناؤنا ونساؤنا أحب إلينا .
 فقال: أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم .
 وإذا أنا صليت بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين .
 وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا .
 فإني سأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم .
 فلما صلى رسول الله بالناس الظهر .
 قاموا فقالوا ما أمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 فقال: أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم .
 فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
 وقالت بنو سليم: بل ما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
 ثم ركب رسول الله واتبعه الناس يقولون:

يا رسول الله اقسم علينا فيعنا.
حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه.
فقال: أيها الناس ردوا عليّ رداي.
فوالذي نفسي بيده لو كان لكم عندي عدد شجر تهامة نَعَمًا.
لقسمته عليكم ثم ما ألفتيموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً.
ثم قام رسول الله إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة.
فجعلها بين إصبعيه ثم رفعها فقال:
أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة.
إلا الخمس والخمس مردود عليكم.
فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة.
فجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر.
فقال: يا رسول الله أخذت هذه لأخيط بها برذعة بعير لي.
ولما قسم رسول الله الغنائم بالجرعانة.
أصاب كل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة.
وآثر أناساً في القسمة وتآلف أقواماً من رؤساء القبائل وأمرائهم.
فعتب عليه أناس من الأنصار وتحدثوا بينهم:
أما من قاتله فيعطيه وأما من لم يقاتله فلا يعطيه؟
فرفع الحديث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فأمر بالأنصار أن يدخلوا عليه.
ثم قال لا يدخلن عليّ إلا الأنصار.
فدخلوا القبة حتى ملأوها فقال يا معشر الأنصار ما حديث أتاني؟
قالوا ما أتاك يا رسول الله؟
قال ألا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون برسول الله؟
قالوا: رضينا يا رسول الله.
ثم قال إني لأعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم.
قالوا: يا رسول الله قد رضينا.
فقال ستجدون أثره شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فإني على الحوض.
فبكى القوم حتى أحضلوا لحاهم وقالوا:
رضينا بالله رباً ورسوله قسماً ثم انصرفوا وتفرقوا.

ثم كانت غزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة من الهجرة.

قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ

فَلَا يَفْرُقُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا

وَإِنْ حَفِظْتُمْ عِيْلَهُ فَسَوْفَ يُعْطِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ).

فلما أمر الله تعالى أن يمنع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره.

قالت قريش: لينقطعن عنا المتاجر والأسواق أيام الحج.

وليذهبن ما كنا نُصِيبُ منها.

فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب.

حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

فعزم رسول الله على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه.

وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقرهم إلى الإسلام وأهله.

وقد قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ

وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على غزو الروم عام تبوك.

وكان ذلك في حر شديد وضيق من الحال.

جلّى للناس أمرها ودعا من حوله من أحياء الأعراب للخروج معه.

فاجتمع معه بشر كثير قريباً من ثلاثين ألفاً.

وتخلف آخرون فعاتب الله من تخلف منهم لغير عذر من المنافقين.

ولامهم ووبخهم وقرعهم أشد القرع وفضحهم أشد الفضيحة.

وأُنزل فيهم قرآناً يتلى ويبين أمرهم في سورة براءة.

فقال تعالى: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِن بَعَدتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ
وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا حَرْجَنَا مَعَكُمْ
يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ).
والآيات بعدها: (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً
فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ).
ثم أقام رسول الله بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب.
ثم أمر الناس بالتهيؤ لغزو الروم.
وذلك في زمان عسرة من الناس وشدة من الحر وجدب من البلاد.
وحين طابت الثمار فالناس يجبون المقام في ثمارهم وظلالهم.
ويكرهون الخروج في الحال من الزمان الذي هم عليه.
وكان رسول الله قلما يخرج في غزوة إلا كَتَى عنها.
إلا ما كان من غزوة تبوك فإنه بيّن لها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان.
وكثر العدو الذي يُصمد إليه ليتأهب الناس لذلك أهبتة.
فأمرهم بالجهاد وأخبرهم أنه يريد الروم.
فقال رسول الله وهو في جهازه ذلك للجد بن قيس أحد بني سلمة:
يا جد هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟
فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني.
فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجل بأشد عجباً بالنساء مني.
وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر.
فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: قد أذنت لك.
ففي الجد أنزل الله: (وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذَنْ لِي وَلَا تَقْتِي
أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ).
وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر زهادة في الجهاد.
وشكاً في الحق وإرجافاً بالرسول صلى الله عليه وسلم.
فأنزل الله فيهم:
(وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ).
وجهب عثمان بن عفان جيش العسرة من ماله.

فقال له رسول الله: ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم.

وجاء جماعة من فقراء الصحابة إلى رسول الله.
 يطلبون أن يزودهم بما يركبون ليخرجوا معه في غزوته.
 فلم يكن لديه ما يحملهم عليه.
 فرجعوا وهم يبكون فسموا البكّائين.
 وفيهم نزل قول الله تعالى:
 (لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى
 وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ
 إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ
 وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
 وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ
 قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ
 حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ
 إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ
 رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ).
 وهؤلاء البكّاءون الذين جاءوا إلى رسول الله.
 ليحملهم حتى يصحبوه في غزوته هذه.
 فلم يجدوا عنده من الظهر ما يحملهم عليه فرجعوا وهم يبكون.
 تأسفاً على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله والنفقة فيه.
 كانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم.
 فقد لقي ابن يامين أبا ليلي وعبدالله بن مغفل وهما يبكيان.
 فقال ما يبكيكما؟ قالوا: جئنا رسول الله ليحملنا.
 فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه.
 فأعطاهما جملاً يركبانه وزودهما شيئاً من تمر.
 فخرجا مع النبي صلى الله عليه وسلم.
 وأما علبة بن زيد فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ثم بكى.
 وقال: اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه.

ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به.
ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه.
وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها.
في مال أو جسد أو عرض ثم أصبح مع الناس.
فقال رسول الله أين المتصدق هذه الليلة؟
فلم يقم أحد ثم قال أين المتصدق فليقم؟
فقام إليه فأخبره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أبشر فوالذي نفسي بيده لقد كتبت في الزكاة المتقبلة.
وقال أبو موسى: أتيت رسول الله في رهط من الأشعريين ليحملنا.
فقال والله ما عندي ما أحملكم عليه.
ثم جيء رسول الله بإبل فأمر لنا بست منها فأخذناها.

ثم استتب برسول الله صلى الله عليه وسلم سفره وأجمع السير.
 فلما خرج ضرب عسكره على ثنية الوداع.
 ومعه زيادة على ثلاثين ألفاً من الناس.
 وضرب عبدالله بن أبي عسكره أسفل منه.
 فلما سار رسول الله تخلف عنه عبدالله بن أبي في المنافقين وأهل الرّيب.
 وخلف رسول الله عليّ بن أبي طالب على أهله.
 وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون.
 وقالوا ما خلفه إلا استثقلاً له وتخففاً منه.
 فلما قالوا ذلك أخذ عليّ سلاحه ثم خرج.
 حتى لحق برسول الله فأخبره بما قالوا.
 فقال: كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي.
 فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك.
 أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.
 فرجع علي ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفره.
 وبعدما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً.
 دخل أبو خيشمة إلى أهله في يوم حار.
 فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه.
 قد رشت كل واحدة منهما عريشها.
 وبردت فيه ماء وهيأت له فيه طعاماً.
 فلما دخل قام على باب العريش فنظر إلى امرأته وما صنعتا له.
 فقال: رسول الله في الضح والريح والحر.
 وأبو خيشمة في ظل بارد وطعام مهياً وامرأة حسناء.
 مقيم في ماله ما هذا بالعدل.
 والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله.
 فهيتا زاداً ففعلتا.
 ثم قدّم جملة فركبه ثم خرج في طلب رسول الله.

حتى أدركه حين نزل تبوك.
فقال الناس هذا راكب على الطريق مقبل.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كن أبا خيثمة.
فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة.
فلما بلغ أقبل فسلم على رسول الله.
ثم أخبره الخبر فقال خيراً ودعا له بخير.
ولما سار رسول الله إلى تبوك تخلف بعض الرجال.
فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان.
فيقول دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم.
وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.
حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره.
فقال دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم.
وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه.
ولما علم أبو ذر أن بعيره سيخذله أخذ متاعه فجعله على ظهره.
ثم خرج يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً.
فقال أحد المسلمين: يا رسول الله إن هذا الرجل ماش على الطريق.
فقال رسول الله: كن أبا ذر.
فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده.
وعاش بعدها أبو ذر وأهله في منطقة منفردة يقال لها الريدة.
فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه فقال:
إذا مت فاغسلاني وكفناني من الليل ثم ضعاني على قارعة الطريق.
فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر.
فلما مات فعلوا به كذلك.
فأطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركابهم تطأ سريره.
فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة.
فقال: ما هذا؟ فقيل جنازة أبي ذر.
فبكى ابن مسعود وقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده.
فتزل في قبره بنفسه حتى وراه.

ومدح الله المسلمين (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ).
 فقد خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير واحد.
 وخرجوا في حر شديد فأصابهم في يوم عطش.
 حتى راحوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ويشربوا ماءها.
 فكان ذلك عسرة في الماء وعسرة في النفقة وعسرة في الظهر.
 وقد قيل لعمر بن الخطاب حدثنا عن شأن ساعة العسرة.
 فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد.
 فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستقطع.
 حتى كان الرجل ينحر بعيره فيعتصر فرثه فيشربه.
 ثم يجعل ما بقي على كبده.
 فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله.
 إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله لنا.
 فقال أوتحب ذلك؟ قال: نعم.
 فرفع يديه نحو السماء فلم يرجعهما حتى تجمعت السحب ثم أمطرت.
 فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها تجاوزت العسكر.
 ولما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة.
 فقالوا: يا رسول الله لو أذنت فتنحر إبلنا فنأكل.
 فقال افعلوا فجاء عمر فقال يا رسول الله.
 إن فعلت قلَّ الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم.
 وادع الله لهم فيها بالبركة لعل الله أن يجعل فيها البركة.
 فقال رسول الله نعم فدعا بفراش فبسطه.
 ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة.
 ويجيء الآخرة بكف من التمر ويجيء الآخر بكسرة.
 حتى اجتمع على الفراش من ذلك شيء يسير.
 فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة.
 ثم قال لهم خذوا في أوعيتكم.

فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا مألؤها.
وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله.
وكان رسول الله حين مر بالحجر عند بيوت ثمود نزلها.
واستقى الناس من بئرها.
فلما راحوا قال رسول الله لا تشربوا من مياهها شيئاً.
ولا تتوضأوا منه للصلاة.
وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً.
وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم.
إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم.

وقدم رسول قيصر إلى رسول الله وهو في تبوك.
 فقد قال قيصر ادعوا لي رجلاً حافظاً للحديث.
 عربي اللسان أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه.
 فجاءوه برجل من تنوخ.
 قال: فدفع إليّ هرقل كتاباً فقال:
 اذهب بكتابي إلى هذا الرجل.
 فما سمعته من حديثه فاحفظ لي منه ثلاث خصال:
 انظر هل يذكر صحيفته إليّ التي كتب بشيء.
 وانظر إذا قرأ كتابي فهل يذكر الليل.
 وانظر في ظهره هل به شيء يريبك.
 قال فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوكاً.
 فإذا هو جالس بين ظهراي أصحابه.
 فقلت أين صاحبكم؟ قيل ها هو ذا.
 فأقبلت أمشي حتى جلست بين يديه فناولته كتابي.
 فوضعه في حجره ثم قال ممن أنت؟
 فقلت أنا أخو تنوخ.
 قال هل لك إلى الحنيفة ملة أبيكم ابراهيم؟
 قلت إني رسول قوم وعلى دين قوم لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم.
 فضحك وقال إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.
 يا أخا تنوخ إني كتبت بكتاب إلى كسرى والله ممزقه وممزق ملكه.
 وكتبت إلى النجاشي بصحيفة فخرقها والله مخرقه.
 وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها.
 فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير.
 قلت هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي.
 فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جنب سيفي.
 ثم إنه ناول الصحيفة رجلاً عن يساره.

قلت من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية.
فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض.
فأين النار؟ فقال رسول الله سبحانه الله أين الليل إذا جاء النهار؟
قال: فأخذت سهماً من جعبتي فكتبته في جلد سيفي.
فلما فرغ من قراءة كتابي قال إن لك حقاً.
وإنك لرسول فلو وجدنا جائزة جوزناك بما إنا سنُمرِّملون.
فناده رجل من الناس قال أنا أجوزه.
ففتح رحله فإذا هو يأتي بحلة صفورية فوضعها في حجري.
قلت من صاحب الجائزة؟ قيل لي: عثمان.
ثم قال رسول الله أيكم يُنزل هذا الرجل؟
فقال فتى من الأنصار: أنا فقام الأنصاري وقمت معه.
حتى إذا خرجت من المجلس ناداني رسول الله.
فقال تعال يا أخا تنوخ فأقبلت أهوي.
حتى كنت قائماً في مجلسي الذي كنت بين يديه.
فحل حبوته عن ظهره وقال ها هنا امض لما أمرت به.
فجلت في ظهره فإذا أنا بخاتم النبوة.

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك.
 أتاه يحنة بن رؤبة صاحب أيلة فصالح رسولاً وأعطاه الجزية.
 وأتاه أهل جرباء وأذرح وأعطوه الجزية.
 وكتب لهم رسول الله كتاباً فهو عندهم.
 وكتب ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة.
 ثم إن رسول الله دعا خالد بن الوليد فبعثه إلى أكيدر دومة.
 وهو أكيدر بن عبد الملك رجل من بني كنانة.
 كان ملكاً عليها وكان نصرانياً.
 وقال رسول الله لخالد إنك ستجده يصيد البقر.
 فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين.
 وفي ليلة مقمرة صائفة وهو على سطح له ومعه امرأته.
 وباتت البقر تحك بقرونها باب القصر.
 فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟
 قال: لا والله قالت: فمن يترك هذا؟
 قال: لا أحد فنزل فأمر بفرسه فأسرج له.
 وركب معه نفر من أهل بيته يطاردها.
 فلما خرجوا تلقتهم خيل النبي فأخذته.
 فلما قدم خالد بأكيدر على رسول الله حقن له دمه.
 فصالحه على الجزية ثم خلّى سبيله فرجع إلى بلده.
 وأقام رسول الله بضع عشرة ليلة لم يجاوزها.
 ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.
 وكانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله.
 ولما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك إلى المدينة.
 همّ جماعة من المنافقين بالفتك به وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق.
 فأخبر بخبرهم فأمر الناس بالمسير من الوادي.
 وصعد هو العقبة وسلكها معه أولئك النفر وقد تلمشوا.

وأمر رسول الله عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه.
عمار أخذ بزمام الناقة وحذيفة يسوقها.
فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم.
فغضب رسول الله وأبصروا حذيفة.
فرجع إليهم ومعه محجن فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه.
فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد أظهر على ما أضمره من الأمر العظيم.
فأسرعوا حتى خالطوا الناس.
وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله فأمرهما فأسرعا.
حتى قطعوا العقبة ووقفوا ينتظرون الناس.
ثم قال رسول الله لحذيفة هل عرفت هؤلاء القوم؟
قال: ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم.
ثم قال علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب؟
قالا: لا فأخبرهما بما كانوا تمالأوا عليه وسماهم لهما.
واستكتمهما ذلك؟ فقالا يا رسول الله أفلا تأمر بقتلهم؟
فقال أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه.
وفيهم أنزل الله عز وجل: (وَهُمْؤا بِمَا لَمْ يَنَالُوا).

ثم إن طائفة من المنافقين بنوا مسجداً قريباً من مسجد قباء.
وأرادوا أن يصلي لهم رسول الله فيه.
حتى يروج لهم ما أرادوه من الفساد والكفر والعناد.
فعصم الله رسوله من الصلاة فيه.
وذلك أنه كان على جناح سفر إلى تبوك.
فلما رجع منها نزل عليه الوحي في شأن هذا المسجد.
(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
وَيَحِلُّونَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا
لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ
فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ
أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ
أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ
إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ).
أما كونه ضراراً فلاهم أرادوا مضاهاة مسجد قباء.
وكفراً بالله وتفريقاً للجماعة عن مسجد قباء.
وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل.
وهو أبو عامر الراهب الفاسق.
وذلك أنه لما دعاه رسول الله إلى الاسلام فأبى عليه.
ذهب إلى مكة فاستنفرهم فجاءوا عام أحد.
فلما لم ينهض أمره ذهب إلى ملك الروم قيصر ليستنصره على رسول الله.
وكان أبو عامر على دين هرقل ممن تنصر معهم من العرب.
وكان يكتب إلى إخوانه الذين نافقوا يعدهم ويمنيهم.

فكانت مكاتباته ورسله تفد إليهم كل حين.
فبنوا هذا المسجد في الظاهر وباطنه دار حرب.
ومقر لمن يفد من عند أبي عامر الراهب.
ومجمع لمن هو على طريقتهم من المنافقين.
فلما كان رسول الله في طريق العودة من تبوك.
دعا مالك بن الدُحشم ومعن بن عدي.
فأمرهما أن يذهبا إلى هذا المسجد الظالم أهله فهدهما وتفرق عنه أهله.

ولما تخلف كعب بن مالك عن رسول الله في تبوك.
 قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله في غزوة غزاها.
 إلا في غزوة تبوك.
 وكان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر.
 حين تخلفت عنه في تلك الغزوة.
 والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة.
 ولم يكن رسول الله يريد غزوة إلا ورى بغيرها.
 حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله في حر شديد.
 واستقبل سفراً بعيداً وعدداً وعدداً كثيراً.
 فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم.
 فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول كثير.
 ولا يجمعهم كتاب حافظ.
 فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن يستخفي له.
 ما لم ينزل فيه وحي الله.
 وغزا رسول الله تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.
 وتجهز رسول الله والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم.
 فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي:
 أنا قادر عليه فلم يزل يتمادي بي حتى اشتد بالناس الجد.
 فأصبح رسول الله والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً.
 فقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقهم.
 فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً.
 ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً.
 فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو.
 وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يُقدِّر لي ذلك.
 فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله فطفت فيهم.
 أحزني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق.

أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.
ولم يذكرني رسول الله حتى بلغ تبوك.
فقال وهو جالس في القوم بتبوك ما فعل كعب؟
فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه ونظره في عطفيه.
فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً.
فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضري همي وطفقتُ أتذكر الكذب.
وأقول بماذا أخرج غداً من سخطه.
واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي.
فلما قيل إن رسول الله قد أظل قادماً زاح عني الباطل.
وعرفت أنني لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب فأجمعتُ صدقه.
وأصبح رسول الله قادماً فكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد.
فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس.
فلما فعل ذلك جاء المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له.
وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم.
وباعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله عز وجل.
فجئته فلما سلمتُ عليه تبسم تبسم المغضب.
ثم قال تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه.
فقال لي ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟
فقلت بلى إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا.
لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر.
ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني.
ليوشكن الله أن يسخطك عليّ.
ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله.
لا والله ما كان لي من عذر.
ووالله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك.
فقممتُ فثار رجال من بني سلمة فاتبعوني.

فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا.
ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله بما اعتذر إليه المخلفون.
وقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله لك.
فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي.
ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟
قالوا: نعم رجلان قالوا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك.
فقلت من هما قالوا مُرارة بن الربيع وهلال بن أمية.
فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بداراً لي فيهما أسوة.
فمضيت حين ذكروهما.
ونهى رسول الله المسلمين عن كلامنا نحن الثلاثة من بين من تخلف.
فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض.
فما هي التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة.
فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يكيان.
وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم.
فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين.
وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد.
وأتي رسول الله فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة.
وأقول في نفسي هل حرك شفثيه برد السلام عليّ أم لا.
ثم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر.
فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ وإذا التفثت نحوه أعرض عني.
حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس.
مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ.
فسلمت عليه فوالله ما رد عليّ السلام.
فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟
فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته.
فقال الله ورسوله أعلم ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار.
وبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نَبْطِي من أنباط أهل الشام.
من قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدلني على كعب بن مالك؟
فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان.

فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك .
ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضئعة فالحق بنا نواسك .
فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء .
فتيممت بها التنور فسجرت به .
فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين .
إذا رسول رسول الله يأتيني فقال:
رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟
قال: لا بل اعتزلها ولا تقر بها وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك .
فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .
فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله فقالت يا رسول الله:
إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم .
فهل تكره أن أخدمه قال لا ولكن لا يقربك .
قالت إنه والله ما به حركة إلى شيء .
والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .
فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله في امرأتك .
كما استأذن هلال بن أمية أن تخدمه .
فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله .
وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .
فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة .
من حين نهي رسول الله عن كلامنا .
فلما صليت الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا .
فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل:
قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت .
سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته:
يا كعب أبشر .
فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج .
وآذن رسول الله للناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر .
فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون .
وركض رجل إلي فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل .

فكان الصوت أسرع من الفرس.
 فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبياً فكسوته إياهما.
 والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما.
 وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتوني بالتوبة.
 يقولون: ليهنك توبة الله عليك.
 حتى دخلت المسجد فإذا برسول الله جالس حوله الناس.
 فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني.
 والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة.
 فلما سلمتُ على رسول الله قال وهو يبرق وجهه من السرور:
 أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك.
 قلت: أمن عندك يا رسول الله أم عند الله؟
 قال: لا بل من عند الله.
 وكان رسول الله إذا سُر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر.
 وكنا نعرف ذلك منه.
 فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله:
 إن من توبتي أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله.
 قال أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.
 قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر.
 وقلت يا رسول الله إن الله إنما نجاني بالصدق.
 وإن من توبتي ألا أتحدث إلا صدقاً ما بقيت.
 فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث.
 منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما أبلاني.
 ما شهدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومي هذا كذباً.
 وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت.
 وأنزل الله: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
 الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ
 ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ
 وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِقُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ

وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ.

عاد رسول الله إلى المدينة من تبوك في رمضان.
وقدم عليه في ذلك الشهر وفد من ثقيف.
وكان من حديثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما انصرف عنهم.
اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم.
وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام فقال له رسول الله إنهم قاتلوك.
وعرف رسول الله أن فيهم نخوة الامتناع للذي كان منهم.
فقال عروة: يا رسول الله أنا أحب إليهم من أبقارهم.
وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً.
فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم.
فلما أشرف عليهم ودعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه.
رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله.
فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟
قال كرامة أكرمني الله بها وشهادة ساقها الله إلي.
فليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله قبل أن يرحل عنكم.
فادفونوني معهم فدفنوه معهم.
ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ثم إنهم ائتمروا بينهم.
ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا.
فائتمروا فيما بينهم ثم أجمعوا على أن يرسلوا رجلاً منهم.
فأرسلوا عبد ياليل بن عمرو ومعه اثنان من الأحلاف وثلاثة من بني مالك.
فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة وجدوا المغيرة بن شعبة.
يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله.
فلما رأهم ذهب يشتد ليبشر رسول الله بقدمهم.
فلقيه أبوبكر الصديق فأخبره عن ركب ثقيف قدموا يريدون البيعة والإسلام.
فقال أبوبكر للمغيرة أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله.
حتى أكون أنا أحدثه ففعل المغيرة.
فدخل أبوبكر فأخبر رسول الله بقدمهم.

ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فعلمهم كيف يحيون رسول الله. فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية. ولما قدموا على رسول الله ضربت عليهم قبة في المسجد. وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله. فكان إذا جاءهم طعام من عنده لم يأكلوا منه. حتى يأكل خالد بن سعيد قبلهم. وهو الذي كتب لهم كتابهم. وكان مما اشترطوا على رسول الله أن يدع لهم الطاغية ثلاث سنين. فما برحوا يسألونه سنة سنة وأبى عليهم. حتى سأله شهراً واحداً بعد مقدمهم ليتألفوا سفهاءهم. فأبى عليهم أن يدعها شيئاً. إلا أن يعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة ليهدماها. وسأله مع ذلك ألا يصلوا وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم. فقال أما كسر أصنامكم بأيديكم فسنعفيكم من ذلك. وأما الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه. وقال عثمان بن أبي العاص: يا رسول الله علمني القرآن واجعلني إمام قومي. فلما أسلموا وكتب لهم كتابهم أمر عليهم عثمان بن أبي العاص. فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين. بعث رسول الله معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية.

ومرض عبدالله بن أبيّ في ليال بقين من شوال.
ومات في ذي القعدة وكان مرضه عشرين ليلة.
فكان رسول الله يعودده فيها.
فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله وهو يجود بنفسه.
فقال قد نهيته عن حب يهود.
فقال: قد أبغضهم أسعد بن زرارة فما نفعه؟
ثم قال: يا رسول الله ليس هذا الحين عتاب.
هو الموت فاحضر غسلني وأعطني قميصك الذي يلي جلدك.
فكفني فيه وصلّ عليّ واستغفر لي.
ففعل ذلك به رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقام رسول الله يصلي عليه فقام عمر بن الخطاب فقال:
يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك الله عنه؟
فقال إن ربي خيرني فقال: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ
إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ
وسأزيد على السبعين فقال إنه منافق أتصلي عليه؟
فأنزل الله عز وجل:
(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ
إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ).
ثم أتى رسول الله قبر عبدالله بن أبيّ بعدما أدخل حفرته.
فأمر به فأخرج فوضعه على فخذه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه.

ثم أقام رسول الله بقية رمضان وشوالاً وذا القعدة.
 ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج من سنة تسع.
 ليقوم للمسلمين حجهم.
 وأهل الشرك على منازلهم من حجهم لم يُصدوا بعد عن البيت.
 ومنهم من له عهد مؤقت إلى أمد.
 فلما خرج أبو بكر رضي الله عنه بمن معه من المسلمين.
 وفصل عن البيت أنزل الله عز وجل الآيات من أول سورة التوبة:
 (بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ)
 إلى قوله: (وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ
 أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ) إلى آخر القصة.
 فبعث رسول الله علياً بعد أبي بكر الصديق ليكون معه.
 ويتولى علي بن نفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين نيابة عن رسول الله.
 ولكونه ابن عمه من عصبته فقال له اخرج بهذه القصة من أول براءة.
 وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى:
 ألا لا يدخل الجنة كافر ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان.
 ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته.
 فخرج علي بن ناقة رسول الله العضاء.
 حتى أدرك أبا بكر فلما رآه قال: أمير أو مأمور؟
 فقال بل مأمور ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج.
 حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله.
 وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم.
 ليرجع كل قوم إلى ما منهم أو بلادهم.
 ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة.
 إلا أحداً كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته.
 فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان.
 ثم قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولما افتتح رسول الله مكة وفرغ من تبوك.
 وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه.
 في سنة تسع وكانت تسمى سنة الوفود.
 فجاء وفد كل قبيلة مسلمين:
 فجاء وفد خزاعة.
 ثم فد بني تميم.
 ثم وفد عبدالقيس.
 ثم وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب.
 ثم وفد أهل نجران وفيهم العاقب والسيد صاحباً نجران.
 ثم وفد دوس وفيهم الطفيل بن عامر الدوسي.
 ثم وفد بني سعد وفيهم ضمام بن ثعلبة.
 ثم وفد طيئ مع زيد الخيل رضي الله عنه.
 ثم وفد الأشعريين وأهل اليمن.
 ثم وفد مراد وفيهم فروة بن مسيك المرادي.
 ثم وفد زبيد وفيهم عمرو بن معديكرب.
 ثم وفد كندة وفيهم الأشعث بن قيس.
 ثم وفد أهل جرش.
 ثم وفد ملوك حَمِير.
 ثم وفد خثعم وبجيلة وفيهم جرير بن عبدالله البجلي.
 ثم وفد ملوك حضرموت وفيهم وائل بن حُجر.
 ثم وفد لقيط بن عامر المنتفق أبي رزين العقيلي.
 ثم وفد صداء وفيهم زياد بن الحارث.
 ثم وفد الحارث بن حسان البكري.
 ثم وفد عبدالرحمن بن أبي عقيل مع قومه.
 ثم وفد طارق بن عبيد الله وأصحابه.
 ثم وفد فروة بن عمرو الجذامي صاحب بلاد معان.

- ثم وفد الدارين وفيهم تميم الداري.
ثم وفد بني أسد وفيهم ضرار بن الأزور.
ثم وفد بني عبس.
ثم وفد بني فزارة وفيهم خارجة بن حصن.
ثم وفد بني مرة وفيهم الحارث بن عوف.
وفد بني محارب وفيهم سواء بن الحارث.
ثم وفد بني كلاب وفيهم ليبد بن ربيعة الشاعر.
ثم وفد بني رؤاس وفيهم عمرو بن مالك.
ثم وفد بني عقيل بن كعب وفيهم الربيع بن معاوية.
ثم وفد بني قشير بن كعب وفيهم قرّة بن هبيرة.
ثم وفد بني البكاء وفيهم معاوية بن ثور.
ثم وفد أشجع وفيهم مسعود بن رخيطة.
ثم وفد باهلة وفيهم مطرف بن الكاهن.
ثم وفد بني سليم وفيهم العباس بن مرداس.
ثم وفد بني حولان.
ثم وفد بنو جعفي وفيهم قيس بن سلمة الجعفي.
ثم وفد الأزدي وفيهم سويد بن الحارث الأزدي.
ثم وفد بني الصدف.
ثم وفد خشين وفيهم أبو ثعلبة الخشني.

فلما دخل على رسول الله ذو القعدة من سنة عشر تجهز للحج. وأمر الناس بالجهاز له.

وانطلق النبي من المدينة بعدما ترجل وادهن ولبس إزاره ورداءه.

وصلى رسول الله الظهر بالمدينة أربعاً والعصر بذى الحليفة ركعتين. ثم بات بها حتى أصبح ثم ركب حتى استوت به راحلته على البيداء.

فحمد الله عز وجل وسبح ثم أهلاً بحج وعمره.

وحج على رحل رث وتحتة قطيفة وقال حجة لا رياء فيها ولا سمعة. وساق معه الهدى من ذى الحليفة.

فقدم مكة لأربع خلون من ذى الحجة.

فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة.

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج.

وركب رسول الله صلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس فأتى عرفة.

حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فركبها.

فأتى بطن الوادي فخطب الناس.

وقال: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم.

كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.

وقال: تركت فيكم ما لم تضلوا بعده إن اعتصمتم به:

كتاب الله وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت وأديت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس:

اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات.

ثم أدن بلال ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر.

ثم ركب رسول الله حتى أتى الموقف واستقبل القبلة.

فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس.

وأردف أسامة بن زيد خلفه ودفع رسول الله.

حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين.
ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر.
ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا.
ثم أتى الجمرة فرماها بسبع حصيات.
ثم انصرف إلى المنحر فنحر الهدي.
حتى طبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها.
ثم ركب رسول الله فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر.
وهكذا حتى أتم مناسكه كلها والمسلمون يقتدون به.
ونزل قوله تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)
ثم خرج عليه السلام من أسفل مكة نحو المدينة.

استقر الركاب الشريف النبوي بالمدينة النبوية المطهرة مرجعه من حجة الوداع.
 فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصغراً.
 فبينما الناس على ذلك ابْتُدئ رسول الله بشكواه الذي قبضه الله فيه.
 إلى ما أَرادَه الله من رحمته وكرامته.
 فكان أول ما ابْتُدئ به رسول الله من ذلك أنه خرج إلى بقيع الغرقد.
 من جوف الليل فاستغفر لهم ثم رجع إلى أهله.
 فلما أصبح ابْتُدئ بوجعه من يومه ذلك.
 قالت عائشة: رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من البقيع.
 فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأن أقول وأرأساه.
 فقال: بل أنا والله يا عائشة وأرأساه.
 ونام به وجعه وهو يدور على نسائه حتى استعز به في بيت ميمونة.
 فدعا نساءه فاستأذنهن أن يُمرَّض في بيتي فأذنَّ له.
 فخرج رسول الله بين رجلين من أهله الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب.
 عاصباً رأسه تخط قدماه الأرض حتى دخل بيتي.
 فلما دخل بيتي واشتد به وجعه.
 قال: أريقوا عليّ ماء لعلني أعهد إلى الناس.
 فطفقنا نصبُ عليه حتى أشار إلينا بيده أن قد فعلتن.
 ثم خرج إلى الناس فصلى لهم وخطبهم.
 ودخل عبدالرحمن بن أبي بكر ومعه سواك يستن به.
 فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.
 فقالت له: أعطني هذا السواك يا عبدالرحمن.
 فأعطانيه فقضمته ثم مضغته.
 فأعطيته رسول الله فاستن به وهو مسند إلى صدري.
 وجاءت فاطمة تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها.
 فقال: مرحباً بابنتي فأقعدها عن يمينه أو شماله.
 ثم سارّها بشيء فبكت ثم سارّها فضحكت.

وكان يقول يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير.
فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم.
وذلك أن الله اتخذ نبياً واتخذ شهيداً.
ثم قال مروا أبا بكر فليصل بالناس.
حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة.
فكشف النبي صلى الله عليه وسلم ستر الحجر.
ينظر إليهم وهو يضحك.
وكانت وصيته: الصلاة وما ملكت أيمانكم.
قالت عائشة: فلما نزل برسول الله ورأسه على فخدي.
غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت.
وقال: اللهم الرفيق الأعلى.
فكانت تلك الكلمة آخر كلمة تكلم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فجاء عمر والمغيرة بن شعبة فاستأذنا فأذنت لهما وجذبت إليّ الحجاب.
فنظر عمر إليه فقال: واغشياه ما أشد غشى رسول الله.
ثم قاما فلما دنوا من الباب قال المغيرة: يا عمر مات رسول الله.
قالت: ثم جاء أبوبكر فرفعت الحجاب فنظر إليه فقال:
إنا لله وإنا إليه راجعون مات رسول الله.
ثم أتاه من قبل رأسه فقبل جبهته ثم قال:
وانبياه.
واصفياه.
واخليلاه.
وخرج إلى المسجد وعمر يخطب الناس ويتكلم ويقول إن رسول الله لا يموت.
فتكلم أبوبكر: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن الله يقول:
(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ).
حتى فرغ من الآية ثم قال:
فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.
ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.
اللهم صلِّ وسلِّم عليه.

واجزه عنا خير ما جزيت نبياً عن أمته.
وأحيننا على الإيمان بما جاءنا به حتى تُدخِلنا مُدخله.

المراجع

ابن كثير:

- ١ - تفسير القرآن العظيم
- ٢ - قصص الأنبياء
- ٣ - البداية والنهاية
- ٤ - السيرة النبوية

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali_111@hotmail.com

الكويت 98866903

مصر 01099694140